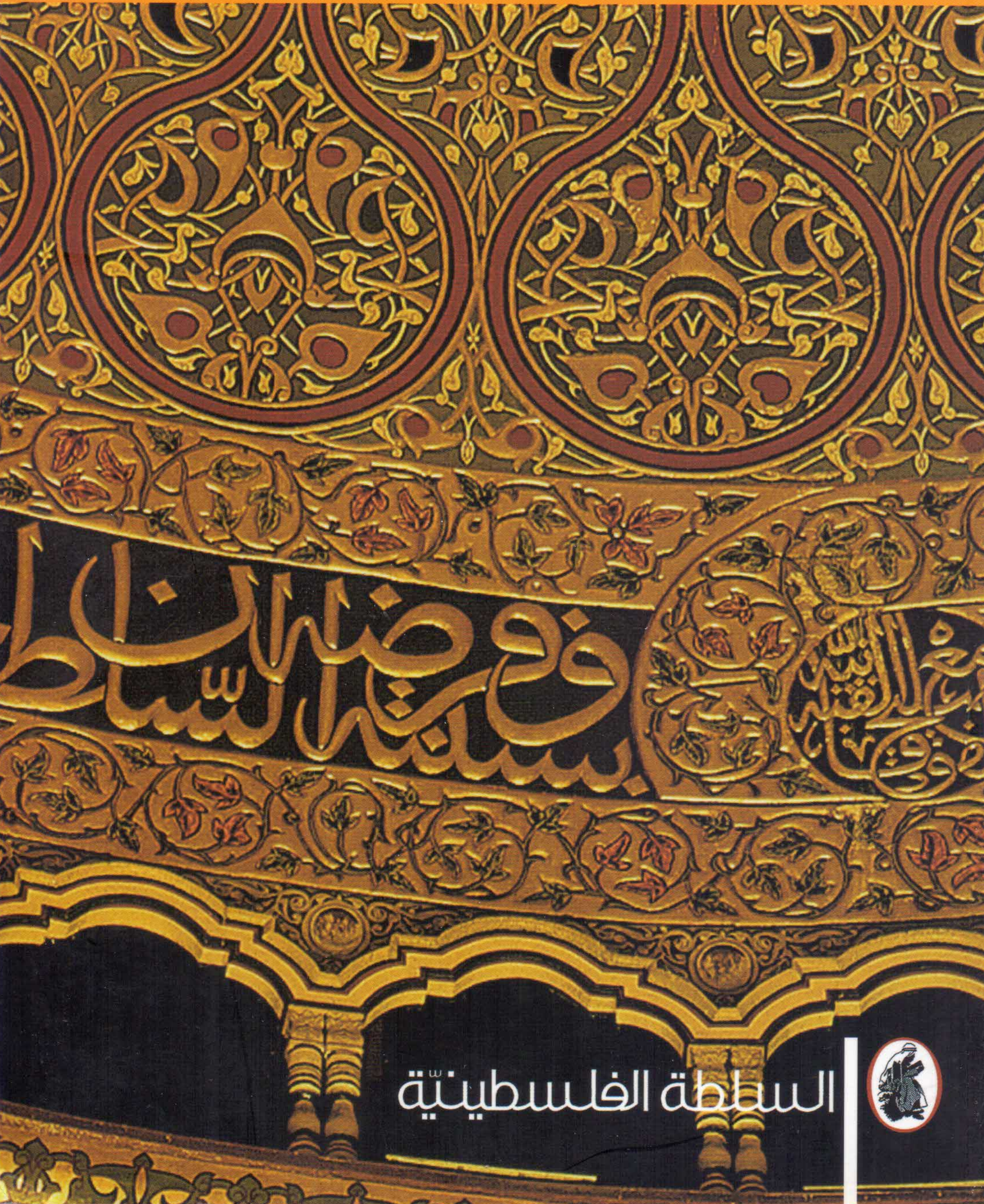
الحجّ، العلم، والصوفيّة

الفنّ الإسلاميّ في الضفّة الغربيّة وغزة

متحف بلا حدود
اركيولوجيا
ARCHEOLOGY



السلطة الفلسطينيّة

معارض متحف بلا حدود : طريقة جديدة للعرض

يستكشف كتاب (الحجّ ، العلوم والتصوّف : الفنّ الإسلاميّ في الضفّة الغربيّة وغزّة) تلك الحقبة من حكم سلالات الأيّوبيّين والمماليك والعثمانيّين ، وذلك عندما وفدت إلى فلسطين أعداد كبيرة من الحجّاج والباحثين من جميع أصقاع العالم الإسلاميّ .

لقد دفعت موجات المشاعر الدينيّة القويّة إلى تطوير الفكر الصوفيّ من خلال المدارس والزوايا والروابط الّتي تضاعفت أعدادها في سائر أرجاء البلاد ، ومن خلال تجميع أعظم الشخصيّات وأغزرها علمًا أصبحت المراكز الشعبيّة تتحلّى بقدر كبير من النفوذ ، ممّا شجّع على انتشار ونموّ الفنّ الّذي ما زال يحتفظ ، حتّى اليوم ، بقدرته على الإدهاش .

وتعكس الشواهد المعماريّة الإسلاميّة ، الّتي يقدّمها هذا العرض ، الأبعاد الواضحة للحجّ والعلوم والتصوّف .

إنّ هذه السلسلة من الكتب ، الّتي يصدرها (متحف بلا حدود) ، تتّسم بأنّها أدلّة علميّة ومرجعيّة ، فهي حقًّا بمثابة مراجع مزوّدة برسومات رائعة ، والّذين وضعوا هذه الكتب هم من الباحثين والدارسين من أهل البلاد الّتي جرى اكتشافها بأعين أبنائها .

إنّ (متحف بلا حدود) يقيم المعارض المعماريّة والأثريّة دون أن يتمّ ذلك في مساحات مغلقة ، وإنّما يتمّ عرض الأنصاب والمواقع والمعروضات ، في بلدها الأصليّ ، من خلال سياقها التاريخيّ والحضاريّ .



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
http://www.airpbooks.com

9 789953 366272

الغلاف الأماميّ :

قبّة الصخرة المشرّفة، زخرفة داخلية

تفصيل ، القدس

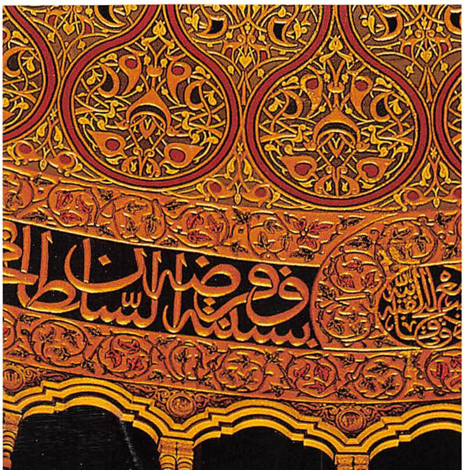
السلطة الفلسطينيّة

سلسلة مسارات عرض (متحف بلا حدود) العالميّة

الفنّ الإسلاميّ في منطقة البحر المتوسّط

الحجّ، العلم، والصوفيّة

الفنّ الإسلاميّ في الضفّة الغربيّة وغزة



المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

تم تمويل مسارات عرض متحف بلا حدود «الحج والعلم والصوفية: الفن الإسلامي في الضفة الغربية وقطاع غزة» بالمشاركة من قبل الاتحاد الأوروبي ضمن إطار برنامج ميدا – التراث الأورو – متوسطي

وتلقى الدعم من المؤسسات الفلسطينية والعالمية التالية:

الاتحاد الأوروبي
برنامج ميدا
التراث الأورو– متوسطي

وزارة الثقافة، مديرية التراث الثقافي، السلطة الوطنية الفلسطينية

MINISTERIO DE ASUNTOS EXTERIORES
AECI
DIRECCIÓN GENERAL DE RELACIONES CULTURALES Y CIENTÍFICAS

وزارة الخارجية الإسبانية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، إسبانيا

Auswärtiges Amt

وزارة خارجية ألمانيا الاتحادية، ألمانيا

Bundesministerium
für auswärtige Angelegenheiten

وزارة خارجية النمسا الاتحادية، النمسا

للاتصال في فلسطين
وزارة السياحة والآثار
شارع المبعدين
رام الله
فلسطين
هاتف: 2409891 2 ++972
فاكس: 2409890 2 ++972
الموقع الإلكتروني: www.mota.gov.ps

للاتصال الدولي
Museum With no Frontiers / Musée Sans Frontières
Rue des Boers 59
Brussels, Belgium 1040
Phone: +32 2 7375100
Fax: +32 2 7375109
mwnfbooks@museumwnf.net

ISBN 9953-36-627-6

طبع في المطبعة الوطنية – الأردن

فكرة ومفهوم برنامج متحف بلا حدود
إيفا شوبرت، بروكسل

رئاسة المشروع
وليد شريف

مدير عام دائرة التخطيط والتطوير
وزارة السياحة والآثار

منسق اللجنة العلمية
د. محمود هواري

اللجنة العلمية
د. محمود هواري، القدس
د. يوسف النتشة، القدس
د. نظمي الجعبة، القدس
د. مروان أبو خلف، رام الله
د. معين صادق، غزة

الدليل / الكتالوج
المقدمات
د. يوسف النتشة، القدس
د. نظمي الجعبة، القدس

تقديم *المسارات*
اللجنة العلمية

مراجعة *النصوص*
آن ماري – لابلان، مارسيليا، فرنسا

النص الفني
سعد نمر، رام الله
جيهان بركات، رام الله

ترجمة *الطبعة العربية*
إيمان الشاهد، رام الله
سعد نمر، رام الله

التدقيق اللغوي
محمود عيد، رام الله
الصور والأشكال التوضيحية

مراجعة النص العربي
د. نظمي الجعبة

التصوير
عيسى فريج، القدس
جارو نيلبينديان، القدس

مفاتيح الخرائط
ديانا فيلبس، لندن

الخرائط العامة والرسومات
سعد نمر، رام الله
سيرجيو فيغورا، مدريد

مخططات *المواقع*
سيرجيو فيغورا، مدريد

المقدمة العامة
«الفن الإسلامي في حوض المتوسط»

النصوص
جميلة بينوس، تونس
محمود هواري، القدس
مانويلا مارين، مدريد
غونول أوني، إزمير

الخرائط
شاكر تشكمك، إزمير
يكتا دميرالب، إزمير
إرتان داش، إزمير

المونتاج والتصميم
اغوستينا فرنانديز، مدريد

الإنتاج
المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان

التنسيق الفني

مدير *الإنتاج*
سعد نمر، رام الله

مساعد مدير الإنتاج
جيهان بركات، رام الله

التنسيق الدولي

التنسيق الدولي
لدورة مسارات "الفن الإسلامي في حوض المتوسط"

إدارة المشروع
إيفا شوبرت، فيينا– مدريد–روما

اللجان الفنية، الترجمات، التحرير وإنتاج الكتالوجات
سكينه ميسوم، مدريد

شكر وتقدير

نتقدم بالشكر للوزارات والمؤسسات التالية التي دعمت هذا المشروع
وزارة الثقافة، مديرية التراث الثقافي، رام الله
وزارة السياحة والآثار، دائرة التطوير والتخطيط ، رام الله
وزارة التخطيط والتعاون الدولي، رام الله
وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، رام الله
وزارة العمل، رام الله
وزارة الحكم المحلي، رام الله
بلدية نابلس
بلدية غزة
بلدية الخليل
بلدية أريحا
مكتب الدعم الفني التابع لبعثة الاتحاد الأوروبي، القدس
مركز خليل السكاكيني الثقافي، رام الله

مراجع الصور

انظر الى صفحة 5 بالإضافة الى:

آن و بيتر جوزيف (لندن)، صفحة 20 (حلب)

ارشيف صور اورونوز (مدريد) صفحة 23 (الحمراء، غرناطة)

مراجع المخططات

Ettinghausen R., and Grabar O. (Madrid, I, 1997), page 26 (Mosque of Damascus)

Sönmez Z. (Ankara, 1995), page 27 (Mosques of Divriği and of Istanbul) and page 28 (Madrasa of Sivas)

S. Viguera (Madrid), page 28 (Minarets typologies)

Blair S. S. and Bloom J. M. (Madrid, II, 1999), page 29 (Mosque and Madrasa Sultan Hasan)

Ettinghausen R. and Grabar O. (Madrid, I, 1997), page 30 (Qasr al-Khayr al-Sharqi)

Kuran A. (Istanbul, 1986), page 31 (Sultan Khan, Aksaray)

توطئة

هذا الكتاب الموجود بين يديك الآن هو نوع جديد من الكتب، إذ يجمع ما بين ثلاث ميزات: فهو كتالوج معرض، وفي الوقت نفسه هو دليل سياحي ومرجع علمي يدعوك لاكتشاف الفن والعمارة الإسلامية في فلسطين، ولاستكشاف المتحف الكبير المفتوح عبر رقعة فلسطين الجغرافية. معروضات ما نسميه «مسار العرض» هي المعالم والمواقع، إضافة إلى القطع الفنية في المتاحف، وبعكس المعارض المعتادة حيث تعرض القطع في مكان مغلق ولفترة محدودة من الزمن، فإن مسارات عرض «متحف بلا حدود» تقدم الأعمال الفنية في أمكنتها الأصلية حيث تحيط بها بيئتها الطبيعية. وهكذا، فإنك ستكتشف تاريخ البلد وفنه وتراثه، وفي الوقت ذاته تعرفك على أهله وثقافته المعاصرة.

تقدم كتالوجات «متحف بلا حدود» التاريخ من وجهة النظر المحلية. إننا نؤمن بأن من يريد زيارة بلد ما أو قراءة تاريخه والتعرف على تراثه الحضاري، يجب عليه أولاً التعرف على وجهة نظر أهله. هذه المعرفة ستساعد على فهم الثقافة الحالية والوضع الاجتماعي، وستسهل الاتصال مع السكان المحليين. استكشافك فلسطين بهذا الكتالوج يعني اكتشاف هذا البلد بعيون الفلسطينيين وأحاسيسهم.

من الأمور الهامة بالنسبة لـ«متحف بلا حدود» الفترة الزمنية والانتباه اللذان يوليهما السائح عادة عند زيارة بلد ما، إذ تختصر آلاف السنوات من التاريخ في زيارة قصيرة مدتها عدة أيام. مع مسارات العرض والكتالوجات المصاحبة لها، نحن نقترح تخصيص كل زيارة من زيارتك لموضوع وفترة زمنية معينة، ونشجعك على العودة مرات عدة لتكتشف كل مرة ناحية مختلفة من فن البلد وتاريخه. «نحن نقدر فقط ما نراه ونفهم فقط ما نعرفه»: من منطلق هذه الفكرة صمم زملاؤنا الفلسطينيون هذه الزيارات لاكتشاف الفنون الإسلامية في فلسطين، وكتبوا النصوص، آخذين بعين الاعتبار تزويدك بالعديد من المعلومات التي لا تصل السائح في العادة.

أخيراً بعض الكلمات حول أفضل سبل استخدام هذا الكتاب. صممت كتالوجات «متحف بلا حدود» كي تقرأها مرتين: الأولى قبل زيارتك لتتعرف على الفترة التاريخية المعنية، والثانية خلال زيارتك لمسارات العرض. يبدأ هذا الكتاب بتقديم الفن الإسلامي في حوض المتوسط بشكل عام، ويتبعه تقديم مختص بخلفية عن فلسطين وتاريخها ما بين فترة الخلافة الأموية (٤١-١٣٢هـ / ٦٦١-٧٥٠ م) وحتى نهاية فترة الخلافة العثمانية (٦٩٩-١٣٤٠ هـ / ١٢٩٩-١٩٢٢ م). تركز الشروحات التفصيلية للمعالم والمواقع الأثرية خلال كل مسار زيارة على موضوع المسار، كما توجد معلومات عملية لمساعدتك على تنظيم زيارتك في بداية الشروحات الفنية. وبما أن كتالوجاتنا لا تحتوي على معلومات عن أماكن الإقامة والمطاعم والخدمات بشكل عام، فنحن نقترح أن تحصل على منشورات أخرى تحوي هذه المعلومات أو أن تحصل عليها من مكاتب السياحة الفلسطينية.

باسم سائر أفراد فريق «متحف بلا حدود»، أتمنى أن تستمتع بزيارتك، وأتطلع قدماً إلى لقائك مجدداً في جزء آخر من متحفنا الأورو- متوسطي بلا حدود.

إيفا شوبرت
مديرة "متحف بلا حدود"

نصائح

التقويم الهجري

ابتدأ التقويم الهجري بهجرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب، التي سميت فيما بعد بالمدينة (أو مدينة الرسول). بهذا الحدث، بهجرة الرسول الكريم مع سبعين من أتباعه المسلمين، ابتدأ عهد جديد غير شكل العالم.

تاريخ الهجرة هو اليوم الأول من شهر محرم عام 1 هجري، والذي صادف يوم 16 يوليو / حزيران من عام 622 ميلادي. تتكون السنة الهجرية من 12 شهراً قمرياً، وكل شهر من 29 أو 30 يوماً. تكون كل ثلاثين سنة دورة كاملة فيها 11 سنة كبيسة هي السنوات رقم 2، 5، 7، 10، 13، 16، 18، 21، 24، 26، 29 حين يكون طول السنة 355 يوماً، بينما طول السنين الأخرى 354 يوماً.

السنة القمرية (الهجرية) أقصر بعشرة أو أحد عشر يوماً من السنة الشمسية (الميلادية)، ويبدأ اليوم في التقويم الهجري عند غروب الشمس وليس عند منتصف الليل.

التواريخ

التواريخ في هذا الكتاب حسب التقويم الهجري يتبعها ما يوافقها في التقويم الميلادي، على سبيل المثال: 206 / 822 تعني عام 206هـ الموافق 822م.

لا يشار الى التواريخ الهجرية في المراجع المأخوذة من مصادر مسيحية أو أحداث تاريخية أوروبية، أو التي وقعت في أوروبا، وكذلك السلالات المسيحية أو فترات ما قبل الإسلام أو لاحقا للانتداب البريطاني لفلسطين في السنوات (1922 – 1948).

بالطبع لا يمكن أحياناً إعطاء التاريخ الدقيق إن لم يذكر باليوم والشهر في المصادر. في حال وقوع التاريخ الهجري ما بين قرنين ميلاديين، يذكر كلا القرنين.

نصائح عملية

كتب هذا الدليل عام ٢٠٠١. ونتيجة للتطورات السياسية في المنطقة بعد ذلك التاريخ، فقد تختلف بعض المعطيات التي قدمها هذا الدليل عن الواقع الفعلي، الذي من المرجح أن يجده الزائر في الموقع (الميدان).

إن ذكر فلسطين كتعريف للبلاد يشير في هذا الدليل الى الأراضي الخاضعة لإدارة السلطة الفلسطينية وفقا للاتفاقيات الدولية السارية. بالإضافة الى ذلك، فإن هذا الدليل يشمل ثلاثة مسارات في القدس الشرقية.
على الزوار أن يكون بحوزتهم جواز سفر ساري المفعول لمدة ستة شهور على الأقل، حيث يسمح لهم بالبقاء في فلسطين لمدة ثلاثة شهور. ومن الممكن دخول فلسطين اما عبر الحدود المشتركة مع مصر والأردن، أو جوا عبر مطارات غزة (السلطة الفلسطينية) وتل أبيب (أسرئيل) :

مطار غزة
حافلات الباصات وسيارات الأجرة متوافرة الى مدينة غزة، حيث تسير السيارات الجماعية والفردية بشكل منتظم الى مدينة القدس ومعظم المدن الفلسطينية؛ غزة– القدس ٨٠ كم.

مطار تل أبيب
حافلات الباصات متوافرة من المطار الى القدس (باب العامود)؛ ٣٥كم.

عبر الأردن
عبر جسرالملك حسين، حيث سيارات الأجرة الجماعية أو الفردية متاحة الى مدينة القدس ومعظم المدن الفلسطينية ؛ جسر الملك حسين– القدس ٣٠كم .

عبر مصر
عبر معبر رفح الحدودي، حيث يوجد عدد من الحافلات وسيارات الاجرة التي تغادر الى غزة.

اللغة الرسمية هي اللغة العربية، ويتواصل الكثير من الفلسطينيين باللغة الانجليزية أيضا.

يستطيع الزوار خلال إقامتهم في فلسطين استعمال الدولار الامريكي، والدينار الأردني والشيكل الإسرائيلي؛ فجميع هذه العملات متداولة. وقد بدأ أيضا تداول اليورو ويمكن استبداله في البنوك ومحال الصرافة في المدن الفلسطينية كافة. وتقبل بطاقات الاعتماد الأساسية في جميع أنحاء البلاد. وهناك إمكانية لسحب النقود نقداً من عدة بنوك في المدن الرئيسة من خلال الصراف الآلي.

تتوافر الإقامة في فنادق من ٣–٥ نجوم وذلك في المدن الرئيسة، حيث توفر معظم هذه الفنادق مكاناً للمنامة وفطوراً او ترتيبات تقضي بتقديم الطعام والمنامة بسعر محدد في الأسبوع أو الشهر. ويمكن الحجز مسبقا عبر جمعية الفنادق العربية عبر موقعهم الالكتروني www.palestinehotels.com

إن أنسب الوسائل لزيارة المسارات والنصب والمواقع الموجودة في معرض متحف بلا حدود الفلسطيني هي السيارة. حيث يمكن لموظفي الفندق وبسرور تقديم المساعدة في استئجار سيارة. أو بدلا من ذلك، يستطيع الزائر الاستفادة من الوضع الجيد لشبكة المواصلات العامة الفلسطينية على الطرق الرئيسة، أو يمكن أن يستقل سيارة جماعية. أما بالنسة لاستئجار سيارةٍ خاصة، فإن مدة استئجارها (ليوم أو نصف يوم) يعتمد على امتداد المسار ونطاقه. وسيكون الفندق سعيداً بتقديم المزيد من المساعدة والمشورة بشأن السفر عند الطلب.

ينصح باستخدام خرائط ودليل لأحدث الطرق والشوارع في المدن الرئيسة. وينصح أيضا بتتبع كل مسار حسب الترتيب المقترح في الدليل لاستكشاف المواقع والآثار. ينصح الزوار بارتداء ملابس مريحة أثناء السفر في فلسطين، وارتداء الملابس المناسبة عند زيارة الأماكن المقدسة طبقا للمعايير المحلية. وقد يطلب من النساء تغطية رؤوسهن بغطاء عند الدخول الى الأماكن الدينية.

إن المساجد والمدارس والخانقاوات هي الأماكن الدينية الإسلامية التي تقام فيها الصلاة خمس مرات يومياً: الفجر، والظهر (١٢:٠٠ في فصل الشتاء و ١٣:٠٠ في فصل الصيف)، والعصر(١٥:٣٠ في فصل الشتاء و ١٦:٣٠ في فصل الصيف)، والمغرب والعشاء. إن افضل الأوقات لزيارة هذه الأماكن هي قبل صلاة الظهر وبين صلاتي الظهر والعصر.

تعدّ العطلات الدينية عطلات رسمية في فلسطين، ويختلف وقت حدوثها من عام الى آخر. وهناك عطلات أخرى مثل عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة وعيد العمال (الأول من أيار).

يصوم المسلمون عن الأكل والشرب خلال شهر رمضان من شروق الشمس حتى مغيبها، حيث تغلق المحال التجارية عند غروب الشمس. كما تغلق المطاعم، ما عدا تلك الموجودة داخل الفنادق، طيلة النهار وتفتح بعد المغرب. لذا ننصح الزائرين بعدم الأكل أو الشرب أو التدخين في الاماكن العامة احتراماً لمشاعر الصائمين.

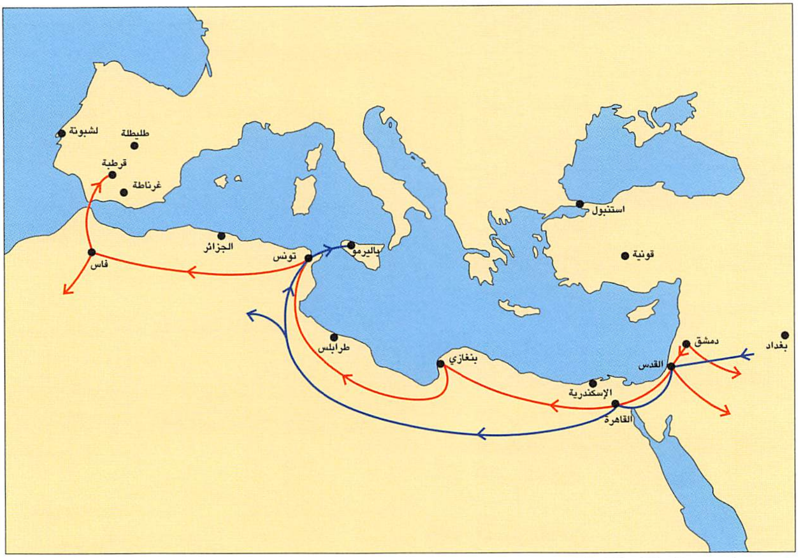
إن متحف بلا حدود ليس مسؤولا عن أي اختلافات أو تغيرات على المعلومات الواردة في هذا الدليل، أو إزعاج، أو خسارة أو أية إصابة شخصية تحدث أثناء السفر في فلسطين وإلى المواقع المحددة التي اقترحها متحف بلا حدود.

نتمنى لكم إقامة ممتعة في فلسطين

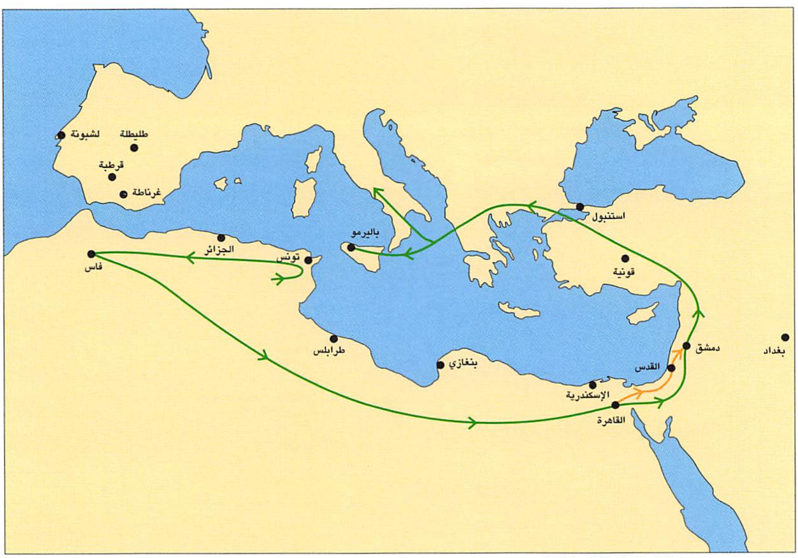
طاقم متحف بلا حدود الفلسطيني

الفهرس

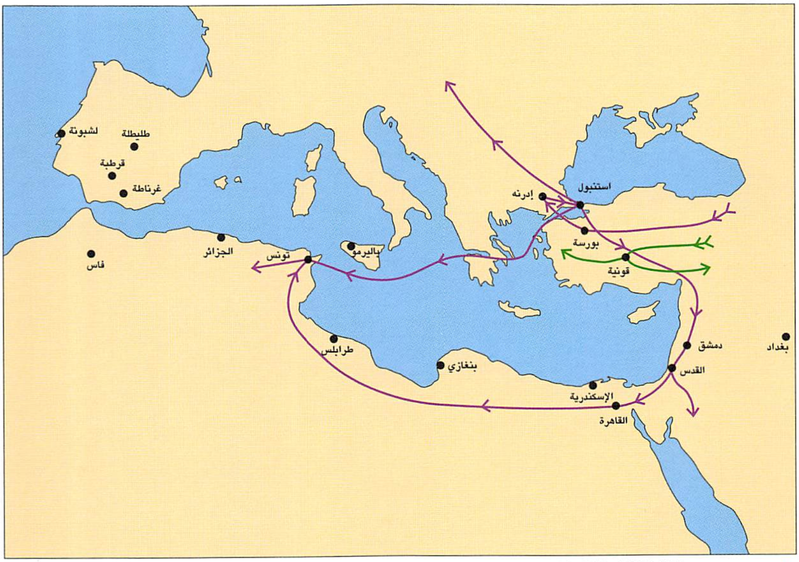
الدول الإسلامية في حوض المتوسط



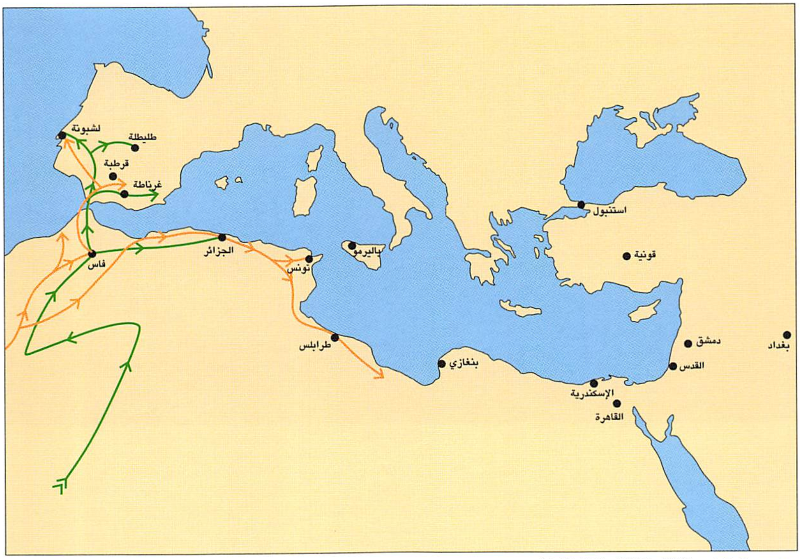
الأمويون (750/132-661/41) العاصمة: دمشق
العباسيون (1258/656-750/132) العاصمة: بغداد



الفاطميون (1171/567-909/296) العاصمة: القاهرة
المماليك (1517/923-1250/648) العاصمة: القاهرة



السلاجقة (571/1075-718/1318) العاصمة: قونية
العثمانيون (699/1299-1340/1922) العاصمة: استنبول



المرابطون (427/1036-541/1147) العاصمة: مراكش
الموحدون (515/1121-667/1269) العاصمة: مراكش



قصير عمره، لوحة جدارية في
قاعة الاستقبال، بادية الأردن.

الفن الإسلامي في حوض المتوسط

جميلة بينوس
محمود هواري
مانويلا مارين
جونول أوني

التراث الإسلامي في حوض المتوسط

منذ النصف الأول من القرن الأول الهجري / السابع الميلادي، انقسم تاريخ حوض البحر المتوسط بالتساوي تقريباً ما بين الحضارتين الإسلامية والغربية المسيحية، حين اتسم بالصراع لكن أيضاً بالالتقاء ما بين الحضارتين، ونتج عنهما انتشار الأساطير في المخيلة الجماعية لشعوب المنطقة، والتي اعتمدت على صورة "الآخر" كعدو غريب لا يلين، وبالتالي لا يمكن فهمه. نشبت المعارك بين الحضارتين منذ خروج المسلمين من شبه الجزيرة العربية وسيطرتهم على الهلال الخصيب ومصر، وفيما بعد شمالي إفريقيا وصقلية وشبه الجزيرة الأيبيرية، ووصولهم أوروبا الغربية حتى جنوبي فرنسا في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي حين خضع البحر المتوسط للسيطرة الإسلامية.

كان الدافع وراء التوسع الإسلامي الذي قل مثيله في التاريخ البشري باسم الدين، الذي اعتبر أتباعه أنفسهم ورثة الديانات التوحيدية السابقة: اليهودية والمسيحية. لكن تفسير الفتوحات الإسلامية على أنها دينية محضة هو تبسيط جسيم للحقيقة. إحدى الصور المنتشرة في الغرب عن الإسلام هي أنه انتشر على أيدي محاربين أشداء خرجوا من الصحراء حاملين القرآن على حد سيوفهم، ولا تأخذ هذه الصورة بالاعتبار التعقيد الذهني في الرسالة الدينية التي غيرت العالم منذ لحظة بدايتها.

بدأت دول حوض المتوسط التي أدخلت تدريجياً في العالم الإسلامي رحلتها من نقاط متباينة، ولذلك بدأت أشكال الحياة الإسلامية فيها بالتطور على مسارات مختلفة ضمن الوحدة الناتجة عن اعتناق رسالة دينية جديدة. كانت القدرة على مزج عناصر الحضارات السابقة (الهلنستية، الرومانية، الفارسية وغيرها) ضمن الحضارة الجديدة إحدى مميزات المجتمعات الإسلامية الرئيسة. وإن حصرنا ملاحظاتنا على المنطقة الجغرافية لحوض البحر المتوسط التي كانت متنوعة الثقافات عند بروز الإسلام، نرى أن تلك اللحظة لم تشكل قطيعة تامة مع المرحلة التاريخية السابقة، كما أنه من المستحيل تخيل عالم إسلامي نمطي بلا جذور ولا حراك.

إن كان علينا اختيار موضوع أو مظهر مميز لمنطقة حوض المتوسط، فهو تنوع التعبير المزوج بتناسق الأحاسيس، وهي أحاسيس ثقافية أكثر منها دينية. في شبه الجزيرة الأيبيرية – في الطرف الغربي من حوض المتوسط – نتج عن الوجود الإسلامي الذي بدأ بالسيطرة العسكرية مجتمع يختلف بوضوح عن المجتمع المسيحي وإن كان دوماً على اتصال به. واستمر الإحساس بأهمية التعبير الحضاري لهذا المجتمع الإسلامي هناك

حتى بعد زواله، ونتج عنه أحد أهم مكونات الحضارة الإسبانية وهو "فن المدجنين" (Mudejar Art). أما في البرتغال فقد بقيت التقاليد المعروفة بـ"المستعرب" (Mozarab) عبر الفترة الإسلامية، وما زال العديد من تأثيرات تلك الفترة واضحاً حتى يومنا هذا. وفي المغرب وتونس تم دمج التراث الأندلسي في أشكال الفنون المحلية المستمرة حتى الآن. في النتيجة، انبثقت في غرب المتوسط أشكال تعبيرٍ مبتكرة عكست تضارب تطوره التاريخي وتعدديته.

يزخر البحر المتوسط أيضاً بالجزر والمساحات التي تربط بين الشرق والغرب، مثل جزيرة صقلية التي تحوي مواقع تاريخية هامة تعود لقرون عدة. فتح العرب صقلية من تونس، واستمرت الجزيرة بالحفاظ على ذاكرة الإسلام الثقافية والتاريخية بعد قرون من زوال وجوده السياسي هناك. إن وجود أشكال الفن الصقلي-النورماندي الذي يمكن ملاحظته في المعالم العمرانية يدل بوضوح على أن تاريخ هذه المناطق لا يمكن تفسيره دون فهم تنوع التجارب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي ازدهرت على أراضيها.

إذن فإن تاريخ الإسلام في حوض المتوسط قد تميز بالتنوع الكبير الذي صنعه مزيج من الشعوب والأجناس، من الصحارى والأراضي الخصبة. كما كان الإسلام الدين الرئيس في المنطقة منذ القرون الوسطى، إلا أنه وجدت أيضاً أقليات دينية أخرى كان لها حضورها التاريخي. وعاشت لغة القرآن العربية الفصحى جنباً إلى جنب مع اللغات الأخرى، ومع اللهجات العربية المحلية. تطور كل مجتمع وتجاوب مع تحديات التاريخ بطريقته الخاصة داخل إطار من الوحدة لا يمكن نكرانه (الدين الإسلامي واللغة والثقافة العربيتين).

ظهور الفن الإسلامي وتطوره

برز فن جديد تتخلله صور من العقيدة الإسلامية عبر بلاد حوض المتوسط ذات الحضارات القديمة والمتنوعة، وذلك في نهاية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، ونجح في أن يفرض نفسه خلال أقل من مائة عام. وبطريقته الخاصة، أنتج هذا الفن ابتكارات وأشكالاً على أساس توحيد الصيغ المحلية والأساليب المعمارية والزخرفية، وفي الوقت نفسه استوحى من التراث الفني السابق له: من اليوناني-الروماني، والبيزنطي، والساساني، والقوطي الغربي، والبربري، وحتى فن آسيا الوسطى.

كان هدف الفن الإسلامي أصلاً خدمة الحاجات الدينية ومظاهر الحياة الاجتماعية-الاقتصادية المختلفة. أنشئت المباني الجديدة للأغراض الدينية مثل المساجد والجوامع، ولهذا السبب لعبت العمارة دوراً رئيساً في الفن الإسلامي إذ اعتمدت فنون عدة عليها. وعدا العمارة، وجدت الفنون الصغرى في مواد متنوعة، مثل الخشب والفخار والمعادن والزجاج والمنسوجات والورق. في الفخار، استخدمت أساليب تزجيج متنوعة ومن المجموعات المميزة في الفن الإسلامي، الفخار ذو البريق المعدني والفخار المزجج متعدد الألوان. أما الزجاج فقد صنع بجمال أخاذ، ووصل الامتياز حين زخرف بالذهب والميناء الملونة. وفي المعادن، كان أكثر الأساليب تطوراً تعشيق البرونز بالفضة أو النحاس. وصنعت المنسوجات وأنواع السجاد الفاخر مزخرفة بعناصر هندسية وأشكال حيوانية وبشرية. كما صورت المخطوطات بالمنمنمات أو الرسومات الدقيقة التي تعدّ إنجازاً رائعاً في فن الكتب. وتعدّ هذه الفنون شاهداً على عبقرية الفن الإسلامي.

استثني فن نحت ورسم الأشكال البشرية والحيوانية من المجال الديني، إلا أنه ظهر في التعبيرات الدنيوية للحضارة الإسلامية، فزخرفت القصور بمنحوتات الأشكال الآدمية والحيوانية الجصية، وزينت الآنية المعدنية المطعمة والفخاريات الملونة والعاجيات المنحوتة بصور حياة البلاط، وتصاوير الحيوانات التي ترمز للملوك والأمراء. كما احتوت المخطوطات الإسلامية على رسوم البشر والحيوانات، التي استخدمت بشكل خاص لتصوير كتب العلوم والفلسفة إضافة إلى الأعمال التاريخية والأدبية. إلا أن ثراء الزخارف الخالية من التصاوير هو ما يميز الفن الإسلامي، ومن أبرز معالم هذا الفن زخارف لوحات الجص والخشب والبلاط والفسيفساء، إضافة إلى المقرنصات الرائعة، والمرتكزة في تصاميمها على فهم عميق للتناسق الهندسي والتعددية في ضمن الوحدة. وحورت العناصر الزخرفية المستوحاة من الطبيعة، مثل أوراق النباتات وأزهارها وأغصانها، وتشابكت بتعقيد يصعب معه ربطها بأصولها أحياناً، كما جعل من تداخل



قبة الصخرة المشرفة، القدس.

ومزج الأشكال الهندسية مثل المعين والأشكال المتعددة الأضلاع شبكات معقدة غطت السطح بالكامل، ونتج عنها أشكال عرفت بـ "الأرابيسك". كان أحد التحديثات على العناصر الزخرفية إدخال الخط في زخرف الأبنية والأثاث وغيرها من القطع المختلفة، إذ استغل الحرفيون المسلمون جمال الخط العربي، لغة القرآن الكريم، ليس فقط لكتابة السور القرآنية بل أيضاً كعناصر زخرفية لتزيين اللوحات الجصية وحواف الإطارات.

كان الفن أيضاً في خدمة الحكام، فبنى المعماريون القصور بالإضافة إلى المساجد والمدارس والمستشفيات والحمّامات والخانات والأضرحة، والتي كانت أحياناً تعرف بأسماء الحكام. يعدّ الفن الإسلامي فن الدول والسلالات التي حكمت العالم الإسلامي، إذ ساهمت كل دولة في خلق اتجاهات فنية كانت تضيف وتجدد الأشكال الفنية السائدة، معتمدة على الظروف السياسية ودرجة الثراء والتقاليد المتوارثة. سمح الفن الإسلامي رغم وحدته النسبية، بالتنوع الذي أنتج أساليب مختلفة، عرف كل منها بإحدى السلالات التي حكمت العالم الإسلامي.

تمثل دولة بني أمية (41-132 / 661-750) التي نقلت عاصمة الخلافة إلى دمشق، بعض أهم الإنجازات في تاريخ الإسلام، ففي ظل الحكم الأموي دمج الإرث الهلنستي والبيزنطي بطريقة أعادت صياغة تراث حوض المتوسط الكلاسيكي في قالب جديد ومبتكر. بهذا تم تكوين الفن الإسلامي في بلاد الشام، واستمرت العمارة الإسلامية الجديدة، بشخصية مؤسسيها، حاملة قرابتها للفن الهلنستي والبيزنطي في الوقت نفسه.

ومن أهم الأبنية التي شيدت في هذه الفترة قبة الصخرة المشرفة في القدس، أقدم الأبنية

الإسلامية التي وصلتنا، والجامع الأموي في دمشق الذي أصبح نموذجاً لعمارة المساجد، ثم "القصور الصحراوية" في سوريا والأردن وفلسطين.

عندما قامت الخلافة العباسية (132-750 / 656-1258) بعد الأموية، انتقل مركز الإسلام السياسي من حوض المتوسط إلى بغداد في بلاد الرافدين. أثر هذا الانتقال على تطور الحضارة الإسلامية وسائر مكوناتها الثقافية، والفن الذي كان لا بد أن يتأثر بهذا العامل. تأثر الفن والعمارة العباسية بثلاثة تقاليد فنية رئيسة: الساسانية، ووسط آسيا، والسلجوقية. كان تأثير وسط آسيا موجوداً في العمارة الساسانية، لكن هذا التأثير ظهر في سامراء، حيث بدا واضحاً عبر مزج زخرفة الجص بالأرابيسك، والذي ما لبث أن انتشر سريعاً عبر العالم الإسلامي. بالإمكان رؤية تأثير المعالم العمرانية العباسية في المباني التي أنشئت خلال تلك الفترة في مناطق متعددة، خاصة في مصر وإفريقيا. يعدّ جامع ابن طولون في القاهرة (262-265 / 876-978) تحفة فنية لروعة مخططه وتناسق معالمه، وقد بني على نموذج الجامع العباسي الكبير في سامراء، وبخاصة مئذنته الملتوية. وفي القيروان، عاصمة إفريقيا، قام الأغالبة (184-296 / 800-909) حلفاء العباسيين، بتوسعة جامع القيروان الكبير، وهو أحد أهم جوامع المغرب،



محراب جامع القيروان، تونس.

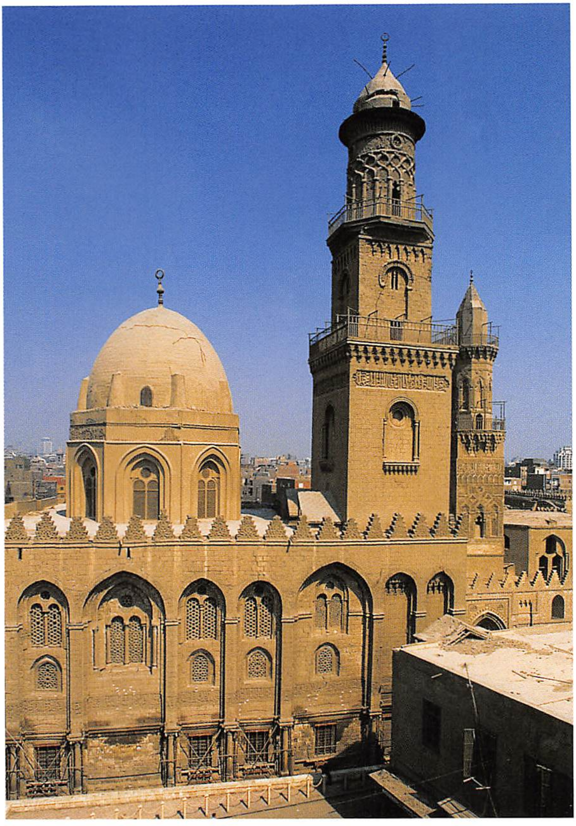


مئذنة جامع القيروان، تونس.

مدخل قلعة حلب، سوريا.

جامع السلطان قلاوون، القاهرة، مصر.





وغطي المحراب فيه ببلاطات الخزف المستوردة من بلاد الرافدين.

تمثل فترة حكم الفاطميين (297-909 / 1171-567) مرحلة هامة في تاريخ بلدان حوض المتوسط الإسلامية: شمال إفريقيا، وصقلية، ومصر، وبلاد الشام. لم تبق سوى أمثلة قليلة على عمارة تلك الفترة، لكنها شواهد على عظمة ذلك الماضي. ففي وسط المغرب توجد قلعة بني حماد وجامع المهدية؛ وفي صقلية هنالك "القبة" و"العزيزة" في باليرمو، والتي بناها الحرفيون الفاطميون خلال حكم الملك النورماندي وليام الثاني؛ أما في القاهرة فيعدّ الأزهر أبرز أمثلة العمارة الفاطمية في مصر.

كان الأيوبيون (567-1171 / 846-0521) الذين أطاحوا بحكم الفاطميين في القاهرة وأسسوا عاصمة جديدة لهم في دمشق، رعاة فن وعمارة وشجعوا التطوير الحضري في مصر والشام. كما أسسوا المعاهد الدينية من مدارس وخانقات لنشر المعارف الدينية والنهوض بالتعاليم الإسلامية الموحدة، وبنوا الأضرحة واهتموا بالمشاريع الخيرية، إضافة إلى التحصينات العسكرية التي استوجبتها حروبهم مع الفرنجة، وتعد قلعة حلب في سوريا مثالاً بارزاً على عمارتهم العسكرية.

نجح المماليك (648-1250 / 923-1517) خلفاء الأيوبيين في التصدي

للفرنجة والمغول، وحققوا وحدة بلاد الشام مع مصر، وأسسوا بذلك إمبراطورية مهيبة. شجع ثراء البلاط السلطاني المملوكي وبذخه في القاهرة الفنانين والمعماريين على إنجاز أسلوب عمارة فائق الروعة، فكانت الفترة المملوكية فترة نهضة وبعث جديد في العالم الإسلامي. وبفضل حماستهم في تأسيس المؤسسات الدينية وإعادة إعمار المؤسسات السابقة، يعدّ المماليك من أعظم رعاة الفن والعمارة في التاريخ الإسلامي. من أبرز الأمثلة على العمارة المملوكية جامع السلطان حسن (757/ 1356) الذي ضم ضريحه، واتخذ في تخطيطه شكلاً متصالباً تتقدم أذرعه الأربع إيوانات محيطة بساحة مركزية، وتعدّ عمارته مميزة لتلك الفترة.

كانت الأناضول مهد دولتين إسلاميتين كبيرتين: السلاجقة (571-1075/ 718-1318) الذين أدخلوا الإسلام للمنطقة، والعثمانيين (1299-1922/ 1340-699) الذين قضوا على الإمبراطورية البيزنطية عندما احتلوا القسطنطينية، ونشروا حكمهم في إمبراطورية شاسعة.

ازدهر أسلوب فن وعمارة سلجوقية مميز بتأثير من آسيا الوسطى وإيران وبلاد الرافدين والشام، وامتزج مع عناصر من التراث الأناضولي المسيحي والقديم. وعمرت قونية عاصمة السلاجقة الجديدة وغيرها من المدن بالمباني التي اتبعت الأسلوب السلجوقي الجديد المتطور، فوصلتنا من هذه الفترة مبانٍ عدة من مساجد ومدارس وترب وخاناتٍ غطيت جدرانها بالزخارف الجصية والبلاط المزجج، الذي اشتمل على أشكال كائنات متنوعة.

عندما تفككت إمارات السلاجقة وضعفت بيزنطة، وسع العثمانيون أراضيهم ونقلوا عاصمتهم من إزنيك إلى بورسة



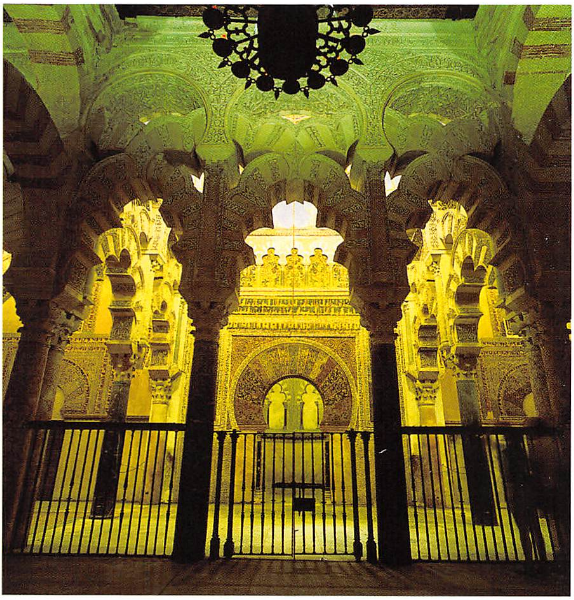
جامع السليمية، إدرنه، تركيا.



بلاط من قصر قباد أباد، متحف قرتيه، قونيه، تركيا.

محراب جامع قرطبة الكبير، إسبانيا.

مدينة الزهراء، دار الجند، إسبانيا. (في الأسفل)





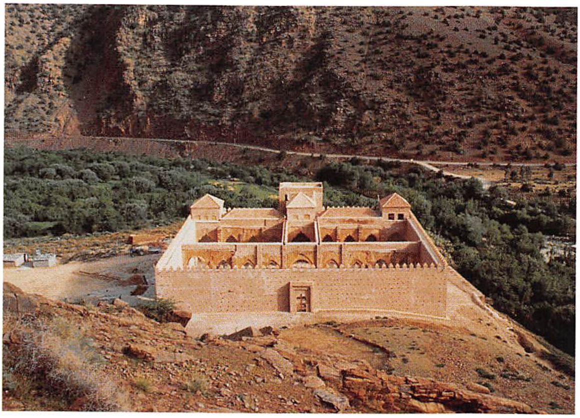
ومن ثم إلى إدرنه. أعطى احتلال السلطان محمد الثاني للقسطنطينية عام 858 / 1453 الدافع لتحول دولة ناشئة إلى إمبراطورية واسعة امتدت حدودها إلى فيينا لتشمل البلقان في الغرب وإيران في الشرق، إضافة إلى شمال إفريقيا من مصر إلى الجزائر، وبذلك تحول البحر المتوسط إلى بحر عثماني. وللتفوق على عظمة الكنائس البيزنطية، الممثلة بكنيسة أيا صوفيا، تم بناء جوامع ضخمة في استنبول أهمها جامع السليمانية الذي أنشئ في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، على يد المعماري العثماني الشهير سنان، وهو يجسد قمة التناسق المعماري في الأبنية ذات القباب. كانت معظم الجوامع العثمانية الرئيسة جزءاً من مجمعات معمارية سميت بـ "الكلية" التي ضمت، إضافة للجامع، عدة مدارس، ومدرسة للقرآن، ومكتبة، ومستشفى (دار شفاء)، ونزلاً (طبخانه)، ومطبخاً عاماً، وخاناً، وأضرحة (ترب). ومنذ بداية القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي، خلال ما يعرف في تاريخ الفن بـ "فترة الخزامى" (Tulip)، عكست العمارة العثمانية وأساليب زخرفها تأثير الباروك والركوكو الفرنسي، وابتدأت فترة التغرب في الفن والعمارة.

شهدت الأندلس في الجزء الغربي من العالم الإسلامي ميلاد أسلوب رائع في الفن والثقافة. أسس عبد الرحمن الأول

خلافة أموية مستقلة في الغرب (699-1299 / 1340-1922) عاصمتها قرطبة؛ نلاحظ في جامع قرطبة الكبير بداية إبداعات فنية مثل العقود المزدوجة المقامة على دورين أحدهما فوق الآخر، والمبنية بلونين أبيض وداكن، واللوحات ذات الزخارف النباتية التي أصبحت جزءاً من الأشكال الفنية الأندلسية.

في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، تفككت خلافة قرطبة إلى عدة إمارات لم تتمكن من الصمود في وجه الدول المسيحية في شمال غربي شبه الجزيرة الإيبيرية. إلا أن ملوك الطوائف، المرابطين في 479/ 1086 والموحدين في 540 / 1145، قاوموا المسيحيين الإسبان وأعادوا نوعاً من الوحدة في الأندلس، ومن خلال دخولهم الأندلس، احتك المرابطون (427-541 / 1036-1147) بحضارة جديدة، وجذبهم تطور الفن الأندلسي فنقلوه إلى عاصمتهم مراكش، حيث بنوا جامعاً كبيراً وعدة قصور. عكست المعالم العمرانية التي بناها المرابطون في شمال إفريقيا، من تلمسان إلى الجزائر وفاس، عمارة قرطبة والعواصم الأندلسية الأخرى مثل إشبيلية.

بلغ الفن الإسلامي الغربي أوجه في ظل حكم الموحدين (515-667 / 1121-1269) الذين وسعوا دولتهم لتصل تونس. وتجدد في تلك الفترة الابتكار الفني الذي بدأ خلال حكم المرابطين،



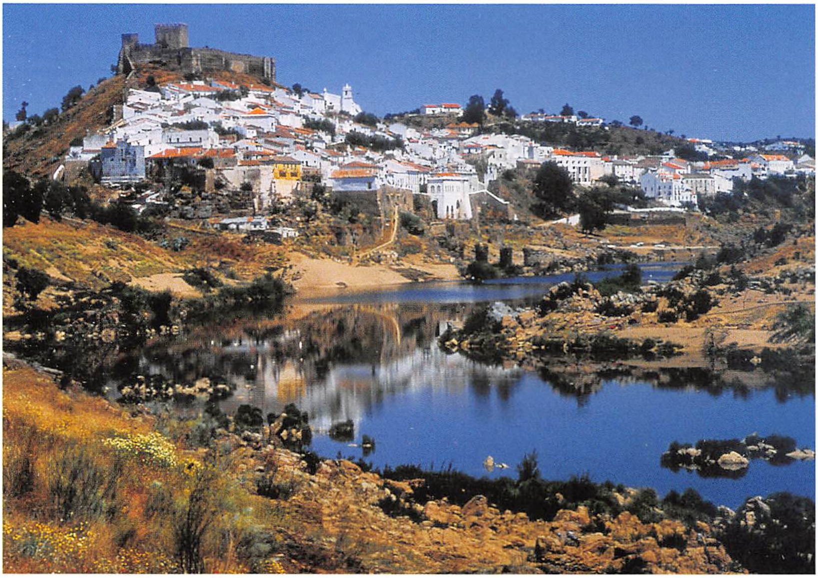
منظر جوي لجامع تنمال، المغرب.

فصنعت روائع جديدة من الفن الإسلامي مثل الجامع الكبير في إشبيليه، والكتبية في مراكش، وجامع الحسن في الرباط، وجامع تنمال في جبال أطلس المغربية.

عند تفكك دولة الموحدين، حكمت الأسرة الناصرية غرناطة (629-897 / 1232-1492) التي مرت بفترة ازدهار في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. أصبحت حضارة غرناطة مثالاً يحتذى في

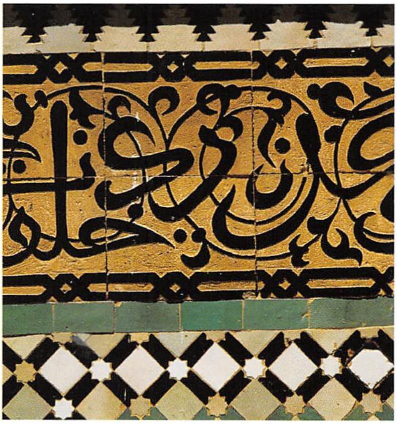


برج النساء والحديقة، الحمراء، غرناطة، إسبانيا.



مرتولا، البرتغال.

القرون اللاحقة في إسبانيا (الفن الإسباني الإسلامي المعروف بفن المدجنين)، وشاع هذا التقليد الفني في المغرب، حيث استمر حتى وقتنا الحالي في العمارة والزخرف والموسيقى وحتى في المطبخ المغربي، ويعدّ



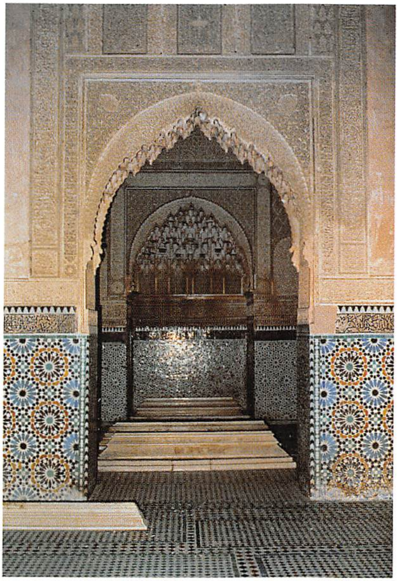
زخارف، مدرسة أبو عنان، مكناس، المغرب.

قصر وقلعة الحمراء الشهيرة في غرناطة قمة ما توصل إليه الفن الأندلسي، وتضم الحمراء جميع مظاهر هذا الفن.

في الوقت نفسه في المغرب، خلف المرينيون (641-876 / 1243-1471) المرابطين، وحكم بنو عبد الوديد الجزائر (229-633 / 1235-1516)وكان الحفصيون في تونس (625-941 / 1228-1534). رعى المرينيون الفن الأندلسي وأثروه بمظاهر جديدة، وبنوا في عاصمتهم فاس العديد من المساجد والقصور والمدارس، التي زخرفت بالبلاط المزجج واللوحات الصغيرة المزججة (الزليج)، واعتبرت زخارف جدران أبنيتهم أكثر أعمال الفن الإسلامي كمالاً. استمرت الأسر المغربية اللاحقة، السعديون (933-1527 /



مئذنة قلعة بني حماد، الجزائر.



ضريح من فترة السعديين، مراكش، المغرب.

1070-1659) والعلويون (1077/ 1659 إلى وقتنا الحاضر) برعاية التقاليد الفنية الأندلسية، التي انتقلت من أرضها الأصلية في 897/ 1492، فاستمروا بتشييد المعالم العمرانية وتزيينها بالطراز والأساليب نفسها التي استخدمت خلال فترات حكم الأسر السابقة، وأضاف الفنانون المغاربة اللاحقون لمسات جديدة مميزة لإبداعاتهم. في بداية القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، سكن مهاجرون من الأندلس مدن شمال المغرب، وأدخلوا معهم مظاهر عدة من الفن الأندلسي. المغرب اليوم هي إحدى الدول القليلة التي حافظت على التراث الأندلسي في العمارة والأثاث، وطورته بامتزاج الأساليب والطرز المعمارية الحديثة.

العمارة الإسلامية (ملخص)

بالإمكان تصنيف العمارة الإسلامية بشكل عام إلى قسمين: العمارة الدينية مثل المساجد والمدارس والأضرحة، والعمارة المدنية مثل القصور والخانات والقلاع وغيرها.

العمارة الدينية

المساجد

يحتل المسجد مركز القلب في العمارة الإسلامية، فهو رمز الإيمان، وفهم المسلمون هذا الدور الرمزي الذي لعب

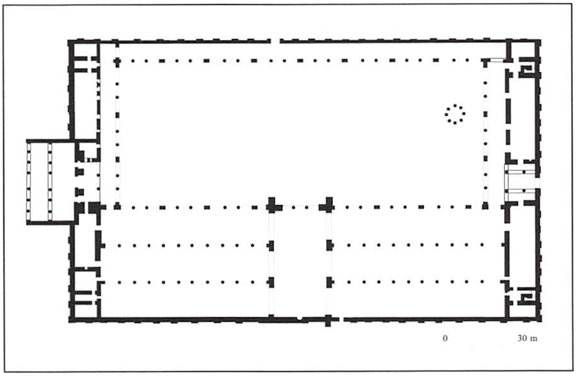
منذ البداية دوراً هاماً في استحداث علامات بصرية للمبنى مثل المئذنة، والقبة، والمحراب، والمنبر وغيرها.

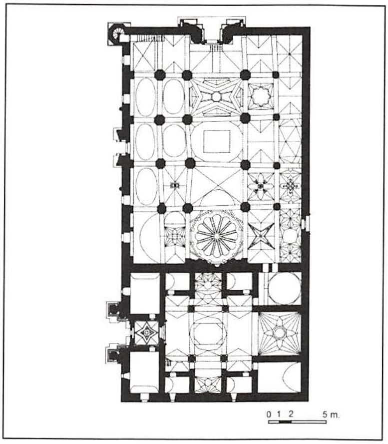
كانت ساحة بيت الرسول الكريم في المدينة، التي اتسمت بالبساطة، أول مسجد في الإسلام. وكانت المساجد التي بناها المسلمون عند بداية الفتوحات بسيطة كذلك. تطور المسجد الجامع من هذه الأبنية، وبقيت مظاهره الرئيسة دون تغيير حتى يومنا هذا أي طيلة حوالي 1400 عام. يتكون مخطط المسجد الجامع الأساسي من ساحة كبيرة تحيط بها الأروقة المعمدة، ويكون عدد الأروقة أو صفوف الأعمدة أكبر في جهة القبلة المواجهة لمكة المكرمة. أصبح الجامع الأموي الكبير في دمشق، والذي تبع مخطط مسجد الرسول، مثالاً للعديد من الجوامع التي بنيت في أرجاء العالم الإسلامي.

تطور طرازان آخران من المساجد في الأناضول، وفيما بعد في الإمبراطورية العثمانية، وهما: الطراز البازيليكي، والطراز المقبب. يتكون الطراز الأول من قاعة بسيطة مقسمة إلى أروقة بصفوف من الأعمدة أو "بازيليكا" تبعاً للتقاليد الشامية منذ الفترة الرومانية المتأخرة والبيزنطية، أدخل هذا الطراز مع بعض التعديلات في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. أما الطراز الثاني فتطور خلال الفترة العثمانية، وفيه وزعت المساحات الداخلية حول قبة واحدة. ابتكر المعماريون العثمانيون هذا الطراز الجديد من المباني المقببة بمزج تقاليد المساجد الإسلامية بتقاليد الأبنية الأناضولية المقببة، وفيه ترتكز القبة الرئيسة على نظام ارتكاز سداسي، بينما تغطي القباب الأصغر حجماً المساحات الجانبية، ويعدّ هذا التركيز على الفضاء الداخلي الذي تعلوه قبة واحدة بداية لطراز أدخل في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. خلال تلك الفترة، أصبح المسجد مجمعاً متعدد الأغراض، فاحتوى على "زاوية" ومدرسة، ومطبخ عام، وحمّام، ونزل أو خان، إضافة إلى ضريح مؤسس المسجد. أكبر المعالم المعمارية من هذا الطراز هو جامع السليمانية في استنبول الذي بناه المعماري الكبير سنان عام 965 / 1557.

أبرز علامات المسجد هي المئذنة، التي من فوقها ينادي المؤذن المسلمين للصلاة. تتكون المئذنة التقليدية في بلاد الشام

مخطط الجامع الأموي في دمشق، سوريا.



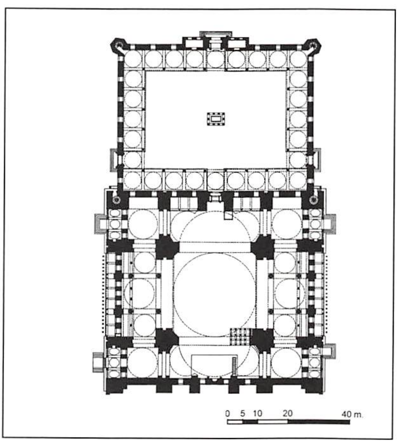


مخطط الجامع الكبير، ديفريغي، تركيا.

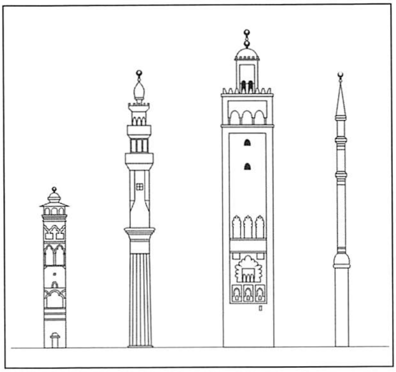
من برج مخططه مربع الشكل مبني بالحجارة. في مصر المملوكية، قسمت المآذن إلى ثلاثة طوابق: قسم مربع في الأسفل، فوقه قسم ثماني الأضلاع، وفي الأعلى قسم دائري تعلوه قبة صغيرة. زينت جدران المآذن وغطيت الوصلات ما بين الأقسام الثلاثة بالمقرنصات. أما المآذن في شمال إفريقيا وإسبانيا، والتي تشارك المآذن الشامية في كونها أبراجاً مربعة، فقد جعلت فيها نوافذ مزدوجة أحيطت باللوحات الزخرفية. خلال الفترة العثمانية، استبدلت المآذن المربعة بأخرى ثمانية الأضلاع، أو أسطوانية الشكل، وكانت في الغالب طويلة ومدببة القمة، ورغم أن لمعظم المساجد مئذنة واحدة إلا أن جوامع المدن الرئيسة كان لها مئذنتان، أو أربع مآذن، وأحياناً وصل عدد مآذنها إلى ست.

المدارس

من المحتمل أن السلاجقة كانوا أول من بنى المدارس في بلاد فارس في بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وكانت عندئذ أبنية صغيرة ذات ساحة مقببة وإيوانين جانبيين. وفي مرحلة لاحقة ظهر نمط كان يتألف من ساحة مفتوحة وإيوان في الوسط محاط بالأروقة. خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي صارت المدرسة في الأناضول تؤدي أغراضاً متعددة، فاستعملت لتعليم الطب، واحتوت على مصح عقلي، ومشفى ملحق به مطبخ عام لإطعام الفقراء، وضريح. وصل نشر تعاليم الإسلام السنية أوجه في بلاد الشام ومصر خلال حكم الزنكيين والأيوبيين (القرن السادس – بداية السابع الهجري / الثاني عشر – الثالث عشر الميلادي)، وشهدت هذه الحقبة



مخطط جامع السليمانية، استنبول، تركيا.

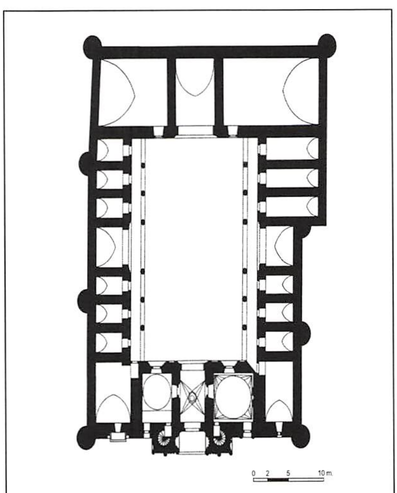


طرز المآذن.

بناء المدارس من قبل القادة المدنيين أو السياسيين لتعزيز دراسة الفقه الإسلامي. كانت هذه المدارس تمول من أموال وقفية، وخصصت لها في الغالب إيرادات أراض أو مزارع، أو حوانيت تجارية، أو حمّامات. اتبعت المدرسة التقليدية النظام الذي يتكون من أربعة إيوانات متعامدة على هيئة صليب حول بهو أو ساحة متوسطة، وشاع مخطط المدرسة هذا فيما بعد حتى استخدم في عمارة المساجد. فقدت المدرسة بالتدريج دورها السياسي واتخذت دوراً مدنياً أكثر شمولية فضمت جامعاً للصلاة بالإضافة إلى ضريح باني المدرسة.

تسارع إنشاء المدارس في مصر وبخاصة في القاهرة مع مجيء المماليك. كان النموذج لمدارس القاهرة في ذلك العهد يتألف من بناء ضخم له أربعة إيوانات متعامدة تتقدمه واجهة رائعة الزخرف فتحت فيها بوابة تعلوها المقرنصات. مع مجيء العثمانيين في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، انتشرت الأبنية التي تضم الجامع والمدرسة، وقام السلاطين برعايتها وتمويلها، واختفى الإيوان تدريجياً واستبدل بقاعة كبيرة تعلوها قبة عالية. هذا وتتميز المدارس العثمانية بكثرة عدد الغرف المقببة التي استخدمها التلاميذ.

من الأنماط المعمارية المتعددة التي يمكن ربطها بالمدرسة من حيث التخطيط والوظيفة هي "الخانقاة"، رغم أن كلمة "خانقاة" تشير إلى مؤسسة لأتباع الطرق الصوفية في الإسلام وليس إلى نوع معين من المباني. استخدم المؤرخون المسلمون مصطلحات عدة للإشارة إلى "الخانقاة": في المغرب سميت "زاوية"؛ وأطلق العثمانيون عليها اسم "تكية"؛ وبشكل عام استخدم مصطلح "رباط"

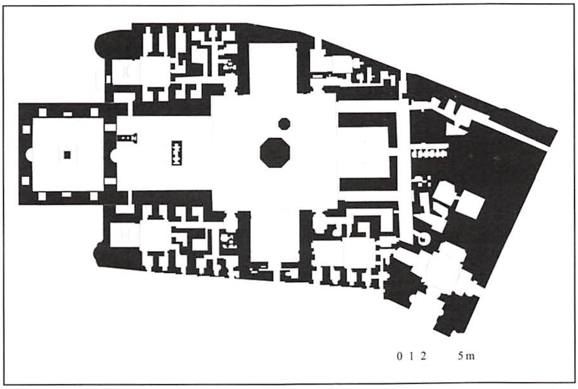


مخطط مدرسة سيفاز غوك، تركيا.

للإشارة إلى "الخانقاة". سيطرت الصوفية على الخانقاة التي يعود أصلها إلى شرقي بلاد فارس في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. كانت الخانقاة في أبسط أشكالها مجرد بيت يجتمع فيه التلاميذ حول شيخ الطريقة، واحتوت أمكنة للاجتماع والصلاة والمعيشة. ازدهر إنشاء الخانقات في ظل حكم السلاجقة خلال القرنين الخامس والسادس الهجري/ الحادي عشر والثاني عشر الميلادي، واستفادت هذه المؤسسات من ارتباط الصوفية بالمذهب الشافعي، الذي كان مذهب الحكام.

الأضرحة

تختلف تسميات هذا الصنف المعماري في المصادر الإسلامية. يشير تعبير "تربة" إلى استعمال المبنى للدفن، بينما يشير الاسم "قبة" إلى العنصر المعماري الأكثر وضوحاً في البناء، والذي كان في الغالب قد شيد لتخليد ذكرى الأنبياء والصحابة ومشاهير القادة الدينيين أو العسكريين. لم يقتصر دور الضريح على كونه مكاناً للدفن والاستذكار، بل لعب دوراً هاماً في "الديانة الشعبية"، فاكتسبت بعض الأضرحة قدسية لدى عامة الشعب، كمدافن "الأولياء" التي أصبحت مزارات دينية. كانت الأضرحة تزين في العادة بالآيات القرآنية وفيها



جامع ومدرسة السلطان حسن، القاهرة، مصر.

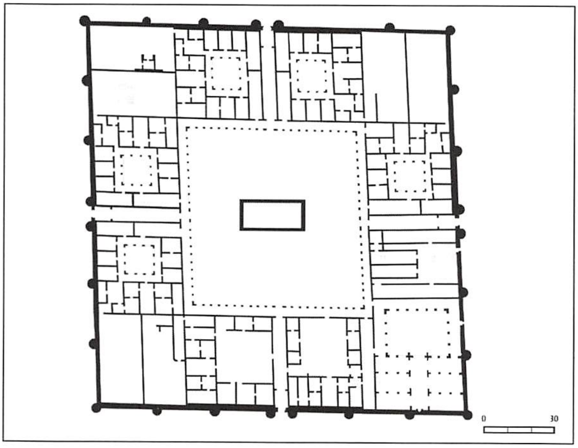
محراب للصلاة، وفي بعض الأحيان كان الضريح جزءاً من مؤسسة أكبر وأوسع. اختلفت أشكال أبنية الأضرحة الإسلامية، إلا أن النموذج الغالب كان يتكون من غرفة مربعة تعلوها قبة.

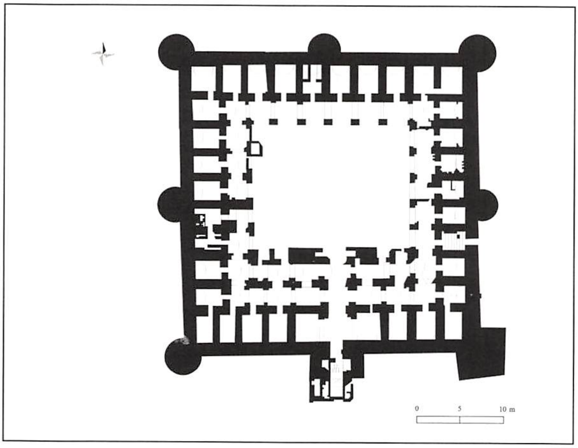
العمارة المدنية

القصور

تتميز الفترة الأموية بالقصور والحمّامات الفاخرة المبنية في مناطق صحراوية نائية، واتبعت مخططاتها الرئيسة النماذج العسكرية الرومانية. ورغم أن عناصرها الزخرفية منتقاة من مصادر عدة، إلا أنها تعدّ أفضل الأمثلة على الطراز الزخرفي الإسلامي في بدايته إذ استخدمت فيها الفسيفساء، والرسومات الجدارية،ومنحوتات الحجر والجص التي أضفت عليها تنوعاً في المواد والعناصر الزخرفية. اتبعت القصور

مخطط قصر الحير الشرقي، سوريا.





مخطط رباط سوسه، تونس.

العباسية، مثل تلك الموجودة في سامراء والأخيضر، مخططات سالفتها الأموية نفسها لكنها تميزت بكبر حجمها ووجود الإيوان الكبير والقباب والساحات، إضافة إلى كثرة استخدام الزخارف الجصية المنحوتة. ظهر طراز جديد من القصور في فترة حكم الأيوبيين، حين ابتدأ بناء القصور داخل أسوار القلاع. وهكذا أصبحت مساكن الأسرة الحاكمة، بما فيها الحمامات الخاصة والمساجد، جزءاً من مجمع القلعة. تطورت القصور في الفترات الإسلامية اللاحقة، فظهر طراز مميز اعتمد ثراء الزخارف أكثر من كبر الحجم، وتعدّ الحمراء في غرناطة أفضل الأمثلة على القصور الملكية أو الأميرية الإسلامية، حيث قسمت مساحة القصر الشاسعة إلى مجموعة وحدات منفصلة: الحدائق، والسرادقات، والساحات أو الأفنية. إلا أن أكثر ما يؤثر في النفس في الحمراء هو الزخارف الكثيفة التي تضفي جواً خاصاً على داخل البناء.

الخانات

يشير مصطلح "خان" بشكل عام إلى مبنى يؤمن المنامة للمسافرين والتجار. كان مخططه في العادة مربعاً أو مستطيلاً، وله مدخل وأبراج تبرز عن سمت الجدران المحيطة. كان للمبنى ساحة مركزية محاطة بالأروقة والغرف لسكن المسافرين وتخزين البضائع، وإسطبلات للحيوانات.

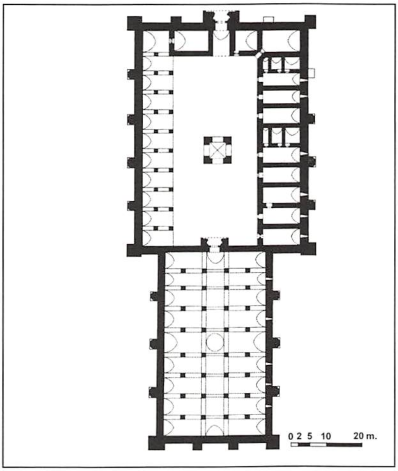
وصف هذا الطراز من المباني وأطلق عليه اسم خان، أو فندق، أو رباط، ولا تعني هذه المصطلحات أكثر من كونها أسماء محلية لمبنى يفي بالغرض نفسه. من الصعب التعرف على الأصول المعمارية لطرز الخانات المتعددة، ولكن يبدو أن بعضها قد اشتق من الحصون الرومانية التي كانت أثرت بدورها على تخطيط بعض القصور

الأموية. وهناك نماذج أو طرز أخرى ظهرت في بلاد الرافدين وإيران تأثرت بالعمارة السكنية المحلية.

التنظيم المدني

زودت جميع المدن الهامة منذ حوالي القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي بأسوار محصنة وأبراج وبوابات منيعة وقلعة (أو قصبة) شامخة للدلالة على القوة. كانت تلك منشآت ضخمة بنيت بالمواد المحلية: الحجارة في سوريا وفلسطين ومصر، أو الآجر والحجر والطين المدكوك في الأندلس وشمال إفريقيا. "الرباط" هو مثال متميز في العمارة العسكرية، ومن الناحية التقنية هو قصر محصن صمم للمحاربين المسلمين الذين كانوا يتطوعون بشكل دائم أو مؤقت للدفاع عن حدود الدولة. من أبرز الأمثلة على هذا النوع من البناء رباط سوسه في تونس الذي يشبه في تخطيطه القصور الإسلامية المبكرة، لكنه يختلف عنها بتوزيع غرفه الداخلية، ووجود المسجد والمئذنة فيه.

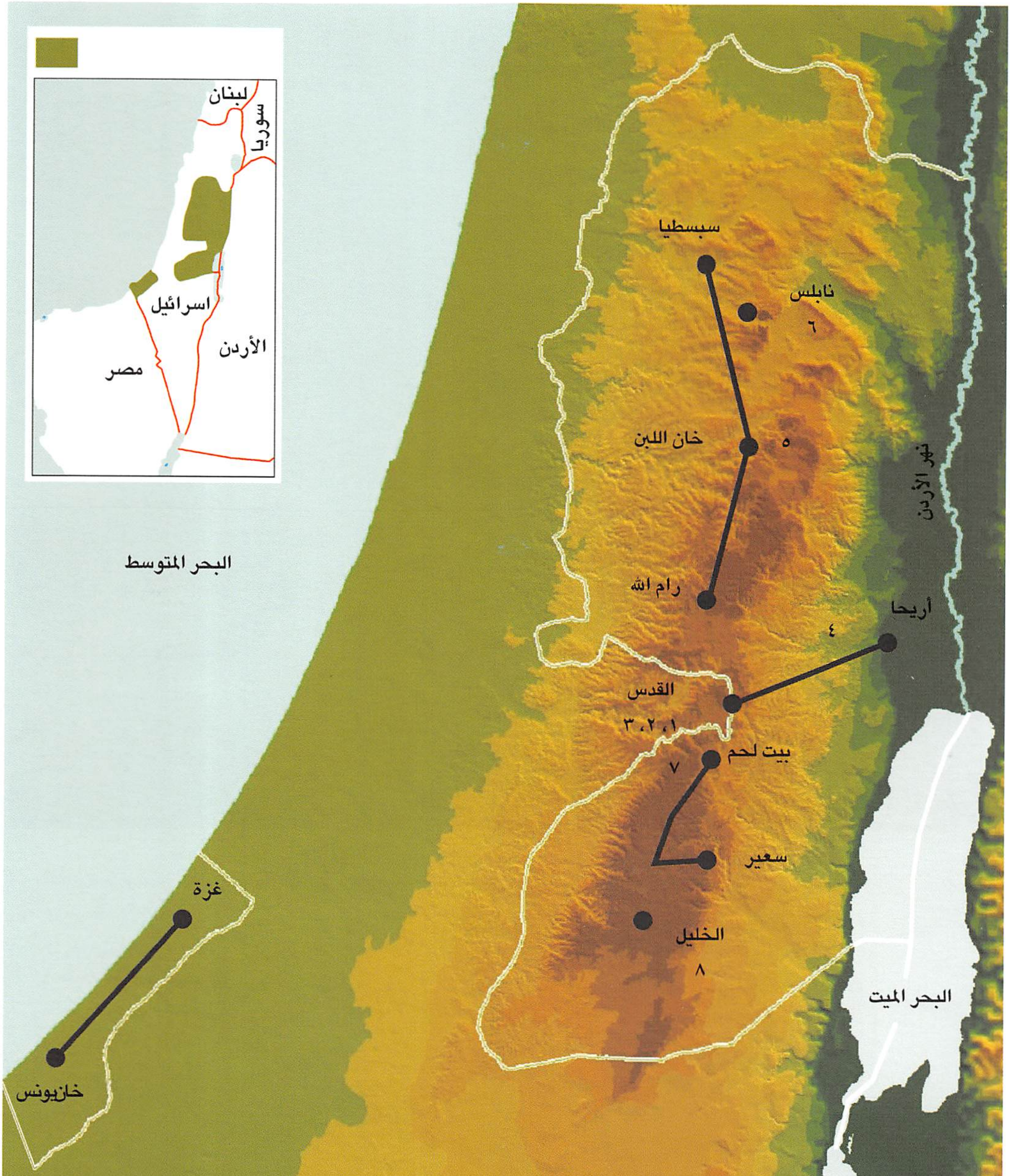
اعتمد تقسيم المدن الإسلامية الرئيسة إلى حوارٍ / أحياء، على أصول السكان القبلية وانتماءاتهم الدينية، وساهم هذا النظام في تسهيل إدارة السكان وشؤونهم. كان كل حي أو حارة يحتوي على مسجد بالإضافة إلى المنشآت الأخرى كالحمّام وسبيل الماء



مخطط خان أقصري سلطان، تركيا.

والمخبز ومجموعة حوانيت. كانت الحارة تتكون من شبكة شوارع وأزقة ومجموعة بيوت، مع أخذ الفوارق الناتجة عن المنطقة أو الفترة التاريخية بعين الاعتبار، هذا وقد اتخذت البيوت مظاهر مختلفة حسب الطبيعة الجغرافية والظروف التاريخية ومواد البناء المستعملة.

كانت السوق عصب الاقتصاد المحلي وأبرز مظاهر المدن الإسلامية. وكان لبعد الأسواق عن الجامع تأثير على التوزيع الفضائي لأسواق الحرف والتجارة المتخصصة، فعلى سبيل المثال كانت أسواق الحرف "النظيفة" (مثل الكتّاب والعطارين والخياطين) في محيط الجامع المباشر، بينما جعلت الحرف التي يصدر عنها الضجيج والروائح المنفرة (مثل الحدادين والدباغين والصباغين) على مسافات أبعد. وكان هذا التوزيع الجغرافي على أساس تقني بحت.



لبنان
سوريا
اسرائيل
الأردن
مصر
البحر المتوسط
سبسطيا
نابلس
٦
خان اللبن
٥
رام الله
أريحا
٤
القدس
٣،٢،١
بيت لحم
٧
سعير
الخليل
٨
نهر الأردن
البحر الميت
غزة
خانيونس



فلسطين، مأخوذة من " ثياترام
اوربس تيرارم" لأبرهام
اورتيليوس، انثورب، ١٥٧٠
(حقوق الطبع، الأرشيف الفني |
المتحف البحري، جنوا | داغلي
اورتي [A]).

فلسطين الإسلامية : التاريخ، السياسة والدين

د. نظمي الجعبة، د. يوسف النتشة

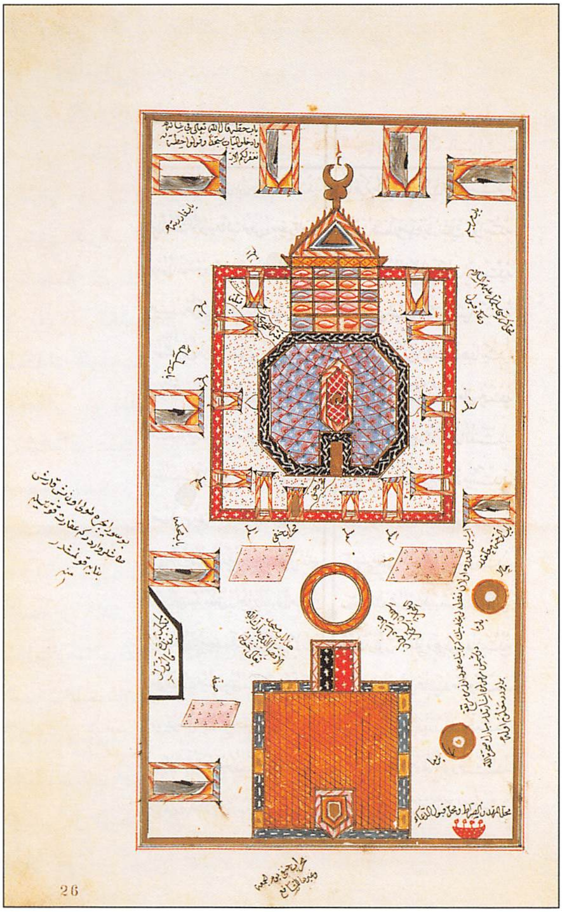
عايشت فلسطين عبر العصور التاريخية المختلفة الحضارات التي ظهرت في المنطقة. وبسبب موقعها الجغرافي المتميز بين حضارتي ما بين النهرين والشام من جهة، وحضارة وادي النيل من جهة ثانية، أصبحت ممراً لهذه الحضارات التي خلفت وراءها الدمار والتخريب، بالإضافة الى التأثيرات الحضارية الغنية. وليس صدفة أن تكون فلسطين قبلة الجيش العربي الإسلامي، وأولى المناطق التي وطئها هذا الجيش في عملية فتحه الجبارة.

فقد عبر عمرو بن العاص إلى أرض العقبة عام 13هـ / 635م، ومنها إلى النقب وغزة، ومن ثم شمالا بعد القضاء على المقاومة البيزنطية المنهكة، والتي كانت قد استردت فلسطين عام 628م من الغزاة الفرس الذين سيطروا عليها أربعة عشر عاما. ولم يمض عامان على دخول المسلمين أرض فلسطين، إلا وقد وقعت معركة اليرموك الحاسمة عام 15هـ / 637م والتي كانت آخر المعارك الفاصلة مع القوات البيزنطية. تم على إثرها فتح قلب فلسطين والشام. ولم يبق من فلسطين سوى مدينتي القدس وقيسارية، اللتين فتحتا لاحقا.

دخلت فلسطين عهدا جديدا تمثل بالاستقرار النسبي بعد فترة طويلة من الصراعات السياسية والمذهبية، التي مرت بها في القرن الأخير من الحكم البيزنطي، عدا الصراع مع الدولة الساسانية الفارسية. ولم يغير الحكم الإسلامي الجديد البلاد جذريا، بل ترك الأمور على سابق عهدها وقسم البلاد إداريا إلى جندين: الأول، في الشمال ويضم جنوبي لبنان وشمالي فلسطين حتى سهل مرج بن عامر، بالإضافة إلى شمال شرقي الأردن وسمي «جند الأردن» وعاصمته طبريا. والثاني، ويمتد من مرج بن عامر حتى النقب وجنوب شرقي الأردن وسمي «جند فلسطين» وعاصمته الرملة.

لا نعرف الكثير عن فلسطين خلال فترة الخلفاء الراشدين، ما عدا نشاط عمر بن الخطاب في بناء المسجد الأقصى المبارك، ونشاطات عثمان بن عثمان في تأسيس أول أسطول إسلامي في عكا، وتحصين السواحل وشحنها بالمقاتلة، فلم يتم التخطيط لمدن جديدة، كون الغالبية العظمى من سكان فلسطين كانت عربية، وجزء منها كان قد دخل الإسلام قبل حركة الفتوحات.

شهدت فلسطين في ظل حكم بني أمية (14-132هـ / 661-750م) حركة عمرانية هائلة، بسبب أهميتها الدينية والسياسية، فقد تشيع أهل فلسطين لبني أمية وشكلوا بجانب إخوانهم من عرب الشام العمود الفقري للجيش والسلطة. فلا عجب أن شهدت القدس بيعة معاوية وغيره من خلفاء بني أمية. كما شهدت المدينة خلال فترة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد بن عبد الملك أكبر وأفخم مشروع معماري قام به الأمويون (وقد يكون الأعظم في تاريخ الحضارة الإسلامية)، والمتمثل بإنشاء الحرم القدسي الشريف بكل مكوناته. لقد خلد هذا المشروع بني أمية ليس في العالم الإسلامي فحسب، بل في العالم أجمع. والى



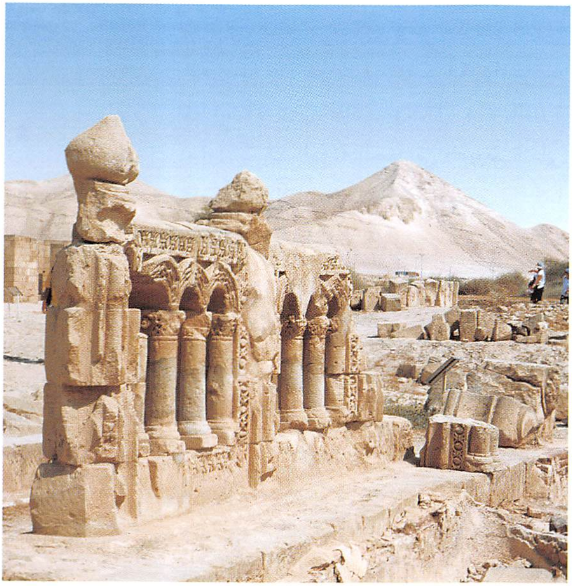
الحرم الشريف، قبة الصخرة والمسجد الأقصى، القدس، "نور الوهاج لتحصيل العلاج" (روكو ١٢٥، r ٢٦ f)، زخرفها النساخ مصطفى كاشف (مذهب) في عام ١٢٤٣\١٨٥٧ (حقوق الطبع مكتبة الفاتيكان).

جانب هذا المشروع انتصبت قصور الأمويين في القدس (دار الإمارة)، وأريحا (خربة المفجر / قصر هشام)، والمنية (على الشاطئ الشمالي الغربي لبحيرة طبريا)، وقصر الصباغين في الرملة (الذي لم يعد قائما)، بالإضافة إلى حمامات الحمة، إلى الجنوب الشرقي من بحيرة طبريا. هذا وقد ساهم بنو أمية في تحسين الطرق، خاصة تلك التي تربط فلسطين بعاصمة الخلافة دمشق. وابتنى سليمان بن عبد الملك المدينة الأموية الوحيدة في بلاد الشام «الرملة»، لكنه لم يشهد تدشينها، فأكملها وأتمها عمر بن عبد العزيز. وإذا كانت فلسطين قد شهدت علو شأن بني أمية وأعظم منشآتهم، فقد شهدت مذبح أكثر من ثمانين أميرا من البيت الأموي على يد عبد الله بن علي العباسي وذلك عند نهر أبي فطرس، وبمقتل آخر الخلفاء مروان بن محمد 132هـ / 750م انتهى عهد بني أمية وبدأ عهد الدولة العباسية.

بالرغم من عدم دفاع أهل فلسطين عن الأمويين، بسبب سوء الإدارة في مراحل الدولة الأخيرة، إلا أنهم سرعان ما أدركوا فداحة خسارة بني أمية، فهبوا معارضين الحكم العباسي، وهبت الثورات المختلفة باسم بني أمية. يمكن تقسيم فترة الحكم العباسي في فلسطين إلى فترتين: الأولى، ارتبطت فيها بالعراق (132-264هـ / 750-878م) وخلالها تراجعت الأحوال العامة بسبب العلاقة الحرجة التي ربطت السلطة المركزية بأهل فلسطين، وانتقال حاضرة الإسلام إلى العراق بعد أن كانت على حدود فلسطين، وبالتالي أصبحت في الظل بعد أن كانت في المركز. والثانية، ارتبطت فيها بمصر (264-358هـ / 878-969م) وهي المرحلة الإقليمية السياسية والاقتصادية، خلال ظهور الدويلات المستقلة نسبيا عن المركز (بغداد) الغارق بمشاكله السياسية.

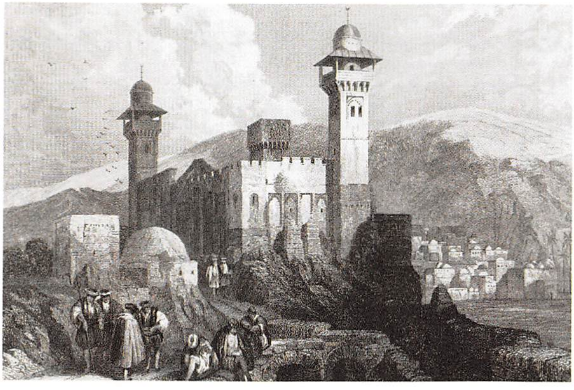
وشهدت فلسطين خلال العهد العباسي

قصر خربة المفجر، منظر عام، أريحا.



بمرحلتيه عدة مشاريع عمرانية كبيرة، لا تضاهي المشاريع الأموية، فلم يقصر بنو العباس في صيانة الأماكن الدينية وترميمها، والتي خلفها بنو أمية. فقد أمر أبو جعفر المنصور عام 154هـ/ 770-771م بترميم المسجد الأقصى بعد الدمار الذي أصابه بسبب زلزال حدث في العام نفسه، وكرر ذلك المهدي بعد أربع سنوات. كما قام المأمون عام 215هـ/ 831م بترميم قبة الصخرة. وأنشأ العباسيون عددا من البوائك المحيطة بقبة الصخرة، واهتموا بالحرم الإبراهيمي في الخليل، بالإضافة إلى أنظمة المياه في الرملة. كما تخبرنا المصادر عن بناء مسجد فخم في عسقلان. وبسبب تراجع السلطة المركزية في بغداد، فقد تمكن أحمد بن طولون عام 254هـ/ 877م من تأسيس الدولة الطولونية في مصر، ثم استطاع مد نفوذه إلى الشام وفلسطين عام 264هـ/ 877م، شهدت خلالها البلاد عددا من النشاطات العسكرية، وقد عكس هذا الأمر نفسه على طبيعة العمارة الطولونية في فلسطين. ومن أشهر الأعمال العمرانية، كان بناء ميناء عكا وتحصينه. وفي نهاية الحكم الطولوني 289هـ/ 901م ظهر القرامطة لأول مرة في فلسطين، فأصابت البلاد فوضى أقضّت مضاجع بغداد التي بدأت تستعد لاستعادة السلطة على فلسطين والشام، لتحول دون تحقيق القرامطة برنامجهم بإقامة دولة قرمطية/إسماعيلية في بلاد الشام. فقادت حملة سريعة عام 292هـ/ 905م قضت فيها على الحكم الطولوني ليس في الشام وحسب، بل أيضا في مصر.

لم تستطع الدولة العباسية حكم فلسطين مباشرة لفترة طويلة، فظهرت الدولة الإخشيدية 323-358هـ/ 934-969م وبسطت نفوذها أولا على الشام ومن ثم



الخليل والحرم الإبراهيمي، النحت على الفولاذ، هيلدبيرغوسن (معهد التوثيق)، ١٨٥٠ (حقوق الطبع AKG، لندن).

توسعت باتجاه مصر. وقد حاولت الدولة العباسية عدة مرات استعادة حكمها خاصة في الشام دون طائل. وخلال هذه الفترة حاول سيف الدولة الحمداني السيطرة على فلسطين، إلا أن الإخشيد قد تصدى له، كما استمرت الهجمات القرمطية على البلاد مسببة لها فترات من عدم الاستقرار. ومن الجدير ذكره أن الإخشيد بعد موته قد حمل ودفن في بيت المقدس، وكذلك خلفاؤه من بعده ومن ضمنهم كافور الإخشيدي. وفي نهاية الحكم الإخشيدي بدأت الهجمات الفاطمية تطال أرض مصر، معلنة ظهور قوة جديدة وتطورها، كان لها أن تعيد رسم الخارطتين السياسية والمذهبية في المنطقة. لقد تكللت هجمات الفاطميين على مصر بالنجاح عام 358هـ / 968م بدخول جوهر الصقلي إلى الفسطاط، منهيا بذلك ليس فقط الدولة الإخشيدية في مصر والشام، بل أيضا الحكم العباسي والدولة السنية، التي لن تقوم مرة أخرى إلا بصلاح الدين الأيوبي بعد قرنين من الزمن.

بالرغم من الاستقرار الذي حظيت به الدولة الفاطمية في مصر، والذي عكس نفسه حضاريا عبر المنشآت الفاطمية الرائعة التي تحلت بها القاهرة، فقد فشلت هذه الدولة في تحقيق الاستقرار في فلسطين. فقد قاوم أهل الشام الحكم الفاطمي الشيعي، ورفضت الغالبية العظمى منهم التشيع. أضف إلى ذلك نشوء قوى فلسطينية محلية وتطويرها، أمثال بني الجراح من طيء، أمراء الرملة، الذين سعوا للاستقلال مرارا عن الدولة الفاطمية، بل تحكموا بمصير هذه الدولة في الشام. كما ازدادت هجمات القرامطة وتلاحقت، وهددت الوجود الفاطمي مرات عدة، ونجحوا أكثر من مرة باستقلالهم في فلسطين، حيث سكوا النقود التي حملت شعاراتهم. وانضم إلى هؤلاء جميعا السلاجقة، رافعين شعار أهل السنة والجماعة.

لقد ساهم الفاطميون بدورهم في العناية بالأماكن المقدسة، فنرى الخليفة الفاطمي الظاهر يقوم سنة 426هـ / 1035م بترميم المسجد الأقصى بعد الهزة العنيفة التي أصابته، وأضاف له القبة التي ما زالت ماثلة، كما قام بدر الجمالي أمير الجيوش الفاطمية ببناء المنبر الخشبي الرائع الموجود في الحرم الإبراهيمي في الخليل. ويذكر أن الحاكم بأمر الله الفاطمي كان، لأسباب مختلفة أهمها توتر العلاقة مع بيزنطة، قد أمر بهدم كنيسة القيامة سنة 400هـ / 1009-1010م، لكنه لم يلبث أن أمر بإعادة بناء الكنيسة بعد مرور خمس سنوات على هدمها.

استطاع اتسز (من الغز) أن يحتل مدينة القدس ويقتطعها من الأملاك الفاطمية، وأن يقدمها للخليفة العباسي القائم بأمر الله، وللسلطان السلجوقي الشهير ملك شاه وذلك سنة 465هـ / 1073م. وتوسع اتسز بعدها ليسيطر على ميناء عكا ويعيد حياته التجارية إلى سابق عهدها . الا أن هذه المملكة الطارئة لم يكتب لها الاستمرار فسقطت بعد سبع سنين تحت ضربات الفاطميين من جهة



الحرم الإبراهيمي، المحراب والمنبر، الخليل.

والسلاجقة من جهة أخرى. سقطت مملكة أتسز على يد «تُتش» السلجوقي، شقيق ملك شاه، الذي استطاع السيطرة على بيت المقدس سنة 472هـ/ 1080م، في حين بقي الساحل جنوب عكا وجنوب فلسطين تحت السيطرة الفاطمية. إن توازن القوى بين الفاطميين والسلاجقة، قد منع الطرفين من الحشد لحرب فاصلة، لذلك تحاشى الطرفان المواجهة بقدر الإمكان. وبسبب وفاة السلطان ومحاولة تُتش الإحلال محله، ضعفت هذه الدولة في فلسطين، وهكذا انقض الفاطميون على فلسطين من جديد، واستطاع الأفضل بن بدر الجمالي عام 491هـ/ 1098م احتلال بيت المقدس، في الوقت نفسه الذي حاصرت فيه قوات الصليبيين مدينة أنطاكيا. ولم تمض ثمانية أشهر على الحكم الفاطمي لمدينة القدس، حتى وقفت قوة جديدة على أبوابها، وهم الصليبيون الذين استطاعوا تغيير صورة المشرق العربي، وكتابة تاريخه لفترة حوالي قرنين من الزمان.

بدأت حملات الفرنجة على فلسطين في أعقاب الخطاب الشهير، الذي ألقاه البابا أوربان الثاني في سهل كليرمون في فرنسا عام 488هـ/ 1095م، وتبعا لذلك وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى سور بيت المقدس عام 492هـ/ 1099م، وبعد اقتحام المدينة جرت فيها مذبحة رهيبة راح ضحيتها، وفق زعم بعض الروايات، ما يقارب 70000 نسمة. وهكذا سقطت المناطق الفلسطينية بالتتالي بأيدي قوات الصليبيين، في حين بقي

جنوب السهل الساحلي بأيدي الفاطميين. لم يكن احتلال الصليبيين لفلسطين احتلالا ديمغرافيا، بالرغم من طبيعته الكولونيالية، فقد فشلوا في استقطاب أعداد كبيرة من الأوروبيين للاستيطان في فلسطين، فبقي الريف فلسطينيا، واختلط بعض سكان المدن، واقتصر الوجود الإفرنجي في الريف على القلاع وسكانها. لقد أصبحت فلسطين في ظل هذه الأوضاع عنوانا للمندوحات الإسلامية، ورمزا للصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، واعتبر الغرب سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين رمزا لانهيار العالم الإسلامي ، كما اعتبرت دعوات استرداد بيت المقدس رمزا لاستنهاض قوى العالم الإسلامي في مواجهة الغرب.

كانت خسارة فلسطين حضاريا خلال هذه الفترة جسيمة، فقد دمر الصليبيون مئات المباني في طول البلاد وعرضها، فمثلا لم يبق أي بناء يعود تاريخه إلى ما قبل الفترة الصليبية خارج الحرم الشريف إلا ودمروه، وطغى النشاط المعماري للصليبيين، على مظهر بيت المقدس والمدن الفلسطينية الرئيسة. من ناحية ثانية، أدخل الصليبيون طرزا معمارية جديدة على المنطقة، خاصة الطراز الرومنيسك والقوطي، بالإضافة إلى أشكال مختلفة من العمائر الحربية التي تركت بصماتها الواضحة على العمارة الأيوبية بشقيها الحربي والمدني. أما من الناحية الإدارية، فقد أدخلت مفاهيم الإدارة الإقطاعية الغربية بكل أبعادها. كما يمكن القول بأنه – ولأول مرة– تشكل كيان سياسي مستقل في فلسطين (مملكة بيت المقدس اللاتينية) بعد أن كانت جزءا من الإمبراطوريات العالمية.

استطاع صلاح الدين الأيوبي، بعد تنفيذ الخطة التي وضعها آل زنكي، والمتمثلة بتوحيد المثلث الشامي المشكل من دمشق وحلب والموصل من جهة، ومصر من جهة أخرى، إطباق فكي الكماشة على مملكة بيت المقدس الصليبية، ولم تكن معركة حطين 583هـ/ 1187م إلا نتيجة حتمية لجهود آل زنكي وصلاح الدين الأيوبي، والتي أدت إلى ذلك الانتصار التاريخي الحاسم على قوى الصليبيين في المشرق العربي، والتي أدت أيضا إلى فتح أبواب بيت المقدس، واسترداد غالبية فلسطين.

امتازت المرحلة الأيوبية 583-648هـ/ 1187-1250م في فلسطين بأعمال حثيثة، ليس فقط في محاولة لاسترداد سائر فلسطين فحسب، بل أيضا في محاولة لاسترداد المظهر الحضاري والديمغرافي لها، وإعادة ربطها بالمنطقة العربية (مصر والشام بشكل خاص). وغدت فلسطين مقسمة إلى أربعة أقاليم: إقليم صليبي يتمثل بالشريط الساحلي ما بين صور ويافا، وثلاثة أقاليم أيوبية، فالجنوب تابع لمصر، والشمال من القدس حتى طبرية والجليل تابع لدمشق، والباقي لحاكم الكرك في شرقي الأردن. في الفترة التي لحقت وفاة السلطان صلاح الدين 589 / 1193، وبسبب الصراع الدائم على اقتسام إرثه، نجحت حملات الفرنجة الباهتة

في تفكيك البيت الأيوبي. وبالرغم من اعتبار المرحلة الأيوبية مرحلة حروب وجهاد، إلا أن الإنجازات الأيوبية على الصعيد الحضاري كانت ضخمة، فلم يترك سلاطين بني أيوب وأمراؤهم بقعة في فلسطين إلا وتركوا بصماتهم عليها، ببناء جامع أو رباط أو مدرسة، وأغدقوا عليها الأوقاف، علاوة على العمائر الحربية والتحصينات التي أعدوها في مواجهة حملات الصليبيين.

وعلى أي حال فقد فتحت الجهود الأيوبية الباب أمام إخراج باقي الصليبيين من المشرق العربي، وحملت في أحشائها نظاما سياسيا فريدا من نوعه، اعتمد على العبيد البيض الذين آلت إليهم السلطة بسقوط أسيادهم. فبدأت الفترة المملوكية، بعد أن استطاع هولاكو تدمير بغداد 656هـ/1258م وانتقل بعدها إلى الشام، حيث تمكن المماليك من هزيمته، واستطاعوا أن يحصلوا على شرعية حكمهم بمعركة عين جالوت 658هـ/1259م التي فتحت أيضا أمامهم السيطرة على الشام، بعد أن قام المغول بالقضاء على الحكم الأيوبي فيها. بقي على المماليك تصفية الوجود الصليبي في الشام عامة وفي فلسطين خاصة، حيث لم يتسن ذلك إلا على يد الملك الأشرف خليل عام 690هـ/1291م حين سقطت عكا آخر المعاقل الصليبية بين يديه، لتطوى هذه الصفحة من الحروب الطويلة التي استمرت ما يقارب القرنين والتي اشتركت فيها غالبية الشعوب الأوروبية.

قسم المماليك فلسطين إلى ثلاث نيابات: نيابة صفد، نيابة غزة، نيابة القدس، وأولوها جل اهتمامهم، كونها الأرض المقدسة من جهة، وجسر المملكة الذي يربط جناحيها من جهة أخرى. ولتعزيز العلاقة بين مصر والشام عبر فلسطين، فقد استثمروا الكثير في بناء شبكة من الخانات على امتداد الطرق الرئيسة، سواء تلك المتعلقة بالتجارة، أو الحج إلى الديار المقدسة، كما أتبعوها بسلسلة أخرى من مراكز البريد الواصل بين القاهرة ودمشق. نعمت فلسطين في ظل المماليك بحركة



قتال على أبواب القدس. المسلمون يدحرون الكفار ويطردونهم خارج المدينة، مأخوذة من "الزهرة الجميلة للتواريخ" للقمان، ١٥٨٣(حقوق الطبع الارشيف الفني | داغلي اورتي).

حضارية طالت المكونات كافة، خاصة وأنها حظيت بهدوء نسبي طال انتظاره. وبسبب تراجع الخطر الصليبي، فقد أمكن لأول مرة منذ فترة طويلة الاستثمار في المجالات غير العسكرية. فنشطت حركة بناء المدارس والزوايا والتكايا والأربطة والسبل فضلا عن المساجد.

حظي بيت المقدس بنصيب الأسد من الاهتمام المملوكي، فقد تكرم غالبية السلاطين والأمراء بزيارته، وكرموه بدورهم ببنايات تذكارية علمية وخيرية، ما زالت تحدد الوجه الحضاري للمدينة، وأصبحت المدينة قبلة للعلماء وطلبة العلم. فقد درس في مدارسها إلى جانب حرمها العشرات من كبار علماء المرحلة المملوكية، وجاور في زواياها وخانقاواتها أعلام التصوف الإسلامي، وأغدقت على المدينة الأوقاف السخية لتضمن تواصل عمل مؤسساتها. كما لم يبخل المماليك بالاهتمام على باقي المدن مثل الخليل، وصفد، وعكا، وغزة. ويمكن مشاهدة لمساتهم في المقامات على طول البلاد وعرضها، فقلما نجد مقاما ذا شأن دون أن نكتشف بناءه أو إعادة بنائه أو ترميمه تم على يد هذا السلطان أو ذاك الأمير.

ولعوامل ذات علاقة بتطور التجارة الدولية، وتآكل نظام المماليك، وصعود نجم العثمانيين، فقد سقطت دولة المماليك بعد معركة مرج دابق 922هـ/1517م، وبعدها أصبحت فلسطين جزءا لا يتجزأ من إمبراطورية مترامية الأطراف متعددة اللغات والجنسيات والحضارات، حيث أخرجت من الإطار الإقليمي المصري-السوري، لتعيش ضمن حدود الإمبراطورية العثمانية فترة دامت أربعة قرون.

يمكن تقسيم الحكم العثماني في فلسطين إلى أربع مراحل: الأولى، برزت خلالها مراكز قوى محلية مبعثرة ذات مرتكزات بدوية وإقطاعية استغلتها الدولة العثمانية في الحكم. والثانية، بانتقال زمام المبادرة إلى قوى خارجية مثل فخر الدين المعني أمير جبل لبنان حتى قضت عليه السلطة المركزية عام 1045هـ/1636م ليحل محله النفوذ العثماني المباشر، وتعيين ولاة عثمانيين في دمشق وصيدا. والثالثة، والتي تمثلت بظهور أول إمارة عربية شبه مستقلة بقيادة الزيادنة وعشرات من الزعماء الريفيين، إضافة إلى ظهور أحمد الجزار والي عكا، الذي ذاع صيته لتصديه لنابليون بونابرت في حملته الشهيرة عام 1214هـ/1799م التي دقت ناقوس الأطماع الأوروبية من جديد. والرابعة، حيث حاولت الدولة المركزية إصلاح الحكم عبر التنظيمات، في القرن التاسع عشر، وشهدت غزو محمد علي الكبير وضم فلسطين إلى مصر عام 1245-1246هـ/1830-1831م، أما في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، فقد فتح الباب على مصراعيه أمام التدخلات الغربية والحركات التبشيرية، ولاحقا الأطماع الصهيونية عبر ازدياد وتيرة الهجرة اليهودية إلى فلسطين لتنتهي هذه الفترة بالحرب العالمية الأولى، ولتخضع فلسطين



النبي محمد (صلعم) تحمله الملائكة. ويظهر في أسفل الصورة تدمير المعبد في القدس، مأخوذة من "الزهرة الجميلة للتواريخ" للقمان، ١٥٨٣(حقوق الطبع الارشيف الفني | المتحف الفني الإسلامي والتركي، استنبول | داغلي اورتي [A]).

بعد أربعة قرون من السيطرة العثمانية للانتداب البريطاني (1922-1948م). تبعت فلسطين العثمانية إداريا ولاية الشام، وضمت خمسة صناجق (ألوية) هي: القدس وغزة وصفد ونابلس واللجون. لقد اعتبرت فلسطين على درجة عالية من الأهمية بحيث حظيت بخمسة صناجق، في حين قسمت باقي بلاد الشام إلى أربعة صناجق فقط، كما قام العثمانيون ببناء أو ترميم سلسلة من القلاع لتأمين الطرق مثل: المنية، عيون التجار، جنين، قاقون، قلنسوة، رأس العين، خان يونس، العريش، بيت جبرين. وقد قام العثمانيون وخلال الفترة الأولى، بتنفيذ مشاريع عمرانية جليلة، أهمها على الإطلاق سور القدس والترميمات في الحرم القدسي الشريف ومشاريع المياه والمساجد. كما نفذوا مشاريع كبيرة في الخليل وغزة وعكا. ويمكن مشاهدة آثار العثمانيين في كل أرجاء فلسطين، فضلا عن تلك التي نفذت عبر حكامهم مثل قلاع الظاهر عمر في الجليل، وأسوار طبريا، وتحصينات عكا وجامع الجزار... الخ. على أننا في الفترات اللاحقة نلاحظ اضمحلال هذه المشاريع وتراجع الاهتمام في فلسطين لانشغال الدولة العثمانية في حروبها بأوروبا.

الصوفية والإسلام

وبالرغم من التطورات السياسية والإدارية المتلاحقة إلا أن أهمية فلسطين للعالم الإسلامي لم تتأثر، فقد استمرت قوافل الحجيج والزوار بالتوافد على فلسطين وفي ظل العهود آنفة الذكر. ولم يكن بمستغرب أن تحظى فلسطين باهتمام بالغ من قبل المسلمين، فقد شكلت مدينة بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، هدفا مركزيا للحجاج والزوار والمتصوفة والمتقدسين والمتعلمين.. إليها سرى نبي الإسلام (ص) ومنها عرج إلى السماوات العُلى. لقد حضّت الأحاديث النبوية الشريفة على زيارة بيت المقدس، واعتبرته واحدا من المساجد الثلاثة



منظر لمدينة القدس من الفسيفساء، القرن السادس (العهد البيزنطي) وهو أقدم تمثيل للمدينة المقدسة، كنيسة سان جورج، مادبا، الأردن.

التي تشد إليها الرحال بعد الحرم المكي في مكة المكرمة، والحرم النبوي الشريف في المدينة المنورة، وارتبط بيت المقدس بالحرم الإبراهيمي الشريف حيث قبر أبي الأنبياء وأول المسلمين سيدنا إبراهيم، وانضم إليهما مهد سيدنا عيسى وعشرات المقامات.

لم تحظ أي من ديار الإسلام بهذا الكم من المقدسات، ففلسطين وطن الديانات السماوية ومهدها. وعليه فقد اعتاد المسلمون بعد قيامهم بشعائر الحج، المرور على بيت المقدس بهدف «تقديس» حجتهم، وخلال هذه الزيارة قاموا أيضا بزيارة باقي الأماكن المقدسة وعلى رأسها مدينة خليل الرحمن. ولذلك انتشرت بيوت ضيافة الحجاج على طول البلاد وعرضها، واشتهرت مضافة الخليل منذ فجر الإسلام وتكية القدس منذ مطلع المرحلة العثمانية، حيث اعتنت بزوار فلسطين، كما انتشرت بيوت الصوفية بشتى أشكالها وألوانها لاستيعاب سيل المتصوفة، الذي ما فتئ يتدفق عليها. وترافقت الزيارة أحيانا بموسم من المواسم الهامة مثل موسم النبي موسى أو موسم النبي صالح، ربما تحقيقا لنذر أو وفاء بدين.

ساهم الخلفاء والسلاطين والأمراء بشتى طبقاتهم بهذا التراث الهام. فقلما نجد خليفة أو سلطانا لم يقم بزيارة القدس والصلاة في محراب المسجد الأقصى وتوزيع الصدقات على فقرائها، ووقف الأموال والمستغلات

على مقدساتها، إضافة الى بناء المساجد والمدارس والقباب والزوايا في أرجاء فلسطين طلبا للثواب والمغفرة.

وقد ألفت المصنفات في فضائلها وتوسعت في وصفها، وعجت كتب الرحلات في ذكرها وتحديد طرقها ووصف مسالكها تسهيلا لشد الرحال إليها. وبهذا فقد ذكرت في المؤلفات الأولى التي ظهرت في التراث الكتابي الإسلامي، ولم يمض القرن الرابع / العاشر حتى ظهرت كتب فضائل بيت المقدس، واحتوت على فضل كل مدينة من مدن فلسطين ووصف لمقدساتها. كما احتوت على ذكر من دخلها من الخلفاء والصحابة والعلماء، وعلى من جاور فيها من الصلحاء. كما ذكرت هذه المؤلفات من دفن فيها من الصحابة وأصحاب السوابق الأولى ومن اشترك في فتحها. وأظهرت هذه المؤلفات الأحداث الجلل في التاريخ الإسلامي التي ارتبطت بفلسطين.

وتوالى ظهور كتب الفضائل، والتي اضحت أدلة للحج، عبر العصور الإسلامية المختلفة وبوتيرة متصاعدة خاصة خلال الحقبتين المملوكية والعثمانية.

وقد انتشرت معاهد العلم في رحاب الاقصى وظلاله لتصبح بيت المقدس قبلة لعلماء الاسلام من كل صوب. ووصل هذا التطور قمته إبان الفترة المملوكية، حيث وصل عدد



القدس، قباب ومآذن البلد القديمة (حقوق الطبع A.F. كيرستنج).

المدارس ودور العلم بأشكالها المختلفة إلى ما يزيد على المائة، جاذبة كبار علماء العالم الإسلامي، ومحتضنة كذلك طلبة العلم من الأصقاع كافة، وأصبحت جزءا لا يتجزأ من العناوين المرتبطة بالرحلة في طلب العلم.

وكما هو الحال في كثير من المقدسات الرئيسة، فقد قصدها الزهاد للمجاورة والتفرغ للعبادة لما توفره من جو مثالي لإعادة اكتشاف الذات فها هو الإمام الغزالي (ت 505هـ / 1111م) يقصدها في أحلك فترات حياته «رحلة التوبة واكتشاف الذات»، ويقضي السنوات الطوال في رحاب الأقصى. وأما أبو بكر المعافري الإشبيلي الأندلسي (ت 543 / 1148) فيقصدها بحثا عن العلم والعلماء، ولا يستطيع مبارحتها بالرغم من نيته الأولى فقط زيارة مقدساتها. لقد شكلت هذه المقدسات مناخا لا مثيل له لرجال التصوف، مما شجعهم على الاقامة فيها لفترات أطول.

والصوفية لغويا، لفظة عربية اشتقت من الصوف، وأطلقت على من لبسه رغبة في التقشف. والمعنى الاصطلاحي للتصوف هو العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والابتعاد عن زخرف الدنيا، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه. والصوفية بهذا المعنى والمضمون بدأت مبكرة في الإسلام، فهذا في الواقع مسلك الرسول محمد عليه السلام ومسلك كثير من الصحابة. ونظرا لمكانة القدس الدينية في الإسلام، فقد جذبت إليها، منذ الفتح الإسلامي، مجموعة كبيرة من الزهاد والعباد والمتصوفة المنقطعين للعبادة. ووثق ذلك مجير الدين الحنبلي (901هـ / 1496م)، مؤرخ القدس المشهور.

ولم تبق الصوفية في الإسلام في العقود والقرون التالية على بساطتها ونقائها، بل تطورت وتعقدت أفكارها ومسالكها ومرت بأدوار ومراحل وأصبحت لها مدارس. فظهرت مدارس للصوفية المتفلسفة نشدت تفسيرا لعلاقة المتصوف مع الخالق والكون. وتم الخوض في صفات الخالق والخروج بنظريات فلسفية في تفسير الوجود ووسائل المعرفة. ولا شك في أن هذه الصوفية قد تأثرت بالتيارات الفكرية والدينية والفلسفية التي سادت في الثقافات التي عاصرت الإسلام. فقد آمنت رابعة العدوية (ت 185هـ / 801-802م) بأن طاعة الله لا تكون خوفا من ناره ولا طمعا في جنته، بل ابتغاء مرضاته. وتحدث أبو يزيد البسطامي (ت 260هـ / 874م) عن نظرية الفناء والاتحاد، لكن الفناء عنده ليس كالهندية يؤدي للعدم، بل هو فناء المحب(الصوفي) في المحبوب (الله). ونادى الحلاج (ت 309هـ / 922م) بنظرية الحلول، والتي هي صورة من صور الاتحاد واندماج الطبيعة الإنسانية في الطبيعة الإلهية. كما تحدث ابن العربي (ت 638هـ / 1240م) عن وحدة الوجود.

ومع أن هذا الضرب من التصوف قد وجد صداه في القدس، سواء أكان بتسرب أفكاره إليها أم بعيش بعض من إعلامه فيها؛

كالمتصوف المتكلم ابن كرام السجري (ت 255هـ / 869م)، مؤسس الفرقة والخانقاة الكّرامية في القدس، الذي بحث في الصفات الإلهية والتجسيم وأشار إلى ان الإيمان يبدأ باللسان وإن أنكره الوجدان والقلب. إلا أنه لم يستمر طويلا، بل حل مكانه تصوف من نوع آخر هو الذي ساد بدعم من المؤسسات التي أسست من قبل الحكام والأمراء.

فبين جزع الفقهاء على نقاء الدين وبساطته، وصعوبة فهم العامة لما ينادي به هؤلاء المتصوفة، ومع تسمم الأجواء السياسية وفسادها، واستغلالها لتصفية الخصوم بذريعة حماية الدين والشريعة، وتحت وطأة مهاجمة علماء الشريعة للفلاسفة والمتصوفين المتفلسفين، صفي بعض أقطاب هذا المسلك، مما مهد الطريق لاختفائه، وظهور دور آخر للصوفية، كان من أبرز أعلامه الإمام الغزالي (ت 505هـ / 1111م)، الذي أقام في القدس مدة خصصها للرد على الفلاسفة وخرج بنظرية صوفية من اجتهاده صاغها في كتبه وشكلت منطلقا جديدا للصوفية. ومفاد هذه النظرية أن عقل الإنسان رغم أنه أجلُّ أداة للفهم والتفكير، إلا أنه قاصر في أمور الغيبيات والإلهيات، وان الوسيلة الوحيدة المأمونة لإدراك ومعرفة اليقين هي بواسطة التصوف الذي يعتمد على القلب والحدس والذوق للوصول الى الحقيقة، وهذه لا تتم إلا بعد صفاء النفس والالهام .

وبما أن صفاء النفس ترف لا يتيسر للكثيرين، وهو بحاجة إلى الجهد والجلد والبعد عن الملذات، فإن الذي ينشد الحقيقة لا بد له وأن يتدرج في طبقات الصوفية الثلاث: مريد طالب؛ ومتوسط سائر؛ ومنتهٍ واصل؛ وأن يمر في مقامات ثمانية للوصول للمعرفة الحقة للذات الإلهية. وتبدأ هذه المقامات بالصحوة أي الخروج من الغفلة، والتوبة أي الرجوع إلى الله، والإنابة أي الرغبة في الذكر، والورع أي ترك ما اشتبه عليه، والإرادة وتكون بترك الراحة، والزهد وذلك بترك الحلال من الدنيا، والصدق ويتحقق باستواء السر والعلن والجوع والشبع والنوم والسهد، وأخيرا مقام الرضا ويكون بتلذذ الصوفي بالبلوى وحصول الخلاص عنده بالفناء. وبما أن القدرات الإنسانية تتفاوت من شخص لآخر، فلا بد أن يتم هذا بإشراف صوفي متمرس حصل له الكشف والصفاء. وبالرغم من أن الهدف والغاية واحدة إلا أن الطرق الصوفية قد تختلف، لذا كان طبيعيا أن تتنوع وتتعدد الطرق الصوفية في الإسلام وأن تندرج وتنسب إلى أقطاب مشهورين، كعبد القادر الجيلاني (ت 561هـ / 1166م) صاحب الطريقة القادرية، وجلال الدين الرومي (ت 672هـ / 1273م) صاحب الطريقة المولوية، وغيرهم من الطرق الصوفية، كالنقشبندية والخلوتية والبسطامية والشاذلية التي وجدت طريقها للقدس حتى بلغت سبعين طريقة.

وقد نشأت علاقة حميمة بين شيوخ الطرق الصوفية وأتباعهم من جهة، وبين الدولة ممثلة بالحكام والأمراء والسلاطين

والمتنفذين فيها من جهة أخرى، أدت إلى رعاية الدولة للمؤسسات الصوفية المتمثلة في الزوايا والخوانق والأربطة. وفي المقابل، ردت الصوفية وأتباعها هذا الجميل بدعم الحكام والسلطة وتأييدهم أمام العامة. ونتيجة لهذا، تم بناء العشرات من العمائر والمباني الصوفية في القدس، لا يزال بعضها قائما.

وقد تجمدت الصوفية لاحقا ، ومال شيوخها المتأخرون إلى بسط سيطرتهم على عقول السذج من العامة والتركيز على الكرامات، وقل الإخلاص في الزهد والعبادة، مما خلق صراعا مريرا بينهم وبين الفقهاء.

العلم والأماكن المقدسة

ولم توفر المقدسات أرضية خصبة للتصوف فحسب، بل جمعت، عبر الرحلة في طلب العلم و«التقدس» والمجاورة، أعدادا ضخمة من العلماء وطلبته من سائر انحاء العالم الاسلامي. فللعلم والعلماء مكانة مرموقة في العقيدة الإسلامية، فأول آيات كتاب الدين الإسلامي «القرآن الكريم» تحض على التعليم. حيث خاطب الله رسوله الكريم قائلا: «إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم». وفرّق القرآن في الحكم بين العلماء والعامة قائلا :« قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون». وحث الرسول المسلمين على طلب العلم ولو كان مركزه بعيدا جدا، وضرب مثلا لهذا البعد في عصره بالصين. ومن أجل تحصيل المعرفة المتعمقة، أصبح الارتحال إلى منابعه متطلبا أساسيا بالنسبة لأي عالم. ولا يوجد مدح أعظم من قولهم: «إنه ارتحل كثيرا وتتلمذ على علماء متميزين في أراضٍ وأصقاع متباعدة». وبدأت ظاهرة الارتحال في القرن الأول / السابع والثامن، بصحابة رسول الله وذلك بذهابهم إلى العراق والشام ومصر، فقلة منهم بقيت في الحجاز. وأشهر من ارتحل كان علماء الحديث الشريف، الذين درسوه ودققوا روايته.

وشجع ركن الحج الذي ينبغي على المكلف القيام به، وذلك بقصد مكة والمدينة والقيام ببعض الشعائر، على الارتحال، وتطور الأمر أحيانا من قبل بعض العلماء للاستقرار في إحدى المدن المقدسة أو في إحدى الحواضر، فأطلق عليه لفظ «مجاور». وبفضل وحدة العلوم والثقافة الإسلامية التي امتدت في ديار الإسلام، فقد تيسر لقاء العلماء وتبادلهم للأفكار وتحسنت فرص تلقي العلم.

وحيث إن القدس هي إحدى مدن الإسلام المقدسة الثلاث، فهي الأرض المقدسة التي باركها الله في كتابه العزيز، وهي مقصد الإسراء وموضع المعراج الشريف، وهي القبلة الأولى، والهدف المنشود الذي تشد إليه الرحال مع مكة والمدينة، وهي أرض المحشر والمنشر، إليها ستزف مكة والمدينة في يوم القيامة، فيها أقام ودفن العديد من صحابة الرسول والتابعين، فقد استقطبت المدينة أعظم العلماء من بقاع العالم الاسلامي كافة

سواء على مستوى الزيارة او الاستقرار. واضحت مدينة القدس واحدة من المدن الست الرئيسة التي يتوقف فيها العلماء والفقهاء طلبا للمعرفة والثقافة الاسلامية. أما بقية المدن الخمس فهي القاهرة ودمشق وبغداد ومكة والمدينة.

وقد قاومت هذه المدن ما حل بها من نكبات وعوائق، وما لبثت أن استعادت عافيتها واستمرت مراكز للعلم رغم تعرض بعضها للاحتلال والتدمير، كبغداد على أيدي المغول، والقدس على أيدي الصليبيين، عوضا عن أن التفتت السياسي الذي حل بالعالم الإسلامي لم يفت في عضد مكانة هذه المدن العلمية ولا في تقدم العلوم في القرنين الرابع والخامس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. وكان المسجد - ولا يزال إلى حد كبير- من أبرز أماكن العلم في الإسلام منذ زمن الرسول عليه السلام، إضافة إلى كونه مكان العبادة الأول. ولعبت المساجد الرئيسة في عواصم الإسلام دورا رائدا في نشر العلوم والمعارف. وقد أوردت المراجع التاريخية قائمة بأسماء العلماء البارزين، نذكر على سبيل المثال، الصحابي عبادة بن الصامت (ت 34هـ / 654م)، الذي كان أول من شغل منصب القضاء في القدس وفلسطين، وكلفه



المسجد الأقصى، منظر عام للواجهة الرئيسة. الحرم الشريف، القدس.

الخليفة عمر إضافة إلى ذلك بمهمة التعليم في القدس. وشداد بن أوس (ت 58هـ/ 677 - 678م)، والإمام الأوزاعي، وسفيان الثوري، والإمام الليث بن سعد، والإمام الشافعي وغيرهم كثير.

وقد كان المسجد الأقصى في القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر، والحادي عشر الميلاديين، مركزا علميا ثريا، اجتمع فيه نخبة من العلماء المحليين مع علماء من أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي. فنبغ فيه محمد بن أحمد المقدسي البشاري (ت 380هـ/ 990م) صاحب الموسوعة الجغرافية الرائدة، التي عرفت باسم «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، وأبو الفضل علي بن طاهر المقدسي (ت 507هـ/ 1112م)، والأستاذ الفقيه الذائع الصيت نصر المقدسي (ت 1096/ 490)، وعطاء المقدسي. ومن الأعلام الذين نزلوا القدس في هذه الفترة نشير إلى الإمام محمد بن الوليد الطرطوشي الأندلسي (ت 520هـ/ 1126م)، وأبي الغنائم محمد بن ميمون الحافظ الكوفي، وأبي عبد الله الديباجي العثماني، والإمام أبي الفرج الشيرازي وأبو حامد الغزالي، الذي اعتكف في المسجد الأقصى، وأقام في المدرسة النصرية وألف فيها العديد من الكتب.

وقد غلب طابع النقاش والمناظرة على أسلوب العلم والتعلم في هذه الفترة، خاصة وأن القدس كانت تعج بكبار العلماء، فقد ذكر الغزالي أنه كان بالأقصى ثلاثمائة وستون مدرسا، وتحسر الغزالي على هذا العدد لقلته وعدم تناسبه مع مكانة الأقصى. ولم تكن المناظرات مقتصرة على العلماء المسلمين، بل طالت علماء أهل الكتاب، فقد ذكر ابن عربي (ت 543هـ/ 1148م) وصفا لتلك المناقشات في القدس فقال: «وكنا نفاوض الكرامية والمعتزلة والمشبهة واليهود وخاصمنا النصارى بها».

وكانت مواضيع المناظرات تتركز على علم الكلام وأصول الفقه والخلاف. أما مواضيع الدرس فكانت تتعلق بعلوم القرآن والحديث وفروعهما المتعددة، ولم تخل الحلقات من علوم العربية من نحو وصرف وأدب وبيان وشعر وغيرها من المواضيع. وطبيعي أن بعض هذه العلوم كانت تتداخل مع بعضها البعض. ولم يكن هؤلاء العلماء يتقاضون راتبا أو أجرا مقابل دروسهم. وكان المدرسون يلقون دروسهم في داخل الأقصى بأن يتحلق حولهم الطلاب والمريدون، وبعضهم كان يجلس بالقرب من عمود معين، عرف لاحقا باسم مدرس معين لشهرته، وكانت بعض الدروس تلقى من على المساطب إذا كانت الأحوال الجوية تسمح بذلك، ولم تكن الدروس مقيدة بشروط ولا بمناهج محددة.

وتلقى التعليم في القدس ضربة قاصمة باحتلال الصليبيين المدينة في 492هـ/ 1099م، فانقطع التعليم فيها، وقتل مجموعة من علمائها الفقهاء. لكن حينما حررها صلاح الدين الأيوبي من أيدي الصليبيين في 583هـ/ 1187م قرّب العلماء، وأحسن إليهم، وبنى لهم المؤسسات

المتخصصة لتساعدهم في أداء مهامهم مثل المدارس. إضافة إلى استمرار الأقصى كمكان للوعظ والإرشاد والتوعية. ومع أنه تتوافر إشارات إلى أن المدارس وجدت في القدس قبيل الاحتلال الصليبي، إلا أن هذه الظاهرة لم تنتشر إلا في العصر الأيوبي وتعمقت وتعممت في العصر المملوكي.

وعرفت المدارس غالبا بأسماء مؤسسيها، وأحيانا كثيرة بأسماء مدرسيها. وكانت المدارس مخصصة لتدريس المذاهب الإسلامية الأربعة، وغالبا ما كانت المدرسة متخصصة بأحد هذه المذاهب. وساعد نظام الوقف والأوقاف على منح فرصة للطلاب المجتهدين الفقراء للتعلم، وكفل النظام تأمين المصاريف الجارية للمدرسة ولرواتب المدرسين. وكانت الوظائف في المدرسة على ضربين. وظائف علمية كوظيفة شيخ المدرسة، أو مدرسها الأول، حيث كان يفوّض إليه التدريس، وكان يشغل هذه الوظيفة كبار الفقهاء أو العلماء، ويصدر لهم تعيين مع شروط حين يباشرون العمل. وكان المدرس يمنح طلبته شهادة عرفت باسم إجازة ليروى أو يدرس عنه كتبه أو بعضٌ منها. وكان مع المدرس مساعد أو أكثر يساعدونه، خاصة في تبسيط المشكل من الأمور على الطلاب الذين هم بحاجة لمساعدة. وكان للمدرسة وظائف إدارية أشهرها كان مدير المدرسة، الذي هو بمثابة المدير الإداري للمؤسسة، يتولى إدارة أوقافها، ويصرف منح الطلبة، ويحرص على عمارة المبنى وصيانته. ومن الموظفين الإداريين أيضا خازن الكتب، وكاتب الغيبة، والخادم والشغال.

ومع أن مواضيع العلم بقيت متماثلة في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وما بعده من القرون، إلا أن أسلوب العلم والتدريس تغير إلى الأسوأ، فقد اختفت حلقات النقاش والمناظرة، وقل الاجتهاد والتجديد، وغلب على روح العلم الرتابة والتكرار، واعتمد على الاستظهار في العصرين الأيوبي والمملوكي، ووصل الأمر حد الجمود والانغلاق في العصر العثماني، خاصة في أواخره. ورغم ذلك فقد أورد مجير الدين تراجم لمجموعة كبيرة جدا من الفقهاء، والعلماء، والخطباء، والقضاة والمدرسين ممن عاشوا وأقاموا في القدس في العصرين الأيوبي والمملوكي، ممن ساهموا في الحفاظ على علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية. وختاما يجب التنويه بأن هذه المدارس لم تكن حكومية في الأغلب بل كانت مستقلة تعتمد في بقائها على أوقافها، وكانت مفتوحة الأبواب لأغلب الناس مجانا ودون تمييز بين الطبقات، وهذه مرحلة يمكن أن تعدّ مرحلة ما بين التقدم وبداية التخلف.

الفنون الزخرفية والمعمارية لفلسطين الإسلامية

د. يوسف سعيد النتشة

شهدت فلسطين تقدما ملحوظا على صعيد الفنون الإسلامية وذلك بفرعيها الأساسيين العمارة والتحف المنقولة. ورغم صغر المساحة الجغرافية لفلسطين، فإن الفنون فيها قد ازدهرت بشكل يلفت النظر، وتميزت بالتنوع والتفرد، حيث لا تزال تحتضن أقدم وأهم أثر إسلامي باق حتى الآن، وهو مبنى قبة الصخرة المشرفة في القدس. هذا المبنى الذي يعدّ مدرسة فنية مستقلة بذاتها جذبت اهتمام دارسي العمارة والفنون الإسلامية منذ عشرات العقود، بحيث وضعت حوله دراسات فنية وتحليلية لم يحظ بها أي مبنى آخر في العمارة الإسلامية.

ويمكن أن نعزو عوامل ارتقاء الفنون الإسلامية في فلسطين إلى عدة عوامل، منها توافر الخامات الأساسية للفنون، وأشهرها خامة الحجر–المادة الرئيسة للبناء والتشكيل– حيث اشتهرت فلسطين بأصناف متعددة من الأحجار تميزت بقابليتها للتشكيل الزخرفي، علاوة على ألوانها الجميلة من الأحمر والأسود والأبيض والأصفر، مما ساعد على ازدهار ظاهرة الأبلق في العمارة الفلسطينية. وعلاوة على توافر المواد الخام، فقد ساعدت التقاليد الفنية التي بدأت في فلسطين مبكرة منذ آلاف السنين على تقدم الفنون، وتعمقت وتطورت فنون البناء في عهد اليونان والرومان والبيزنطيين، وأدى اختلاط هذه التقاليد بالتيارات المحلية إلى تواصل في الحركة الفنية في فلسطين ورقّيها. وكان لوقوع فلسطين بين مصر والشام، قلب ومركز العالم الإسلامي، أثر واضح في ارتقاء فنونها، حيث تأثرت الحركة المعمارية والفنية في فلسطين بما تطور ووجد من اتجاهات فنية في القاهرة ودمشق وحلب، ونرى هذا التأثير جليا خلال العهدين الأيوبي والمملوكي.

أنماط العمارة عبر العصور

ساهمت مكانة فلسطين الدينية في تطور الفنون وارتقائها فيها، فلكوْن فلسطين مهداً للديانات السماوية الثلاث، ونظرا لاحتوائها على مجموعة من قبور العديد من الأنبياء والصالحين ومقاماتهم، ولما فيها من مدن مقدسة كالقدس والخليل، فقد شدت هذه المواقع الرعيّة المؤمنة إلى الزيارة والإقامة، الأمر الذي فرض على الحكام والأمراء دعم هذه المواقع بالبناء عليها، وفي إيقاف الأوقاف على مصالحها لفعل الخير أولا، وحتى تتحسن صورة هؤلاء الحكام بأعين مواطنيهم ثانياً.

وقد تميزت العمارة الإسلامية في مدن



تشخيص حيواني لإناء من قصر خربة المفجر الاموي في اريحا، متحف روكفلر في القدس (٧١٤-٤٩٢٥) (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان، بواسطة سلطة الآثار الاسرائيلية).

فلسطين الكبرى بالتفاوت فيما بينها، من حيث تمثيلها للطرز المعمارية الإسلامية التي سادت في فلسطين، ومن حيث ثراؤها المعماري والزخرفي. ففي القدس، مركز العمارة الإسلامية الأول في فلسطين، نجد أهم وأعظم هذه العمائر وأكثرها شمولية، والتي تظهر تطور العمارة الاسلامية خاصة الطراز الأموي. وفي الخليل نجد أن هذه الطرز أقل تمثيلا من القدس، لكنها أكثر من غزة التي تركز فيها الطراز المملوكي بشكل واضح، كون غزة كانت مقراً لإحدى النيابات المملوكية في الشام. أما مدينة نابلس، فنجد أن الطراز العثماني المحلي يغلب على عمارتها، خاصة في قصور عائلاتها المتنفذة، وهذه الظاهرة تنعدم في عمارة القدس. وقد انتشرت العمارة المحلية في العصر العثماني في القرى الفلسطينية الواقعة بين المدن الرئيسة، وهذه القرى كانت مراكز للحكم أطلق عليها اصطلاحا اسم «قرى الكراسي»، كون زعماء عائلات هذه القرى حكموا المناطق المجاورة لهم من خلال هذه القرى، وغلب على عمارتها قصور تشبه القلاع الصغيرة التي كانت تتمتع باستقلال ذاتي، وتوزعت حولها البيوت والمرفقات الخاصة.

وتنوعت العمائر الإسلامية التي أسست في فلسطين تنوعا كبيرا، فشملت مناحي مختلفة من الحياة، فمنها:

1) عمائر دينية: كدور الخطابة وتحفيظ القرآن، والمساجد، والجوامع، والمدارس، والزوايا الصوفية، والمشاهد، ومقامات الأنبياء والأولياء.

2) عمائر اجتماعية: كالتكايا، والأسبلة، والأربطة، والقصور، والبيوت، والحمامات العامة.

3) عمائر اقتصادية: كالأسواق، والخانات، والحوانيت، والمعاصر، والمصابن.

4) عمائر عسكرية: كالأسوار، والأبراج، والقلاع، والحصون.

وقد توزعت هذه العمائر في داخل المدن وخارجها وعلى الطرق العامة الخارجية التي تصل بين المدن والقرى.

ويعود الفضل في تعدد الأنماط الفنية والمعمارية التي سادت فلسطين إلى الأسَر الحاكمة المختلفة التي طورتها وشجعتها، ومنحت اسمها لهذه المدرسة أو ذاك الطراز، ومثال ذلك « النمط المملوكي في العمارة».

هذا، ويمكن تقسيم عصور العمارة الإسلامية التي ازدهرت في فلسطين إلى العهود الأربعة التالية:



طائر الحجل بالجص، تفاصيل زخرفية لنافذة، قصر خربة المفجر الأموي في أريحا، متحف روكفلر في القدس (٤٩٢٥-٧١٤) (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان، بواسطة سلطة الآثار الاسرائيلية).



قبة الصخرة، منظر عام، الحرم الشريف، القدس.

1) العهد الإسلامي المبكر(15-492هـ / 637 - 1099م): ويمتد هذا العهد من الفتح الإسلامي لفلسطين وحتى سقوطها بأيدي الصليبيين. ويشمل فترة الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والخلافة العباسية والخلافة الفاطمية. وبالرغم من أن ما وصلنا من عمائر هذا العهد يعدّ قليلا من حيث العدد، إلا أنه يعدّ هاماً جداً من الناحية الفنية. وتعود قلة عمائره إلى بعد الشقة الزمنية، وإلى ما مر على البلاد من حروب وكوارث، ويعتبر هذا العهد فترة انتقالية من العصر البيزنطي إلى الحكم العربي في فلسطين. وتنسب إلى هذا العهد مجموعة من المساجد، في العديد من المدن والقرى، أطلق عليها اسم «المساجد العمرية»، نسبة إلى الخليفة عمر بن الخطاب فاتح فلسطين. ولم يبق من هذه المساجد إلا اسمها، نظرا لإعادة بنائها وتجديدها على مر العصور. ولفظة «عمري» هنا لا تعني بالضرورة أن الخليفة عمر هو الذي أسسها، بل على الأغلب أنها قديمة جدا، قد تعود في تاريخها إلى عهد عمر رضي الله عنه. وأشهر ما بقي من عمائر هذا العهد هو العمارة الأموية، والتي تركز أغلبها في الحرم الشريف، حيث قام عبد الملك بترميم الأسوار وبنى الأبواب كبابي الرحمة والتوبة، وباب الأسباط، وباب العتم، وكذلك الباب المزدوج والباب الثلاثي في الحائط الجنوبي، كما أسس قبة الصخرة، وقبة السلسلة ومجموعة أخرى من القباب كقبة النبي وقبة المحشر، وشرع في بناء المسجد الأقصى المغطى وغيرها من المشاريع. وقام الوليد بإكمال المسجد الأقصى وبنى دار الإمارة (القصور الأموية جنوبي الحرم). ومن المشاريع الأموية الأخرى التي أقيمت في فلسطين قصر هشام بأريحا وخربة المنية قرب طبرية، وإنشاء دار للصناعة في عكا، وتأسيس مدينة الرملة، وإقامة حجارة الأميال على الطرق، وتسهيلها. وقد تركزت الأعمال العمرانية، بعد الفترة الأموية، على الترميم والصيانة، خاصة عمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة ومنطقة الحرم الشريف، وعلى بعض المشاريع الحيوية كبناء صهريج الرملة، وتوسيع وإنشاء ميناء محمي من الأمواج في عكا، والتوسع في بناء المساجد.

2) العهد الأيوبي (583-648 / 1187-1250): شهد هذا العهد نشاطا معماريا زاخرا خاصة في بناء القلاع والحصون والأسوار، ووقع على عاتق الأيوبيين إعادة الإسلام لمدن فلسطين وصبغها بالصبغة العربية، خاصة مدينة القدس والخليل ونابلس، بعد تحريرها من احتلال الصليبيين. حيث أعيد تأهيل العديد من المساجد التي تم

تحويلها إلى كنائس في فترة الصليبيين، مثل قبة الصخرة والمسجد الأقصى، ومجموعة من مساجد غزة، وسبسطية وغيرها من الأماكن. وتداخلت الأساليب المعمارية التي مارسها الصليبيون في البلاد مع الأساليب المعمارية الأيوبية نتيجة إعادة الاستخدام للعناصر الفنية والمعمارية، ولاتباع أساليب بنائية متشابهة، حيث أصبح الفصل متعذراً بين ما هو أيوبي وما هو صليبي في كثير من مباني القدس وفي قلاع فلسطين. وشهدت هذه الفترة إنشاء مجموعة من المدارس وتأسيسها، وزوايا الصوفية، ودور القرآن، ومنشآت المياه والأسبلة، قام برعايتها السلطان صلاح الدين وخلفاؤه كالمعظم عيسى والصالح نجم الدين أيوب. ونالت مشاريع الترميم وإعادة تأهيل الحرم الشريف والحرم الإبراهيمي رعاية هذه الأسرة، وتم الاستفادة من المباني التي هجرها الصليبيون وذلك بإعادة تأهيلها واستخدامها من جديد بما يتناسب والظروف المستجدة.

3) العهد المملوكي (648 - 922هـ / 1250- 1517م): ويعدّ العهد الذهبي لعمارة فلسطين الإسلامية، توسع فيه بناء المساجد والمدارس والزوايا الصوفية والمقامات والجسور والمرافق الاقتصادية كالخانات والأسواق في أغلب المدن الفلسطينية. وأسست مجموعة من الخانات بين المدن في فلسطين مثل خان يونس قرب غزة، وخان اللبن على طريق نابلس، وخان الظاهر في القدس، وخان أسدود، وخان جب يوسف، وخان جلجولية، وغيرها من المرافق التي ساعدت على السفر والاتصال والتنقل. وتركزت هذه العمائر في مدينة القدس وغزة والخليل وصفد، ودعمت بأوقاف سخية لتكفل العناية بها ولتأمين مصاريفها الجارية.

4) العهد العثماني (922- 1336هـ / 1517 - 1917م): تنوعت في هذا العهد طرز العمارة، ففي القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، تركزت العمارة العثمانية في مدينة القدس، حيث أعاد العثمانيون للقدس مجدها السابق الذي حظيت به في الفترة الأموية وأوائل الفترة المملوكية، وذلك بفضل العديد من المشاريع، مثل بناء سور القدس الذي لا يزال شامخا حتى اليوم، ومشروع المياه والأسبلة، وترميمات قبة الصخرة والحرم الشريف، ومشروع خاصكي سلطان، وغيرها من المشاريع المعمارية. ومن المدن التي اهتم بها في العصر العثماني كانت مدينة غزة، فقد كانت مركزا لصنجق، وفيها أقامت أسرة آل رضوان، هذه الأسرة



باب الأسباط، ويقع في الحائط الشرقي، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي).

المحلية التي حكمت في فلسطين وتولت إدارة قافلة الحج الشامي. وفي عهد ظاهر العمر في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، امتد العمران العثماني إلى مدن كانت مغمورة في العصر المملوكي، مثل مدينة طبرية، وذلك ببناء المساجد فيها وإحاطتها بالأسوار وربطها بشبكة من الطرقات مع المدن الفلسطينية الأخرى. وامتد نشاط ظاهر العمر العمراني أيضا إلى المدن المجاورة مثل شفا عمرو، وعكا، وحيفا. وفي أوائل القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي قام أحمد باشا الجزار بالعناية بمدينة عكا، فأعاد تحصينها بالأسوار، تلك الأسوار التي صدت نابليون، ولا تزال قائمة في المدينة. وأسس الجزار مسجده «الجزار» في وسط المدينة وهو تحفة معمارية بنيت على الطراز العثماني، علاوة على مجموعة من المساجد الأخرى والأسواق والحمامات والخانات. ونالت مدن أخرى مثل يافا وحيفا نصيبها من التطوير العثماني، وإن كان بدرجة أقل من مدينتي الخليل ونابلس. والواقع أن النشاط المعماري العثماني في أغلب مدن فلسطين ارتبط بجهود أسر محلية متنفذة تولت الحكم والإدارة في فلسطين برعاية الدولة العثمانية في البداية، ثم تمتعت باستقلال ذاتي، وحينما حاولت الاستقلال الفعلي قضي على الأسرة أو على مؤسسها، لكن بقي تراثه المعماري.

وشهدت العقود الأخيرة من الدولة العثمانية ظاهرة التوقف عن البناء بالطريقة التقليدية، والتي تعتمد على العقود، والأعمدة، والأسقف، المتقاطعة أو البرميلية، واستخدام المواد القديمة التقليدية مثل الشيد والقصرمل، فأصبحت الأسقف مستقيمة تستند على قضبان حديدية سميكة. وتنوعت في هذه الفترة (1259- 1336هـ / 1840- 1917م) الطرز، وذلك تبعا للتاثيرات المختلفة خاصة الأوروبية منها، التي اهتمت بفلسطين في القرن التاسع عشر وأصبح لها مصالح تدافع عنها. وبالرغم من أن الطرق التقليدية بالبناء بقيت موجودة إلى جانب الطرق الحديثة، إلا أن مادة الحجر بقيت هي مادة البناء الأساسية في فلسطين.

وإذا ما أردنا البحث في الخصائص الفنية والأساليب المعمارية لكل فترة، فإنه سيكون من الصعب إفراد خصائص هذه الفترة أو ذاك الطراز بشكل حاسم وواضح عن بقية مميزات المدارس الأخرى وعناصرها. ويعود هذا إلى أن هذه العمارة والفنون الفرعية الإسلامية بشكل عام قد استقت رؤيتها الفنية من معين واحد. والمؤكد أن سقوط أو تغيير النظام السياسي لمجتمع يعيش ضمن حضارة شاملة، لم يستلزم بالضرورة تغيير أو نبذ الطرز والأساليب المعمارية التي طبقت واستخدمت في هذا المجتمع، بل إن المنطق والواقع يُظهران أن استمرار هذه الأساليب وتواصلها، وتطورها عبر مراحل زمنية هي استجابة طبيعية لحاجات المجتمع وميوله الفنية. لكن اعتمادا على مبدأ الوحدة والتنوع الذي وحد مدارس الفن الإسلامي، وعلى عوامل أخرى، فإنه يمكن -رغم وجود بعض

الصعوبة في البحث- ذكر بعض المميزات التي تنفرد بها الفترات المذكورة أعلاه بعضها عن بعض، مع الإدراك دوما، أن مضمون بعض هذه الصفات قد نجده في أكثر من فترة زمنية لكن بأسلوب وشكل مغايرين.

وفيما يتعلق بالمميزات العامة للعمارة الإسلامية في فلسطين، فإن خصائصها وصفاتها لا تخرج عما هو موجود في مصر والشام فيما يتعلق بالعمارة والفنون في العهد الأموي والفاطمي والأيوبي والمملوكي، لأن فلسطين في هذه العصور جمعتها مع مصر والشام وحدة إدارية وسياسية، فضلا عن الامتداد والتواصل الجغرافي الذي كفلته فلسطين لكل من الشام ومصر اللتين تبادلتا مركز الحكم خلال هذه الفترات. لذا فإن خصائص الفن والعمارة في فلسطين تتماثل وتتشابه مع العناصر المعمارية المنتشرة في كل من مصر والشام في المراحل نفسها. هذه الصفات نجد صداها في العمارة الأموية، من خلال التركيز على الفراغات والساحات الداخلية، والاهتمام بالواجهات الحجرية، والأبراج الدائرية، والنصف دائرية، والجدران السميكة، واستخدام العقود النصف دائرية والأعمدة الرخامية وتيجانها المعاد استخدامها، والتركيز على الخطوط الكوفية بأنواعها المتعددة، وعلى استخدام الزخارف الجصية والفسيفسائية في الجدران والأرضيات، والإكثار من الزخارف النباتية والهندسية، والبعد عن الزخارف الآدمية والحيوانية في المباني الدينية.

وفيما يتعلق بالعمارة الأيوبية فقد انعدمت فيها زخارف الفسيفساء والزخارف الجصية، واستعيض عن الكتابة الكوفية بالكتابة النسخية الأيوبية المميزة، واستمر البناء بمادة الحجر، وركز المعماري على وضع حلول لقضايا هندسية، مثل منطقة انتقال القبة من مربع لدائرة عبر وجود مثمن يستند على مثلثات كروية أو حنايا ركنية.

وظهر في العمارة المملوكية التركيز على الواجهات وتجميلها بالمقرنصات والمكاسل (المساطب) الجانبية، والتنوع في لون الحجارة، وصفوف المداميك (الأبلق)، مع وجود أشرطة طويلة من الكتابات المملوكية الزخرفية الحاوية للألقاب بالخط الثلثي والنسخي، ونقش الشعارات المملوكية المختلفة، مع التركيز على طواقي المدخل، والتوسع في استخدام الزخارف النباتية والهندسية في الواجهات، وزخارف الرقش العربي (الأرابسك) على صنج العقود، وتعشيق هذه الصنج في الواجهات، مع وجود الأطباق النجمية الهندسية المتعددة الرؤوس والزوايا، بالإضافة إلى الزخارف الميمية، والزخارف القالبية، والشرفات المسننة. واستخدام الأقبية المتقاطعة والمروحية ودعمها بالعقود المتنوعة الأشكال والفتحات، والتي تحمل على دعائم وأعمدة وجدران، والكوابل الحجرية كدعائم ومساند مزخرفة بنقوش تجريدية جميلة. هذا بالإضافة إلى عناصر التخطيط المشتركة والمميزة للمباني المملوكية، كالمدرسة والرباط والتربة. وعلاوة

على ما تقدم، فإن وظائف وأنواع العمائر في فلسطين ومصر والشام متشابهة، حيث يوجد في فلسطين تمثيل شامل وواضح للعمائر المدنية والدينية والعسكرية. ويتوج هذه الصفات جميعا اعتماد نظام الوقف لإدارة المباني والمؤسسات الخيرية.

وبقدوم العثمانيين لم تتوقف التقاليد المملوكية والمحلية في العمارة، بل استمرت وظهرت مدرسة محلية وضحت معالمها في القدس في نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. لكن بدأت تدريجيا ملامح مدرسة العمارة العثمانية العامة تظهر في عمائر القدس وفلسطين. نجد هذا في شكل المآذن الذي أصبح إسطوانيا بدل البدن المربع المملوكي، وفي ظهور الخط العثماني النسخي وخط النستعليق على العمائر، وفي تكسية بعض الواجهات أو جوانب منها بالبلاطات الخزفية خاصة في منطقة المحراب. وبدأت تظهر في عمائر فلسطين عناصر زخرفية وعناصر تخطيطية لم نعهدها في العمائر السابقة، كاستخدام الرصائع الحجرية الدائرية ذات التشكيل الهندسي والنباتي على واجهات المباني، وانتشار القباب الضحلة بدلا من القباب المملوكية المرتفعة، وبوجود الرواق المتقدم القائم على عقود وأعمدة أمام واجهة المبنى الرئيسة أحيانا. ولم يقتصر الأمر على هذه العناصر، بل تعداها ليشمل مباني أو طرزا جديدة، وذلك مثل أسبلة السلطان سليمان القانوني الحائطية والخلوات (الحجرات) التي أسست على مستوى صحن قبة الصخرة المشرفة.

ومع وجود هذه الصفات العامة للعمائر الإسلامية في فلسطين، فإنه يمكن رصد بعض الخصائص التي تتميز فيها عمارة فلسطين بشكل أوضح عن كل من مصر والشام. وأول هذه الخصائص هو كون أغلب مباني العمارة في فلسطين أصغر حجما وأقل زخرفة من عمائر القاهرة أو حلب أو غيرهما من المدن المصرية أو الشامية (باستثناء الفترة الأموية)، وأن قسما من هذه العمائر قد لا تتمثل فيه إطلاقا خصائص العمارة الإسلامية المعاصرة والتي يمكن ان نجدها في مدن أخرى. والواقع أن كون فلسطين إقليماً صغير المساحة وقع بين حضارات ودول أكبر منه حجما وتأثيرا في المجريات التاريخية، قد لعب دورا في المحافظة على طابعها المحلي من ناحية، وفي خضوعها ووقوعها تحت تأثيرات فنية وفدت إليها من الدول المجاورة لها، من ناحية أخرى، وهذا يوضح وجود عناصر معمارية وزخرفية في عمارة فلسطين لها أصول وعمق في عمارة القاهرة ودمشق وحلب.

وهناك ظاهرة أخرى تلاحظ في العمارة الإسلامية في فلسطين، تتمثل في ازدهار إعادة الاستخدام للعناصر والمواد البنائية وممارستها، والزخارف الفنية، وتظهر هذه الظاهرة بوضوح في إعادة استخدام الأحجار وحشوات الرخام، والأعمدة وتيجانها، ووصل الأمر أحيانا إلى إعادة تأهيل الموقع واستخدامه ثانية.

وساهمت مكانة فلسطين الدينية في العقيدة الإسلامية والتأثير الحضاري لمدنها المقدسة، كالقدس والخليل في صبغ العمارة في فلسطين بصبغة خاصة. فالملاحظ أن عمارة القدس والخليل تختلف عن عمارة القاهرة ودمشق وحلب من جهة، وعن عمارة نابلس وغزة من جهة أخرى. فوجود الحرم القدسي الشريف في القدس والحرم الإبراهيمي في الخليل قد أثرا على تطور عمارة هاتين المدينتين. فقد استقطب كلا الموقعين العمائر والمؤسسات الدينية والخيرية، وهذا أدى إلى اكتظاظ العمارة في بقعة محددة من المدينة، وأدى - خاصة في مدينة القدس- إلى التضحية بأصول التخطيط المعماري للمدرسة المملوكية، رغبة في الحصول على موقع متقدم وقريب من الحرم الشريف، واضطر المعماري أن يكيف المبنى بما يتاح له من مساحة محدودة. ونتج عن هذا مبانٍ من عدة طوابق أو ملحقات، وقلما نجد عمارة لها أربع واجهات كما هو الحال في القاهرة وغيرها من المدن المصرية والشامية. وجذبت القدس، بما لها من مكانة دينية وصفات مناخية معتدلة، مجموعة من الأمراء المماليك المنفيين الذين حبذوا الإقامة فيها وفضّلوها على غيرها من المدن، مما ساهم في مدها بمشاريع عمرانية أميرية غلب عليها طابع التصوف والتدين، وفي تنشيط حركة الزيارة والتبرك فيها، مما أدى إلى تزويد المدينة بالأربطة والخانات. وختاما فإن العمارة الإسلامية في فلسطين ما هي إلا صدى للخصائص المعمارية التي تميزت بها المدارس المعمارية في مصر والشام، وللتقاليد المعمارية التي سادت في فلسطين قبيل العصر الإسلامي.

سلطانية من السراميك من قصر خربة المفجر الأموي في أريحا، متحف روكفلر في القدس (٤٧-٤٩٢٠) (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان، بواسطة سلطة الآثار الاسرائيلية).



الفنون التطبيقية

وهي الفنون المنقولة أو الفرعية أو ما يطلق عليها أحيانا الفنون التطبيقية أو غيرها من الأسماء، والتي يقصد بها صناعة التحف المعدنية والخشبية والخزفية والزجاجية، وتزويق المصاحف والمخطوطات وزخرفتها والفسيفساء، والكتابات الأثرية، وقد ازدهرت في فلسطين وكانت صدى لاهتمام الأسر

مصابيح زيت من السراميك من قصر خربة المفجر الأموي في أريحا، متحف روكفلر في القدس (٤٠-١٤٠٢، ٣٩-٤٠٢) (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان، بواسطة سلطة الآثار الاسرائيلية).





خربة المفجر، تفاصيل أرضية من السيراميك قرب حمامات القصر، أريحا (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان).

الحاكمة وانعكاسا صادقا لمكانة فلسطين، وللتيارات الفنية التي سادت فيها وفي ما يجاورها من بلدان كالشام ومصر وتركيا. ففي فلسطين مبنى قبة الصخرة، الذي يعتبر أول شاهد على تكامل حركة الفنون الإسلامية منذ العصر الأموي، وكان لها أثر كبير على تطور الفنون الإسلامية عامة ومنهاجها .

صناعة الفسيفساء

لا نجد خارج فلسطين ما ينافس مدرسة الفسيفساء الأموية الزاهرة، فقبة الصخرة والمسجد الأقصى وقصر هشام في أريحا، يضمان أكبر مجموعة من الفسيفساء الأموية. والمسجد الأموي الكبير بدمشق وبعض مساجد سوريا الأموية وقصور بادية الأردن تكمل هذه الصورة. والواقع يظهر أن تقاليد هذه المدرسة استمرت في فلسطين حتى العصر الفاطمي على الأقل. وتوحي هذه الفسيفساء بالصفاء الروحي المثالي، الذي يعكس الأسلوب العربي الشامي الذي استفاد بدوره من الأسلوب البيزنطي. ورغم هذه الاستفادة، فإن مدرسة فسيفساء فلسطين والشام اتّسمت باتجاه فني مغاير، عن مدرسة الفسيفساء البيزنطية، بحيث ركز على العناصر النباتية والهندسية كأشجار النخيل وأوراق الأكانتوس وأوراق العنب والأغصان واللولبيات، وكيزان الصنوبر وغيرها من العناصر النباتية. وصاحب هذه العناصر النباتية تشكيلات هندسية من الدوائر والمربعات والمثلثات والنجوم المتعددة الرؤوس، علاوة على الخطوط المستقيمة والمائلة والمتموجة، وشريط من الكتابات الكوفية غير المنقوطة، إضافة إلى الأزهار والتيجان والحبيبات، واعتماد التماثل والتقابل في توزيع العناصر الفنية. وتميزت هذه المدرسة باستخدام اللون الأخضر الداكن كخلفية للعناصر الزخرفية، وباستخدام اللون الذهبي لإيجاد التوازن والتباين بين الألوان والعناصر الزخرفية. ولقد جذبت هذه الفسيفساء العديد من الدراسات والتفسيرات، فالبعض وجد في هذه العناصر تصويرا للجنة كما وردت في القرآن

الكريم، والبعض رأى فيها عناصر زخرفية مجردة، وفريق آخر ألبسها تفسيرات ذات دلالات سياسية.

فن النحت على الخشب

ارتقت صناعة النحت على الخشب في فلسطين خلال العصر الأموي، واستمرت حتى الفترة العثمانية. وما يحويه المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمتحف الإسلامي في الحرم الشريف والمتحف الفلسطيني (روكفلر) من قطع خشبية فنية، يدل على مكانة هذه الصناعة وأهميتها من ناحية وظيفية وزخرفية. فالخشب كان -ولا يزال- يشكل إحدى مواد البناء الأساسية، وبرزت أهميته قديما في دعم الأسقف، وفي عمل الأبواب والشبابيك والمشربيات التي توجد على النوافذ والشرفات، التي شكلت إحدى ملامح المدينة والعمارة الإسلامية. وللدلالة على أهمية الخشب يكفي أن نذكر أن أقدم هيكل خشبي في العالم لا زال قائما هو القبة الداخلية لمبنى قبة الصخرة، التي تعود في تاريخها للعصر الفاطمي. والجدير بالذكر أن قبة الصخرة كانت قبتين، خارجية وداخلية يفصل بينهما فراغ بحوالي متر ونصف المتر، وكلتاهما كانت من مادة الخشب، لكن القبة الخشبية الخارجية أزيلت أثناء ترميمات سنة 1960. كما ان السياج الحالي الذي يحمي الصخرة ويحيط بها هو من الخشب أيضا ويعود للعهد الأيوبي، وكثير من أبواب المسجد الأقصى وقبة الصخرة وأبواب الحرم هي من الخشب،



قبة الصخرة، قاعدة القبة وتفاصيل الزخارف: نقش باللغة العربية لفقرة من القرآن الكريم، الحرم الشريف، القدس (حقوق الطبع A.F. كيرستنج).

وقد صنعت في العهد المملوكي أو العثماني، ويمكن مشاهدة نماذج مملوكية رائعة منها في المتحف الإسلامي في الحرم الشريف. ويوجد على كثير من الدعامات الخشبية كتابات أثرية ترجع إلى العهد المملوكي، لكن أجمل هذه التحف هي اللوحات الخشبية المحفورة حفرا بارزا، والتي كانت مثبتة في الطرفين السفليين من كل دعامة من دعائم المسجد الأقصى، وذلك بواسطة مسامير كبيرة وهي من خشب السرو. وقوام زخارف هذه الحشوات الأموية عبارة عن محراب يشغل قسمه العلوي محارة مشعة أضلاعها محاطة بعقد شكله يشبه عقد حذوة الفرس، ويستند عقد المحراب على عمودين زخرفا إما بحزوز مستقيمة أو ملتوية أو مائلة، أو بأوراق من الغار أو الأكانتوس أو بعض الثمار النباتية الأخرى كأوراق النخيل والعنب والرمان، علاوة على بعض السلال والمزهريات. ويبدو أن هذه العناصر قد تأثرت بقواعد الزخرفة في فنون الخشب الهيلينية حيث تم تحويرها في العهد الأموي.

فن الكتابة والنقش

ومن الفنون الإسلامية التي اشتهرت في فلسطين، فن الكتابة والنقش على الأحجار والرخام والخشب والمعادن. فلا تخلو أي مدينة فلسطينية صغرت أم كبرت من مجموعة قيمة من هذه الكتابات التي تعكس العهود والفترات التاريخية والمعمارية المختلفة. ويوجد أهم هذه الكتابات في مدينتي القدس والخليل، مما جعل عالم الكتابات السويسري المشهور «ماكس فان برشام» يخصص ستة مجلدات كبار لدراسة جزء من هذه النقوش الخاصة بالقدس، حيث حققها ونشرها قبل حوالي قرن من الزمان. وعلاوة على قيمتها الفنية والجمالية وعلى ما فيها من معلومات عن تطور الخط والكتابة العربية في فلسطين وفي العالم الإسلامي بشكل عام، فإن هذه الكتابات تتضمن معلومات تاريخية قيمة عن المباني والتحف التي كتبت عليها. وهذه الكتابات، خاصة تلك التي في قبة الصخرة، ذات أهمية كبرى، نظرا لأنها من النماذج المبكرة للخطوط والكتابات الإسلامية. وتنوعت الخطوط لهذه اللوحات الكتابية تنوعا كبيرا، فشملت الخط الكوفي بأنواعه المتعددة، والخط النسخي، وخط الثلث، وخط النستعليق، والخط الديواني وغيرها من الخطوط المشهورة. وتنوعت أيضا أساليب الكتابة على هذه اللوحات، فهي إما أدبية نثرية، أو شعرية تتضمن عبارات دعائية وأسماء الحكام ومعلومات عن العمل الفني وموضوعه. وسواء كان الأسلوب نثريا أو شعريا، فقد كانت الكتابة الكوفية في البداية غير منقوطة وغير معجمة، ثم مع تقدم الزمن تم الإعجام والشكل، بل صاحبها بعض العناصر الزخرفية الكتابية. وكانت الكتابة أحيانا غائرة وأحيانا أخرى بارزة. وبالرغم من أن معظم هذه الكتابات قد تم دراستها، لكن لا يخلو الأمر أحيانا من اكتشافات حديثة تلقي مزيدا من المعلومات التاريخية على جوانب من تاريخ فلسطين المعماري والفني.

وبالإضافة إلى الكتابات على الأحجار والرخام، فقد تم التداول في فلسطين بمجموعة من المصاحف القيمة، التي كتبت إما على ورق أو على رق غزال. ونظرا لما للمصحف من مكانة وقيمة واحترام؛ فقد وقف على إخراج المصحف مجموعة من الفنانين المسلمين المخلصين. فبداية كان يتم قص الورق حسب الحجم المطلوب، وكان هذا الحجم إما بضعة سنتميرات أو أكثر من متر (كمصحف برسباي في المتحف الإسلامي الذي بلغت أبعاده حوالي 110 سم × 190 سم، والذي أوقفه على المسجد الأقصى المبارك في سنة 836 هـ). وبعد قص الورق يبدأ عمل الخطاط، وبعد الخطاط يقوم المراجع بالتدقيق والتأكد من صحة كل حرف وكلمة ووقف وحركة، ثم بعدها يبدأ عمل المزخرف، الذي يركز عمله على فواصل الآيات وبدايات السور والأجزاء. وأهم ما في الأمر هو فاتحة القرآن، ففيها يظهر الفنان كامل مقدرته وموهبته من الزخارف

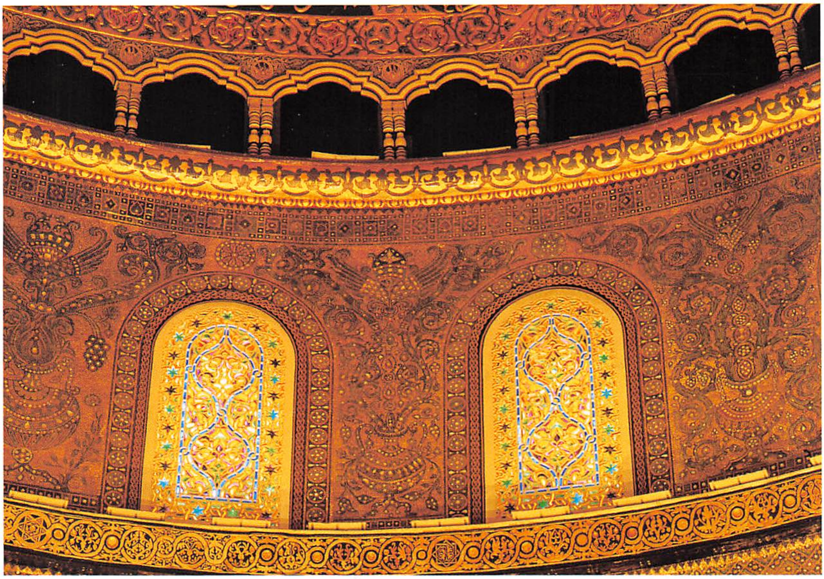
النباتية والهندسية. وبعد المزخرف يبدأ دور المذهب، الذي يزين بماء الذهب أقساما محددة من القرآن الكريم. وأخيرا يأتي دور المجلد الذي يحرص على حفظ المصحف بين دفتي جلد قوي وجميل ومزخرف. واستخدم لكتابة المصحف أفضل أنواع الحبر، وكان لونه أسود، وأحيانا استخدم الحبر الأحمر والأبيض لبعض العلامات أو الكلمات. وكتبت المصاحف بأنواع متعددة من الخطوط كالخط الكوفي والنسخي والتعليق والنستعليق، والخط المغربي الأندلسي، والخط الفارسي وخط الثلث وخط الرقعة وغيرها من الخطوط. وكانت هذه المصاحف إلى فترة قريبة موقوفة على المساجد والمؤسسات الصوفية والخيرية وفي دور العلماء. لكن مع انتشار الطباعة أصبحت المتاحف المكان الأمثل لهذه التحف الفنية الدينية. ويوجد في المتحف الإسلامي مجموعة قيمة من المصاحف، بعضها عليه ترجمة باللغة الفارسية مصاحبة للنص العربي. وأغلب هذه المصاحف قام برعاية فنانيها الحكام والسلاطين، وأوقفوا إنتاج هؤلاء الفنانين على المساجد والمدارس. وكانت بعض صفحات هذه المصاحف تحوي معلومات تاريخية قيمة عن ناسخ المصحف ومن يملكه ومن قرأ فيه ومتى، وبعض العبارات الدعائية الأخرى كأن يغفر الله لمن قرأ فيه.

صناعة الخزف (القاشاني)

ومن الصناعات الفنية التي اشتهرت بفلسطين، صناعة البلاطات الخزفية، والتي عرفت باسم «القاشاني» نسبة إلى قاشان، المدينة الإيرانية التي اختصت في البداية بهذه الصناعة. ثم ما لبثت هذه الصناعة أن انتقلت إلى أجزاء أخرى من العالم الإسلامي، خاصة إلى مدن في تركيا، مثل بورصة وازنيك وكوتاهية. ووفد من هذه المدن إلى القدس، خلال العهد العثماني، مجموعة من الصناع المهرة، الذين قاموا بإرساء قواعد هذه الصناعة في فلسطين، خاصة لتلبية حاجات قبة الصخرة المشرفة. ويمكن مشاهدة صدى هذه الصناعة حاليا في أسواق القدس والخليل وأريحا كافة، مثل الصحون والأباريق والكؤوس وغيرها من المنتجات التي أصبحت علامة تجارية ناجحة لإنتاج فلسطين السياحي. وتطور الأمر في هذه الصناعة لتضم، بالإضافة إلى



قبة الصخرة، المدخل الرئيسي، الحرم الشريف (حقوق الطبع A.F. كيرستنج).



قبة الصخرة، القبة، تفاصيل الطارة، نوافذ مزخرفة بالجص مطعمة بالزجاج الملون، الحرم الشريف، القدس.

الموضوعات الزخرفية الإسلامية القديمة، موضوعات من صلب العقيدة المسيحية كمعجزة الطابغة في إطعام الفقراء والحشود، وصوراً لكنيسة المهد وغيرها من المواقع. ودخلت هذه الصناعة إلى فلسطين في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي على يد السلطان العثماني سليمان القانوني، الذي قام بمشروع كبير لترميم قبة الصخرة المشرفة. فيبدو أن حالة الفسيفساء الخارجية قد تضررت كثيرا، فأمر حينها السلطان سليمان باستبدال الفسيفساء بطبقة جميلة من بلاطات القاشاني. ولم يقتصر هذا على قبة الصخرة، بل امتد إلى تغشية المحاريب في المساجد ووضعت البلاطات على مداخل العمائر. واعتمادا على ما يتوافر في معرض ومخزن المتحف الإسلامي في الحرم الشريف وفي قبة الصخرة فإن ما يوجد من بلاط يعود إلى سبعة عهود زمنية أقدمها يعود إلى نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الهجري / نهاية القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر الميلادي، وأحدثها يعود إلى عام 1964. وتنوعت زخارف هذه البلاطات وألوانها، فمنها الأزرق الغامق والتركوازي والأصفر والأخضر والأسود والأحمر والأبيض، وكانت الزخارف هندسية ونباتية وكتابية. ومن أشهر الزخارف الكتابية ما يوجد في أعلى المثمن الخارجي للقبة، حيث كتبت سورة «يس» بخط السيد محمد شفيق في عام1292هـ / 1874م.

بناء النوافذ / الزخارف الجصية

ومن الفنون التي اشتهرت في فلسطين،

خاصة في مدينة القدس، فن الشبابيك الجصية. وقد استخدمت الزخارف الجصية في الفن الإسلامي في فترة مبكرة، وأشهر هذه الأساليب ما سمي بطراز سامراء العباسي، لكن يفترض أن هذه الصناعة قد دخلت إلى القدس في الفترة الأموية حين بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من العمائر الكبيرة. فقد كان لنسق الشبابيك دور مهم في تخطيط المباني الإسلامية، وقد استخدمت للاستفادة من الإضاءة الطبيعية ولإدخال الهواء للمباني، وكانت أشكالها مستطيلة ومربعة ودائرية، وإذا كان مستوى الشباك قريبا من مستوى الطريق أو الشارع، فقد غطي بمصبعات معدنية جميلة الصناعة والتكوين لتوفر الحماية، أما إذا كان مستوى الشباك عاليا ومرتفعا فقد غطي بطبقة من الزخارف الجصية الجميلة. واستمرت هذه الصناعة في القدس حتى المرحلة المملوكية، ولا زالت هذه الحرفة الفنية الراقية تمارس وبإتقان في ورشة إعمار المسجد الأقصى المبارك. والواقع أن تكوين هذه الشبابيك في منتهى الجمال والإتقان، خاصة إذا ما نظر إليها حينما تخترقها أشعة الشمس، حيث تتلون حزم هذه الأشعة بألوان قطع الزجاج الصغيرة التي تشكل خلفية لهذه الزخارف. وأروع هذه الأمثلة توجد في رقبة قبة الصخرة وفي القسم العلوي من الجدار الجنوبي للمسجد الأقصى، وفي أنحاء مختلفة منه وفي المتحف الإسلامي، وفي عمائر متناثرة في أماكن أخرى من فلسطين.

وتحتاج هذه الصناعة إلى صبر وموهبة وإلى مهارات متعددة وعدة مراحل. وتبدأ أولى خطوات المرحلة الأولى بتحديد حجم الشباك المطلوب، ثم بعمل قالب خشبي متين، وبعدها يتم خلط مادة الجبص وصبها في القالب، وعادة ما يكون هذا القالب دائريا، أو مستطيلا ينتهي بعقد نصف دائري، ويوضع هذا القالب على الأرض حينما تصب خلطة الجبص لكي تتماسك وتقوى.
وتستهل المرحلة الثانية برسم التكوين الزخرفي المنوي تنفيذه على الشباك، وعادة ما تكون هذه الزخارف نباتية دقيقة مع بعض التشكيلات الهندسية، وغالبا ما يكون معها زخارف كتابية بخطوط جميلة متداخلة تحوي آيات قرآنية أو عبارات دعائية، ويسجل فيها أيضا تاريخ صناعة هذا الشباك أو ترميمه.
والمرحلة التالية هي أدق هذه المراحل، حيث يتم حفر الجص وتفريغه حسب التكوين المطلوب، ونظرا لأن الشباك سيكون مرتفعا لعدة أمتار، لذا فإن عملية الحفر يجب أن تكون مائلة حتى يمكن مشاهدة الزخارف، لأنه إذا كانت مستقيمة سيتعذر مشاهدتها، وكذلك يتعذر وصول الضوء إلى مركز المبنى.
وتستعمل في الحفر أدوات صغيرة وحساسة لأن أي خطأ أو إهمال يعني إعادة صب القالب من جديد. وبعد الانتهاء من عملية الحفر الدقيق، نصل للمرحلة الأخيرة وهي عملية تحشية قطع صغيرة من الزجاج الملون ووضعها خلف الزخارف الجصية لتشكل خلفية لهذه الزخارف، وتظهر مهارة الفنان

هنا حينما يعطي كل وحدة زخرفية لونا محددا من الزجاج، حيث يسهل على المشاهد أن يتتبع الوحدة الزخرفية بكل يسر وسهولة، رغم تداخل هذه الوحدات وتشابكها، بعضها مع بعض. وعادة ما يستغرق عمل الشباك من الحجم الكبير (140سم × 350 سم) ما بين 4-6 أشهر.

ضرب النقود

ومن المظاهر الفنية التي اشتهرت بها فلسطين، وكانت لها دلالات سياسية وحضارية واقتصادية، عملية ضرب النقود وتداولها. وقد بدأ هذا النشاط مبكرا في فلسطين في أوائل العصر الأموي، فنشط في هذه الفترة حوالي خمس عشرة دارا للضرب تركزت في القدس (ايلياء)، والرملة وطبرية، وبيسان، وصفورية، وعسقلان، وغزة، واللد، وغيرها من المدن. وساهمت هذه المراكز بتزويد السوق المحلية في فلسطين وسوريا بمجموعة كبيرة من طرز المسكوكات النحاسية والبرونزية. واستمر ضرب النقود في فلسطين في العصر العباسي، وظهرت القدس كدار ضرب في عصر المأمون (198-218هـ/ 813-833م). أما في العصر الطولوني، فقد ضربت في فلسطين الدنانير الذهبية، بينما في العصر الاخشيدي وفترة حكم القرامطة والفترة الفاطمية، ضربت الدراهم الفضية علاوة على الدنانير الذهبية. ونقشت على هذه النقود العبارات الدينية الممثلة للعقيدة الإسلامية، خاصة عبارات من القرآن الكريم إضافة إلى شهادة التوحيد «لا اله إلا الله وحده لا شريك له»، و «محمد رسول الله». وإضافة إلى العبارات الدينية والمذهبية التي كانت تنقش على المسكوكات في فلسطين، فقد كان يذكر اسم الحاكم الذي ضربت في عهده وسنة الضرب ودار الضرب. وكانت هذه المسكوكات على صغر حجمها تحوي معلومات تاريخية هامة، وكانت الكتابة عليها وطريقة صنعها تدل على مستوى متقدم من الحفر والنقش والتشكيل الفني، وكذلك على رقي الفنون الإسلامية في فلسطين. وتزخر المتاحف العالمية والمجموعات المحلية بالعديد من المسكوكات التي ضربت أو تم تداولها في فلسطين.

وإضافة إلى هذه الفنون، فقد وجدت في فلسطين مجموعة كبيرة من المخطوطات القيمة، ومجموعة من التحف المعدنية والزجاجية، وقطع رائعة من السجاد والنسيج، والأثواب المطرزة محليا، فضلا عن الفنون الشعبية المحلية مثل صناعة الزجاج الخليلي، والفخار الغزي، والصدف وخشب الزيتون، وسيلمح الزائر نماذج كثيرة وجميلة من هذه الفنون حينما يتجول في أسواق المدن الفلسطينية وحوانيتها، كالقدس وبيت لحم والخليل وغزة ونابلس، التي تشهد جميعها على غنى فلسطين المعماري والفني.



بيت المقدس والحرم الشريف : قبلة فلسطين

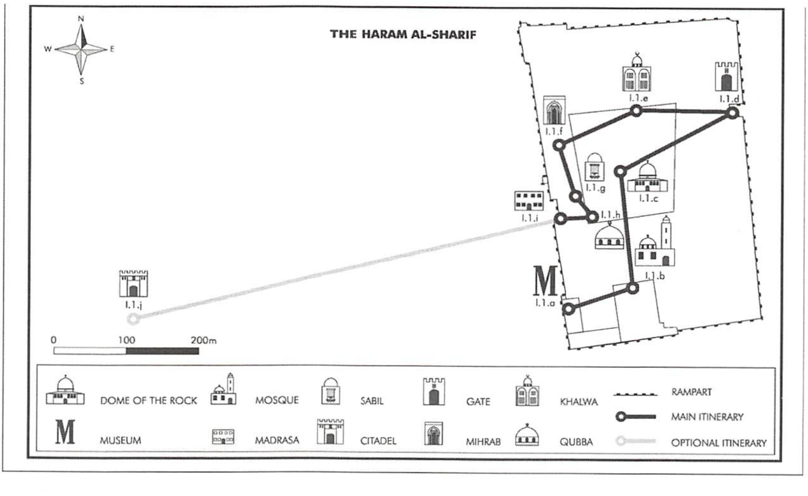
د. يوسف النتشة، د. محمود هواري

1.1 الحرم الشريف

1.1.أ المتحف الإسلامي
1.1.ب المسجد الأقصى
1.1.ت قبة الصخرة
1.1.ث الباب الذهبي (باب الرحمة وباب التوبة)
1.1.ج الخلوة الشمالية الغربية لأحمد باشا
1.1.ح محراب مسطبة علي باشا
1.1.خ سبيل قايتباي
1.1.د القبة النحوية
1.1.ذ المدرسة الأشرفية
1.1.ر القلعة (موقع اختياري)

مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى

المشاريع المائية في الحرم الشريف



قبة الصخرة، منظر من الجزء الجنوبي الغربي ما بين القبة النحوية ومدرسة القرآن، الحرم الشريف، القدس.

تعدّ مدينة القدس واحدة من أقدس المدن على الإطلاق ومركزاً للديانات السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام على حد سواء، وهي موضع الحب والتقدير والتقديس، لدى الملايين المنتشرين في أنحاء المعمورة. وشهدت عبر التاريخ الازدهار والشهرة، إضافة إلى المعاناة والخراب والتدمير.

وتشير الدلائل الأثرية إلى أن الاستيطان البشري وجد في القدس مبكراً، حيث يعود في أصوله إلى العصر الكالكوليثي والعصور الحجرية الأولى (الألف الخامسة والرابعة ق.م. تقريبا). وأما نواة المدينة الحالية، الواقعة في بلدة سلوان جنوب الحرم الشريف، فتعود في أصولها ونشأتها إلى الكنعانيين (2000 قبل الميلاد) الذين اختاروا موقعها ليكون قرب نبع الماء الوحيد في المنطقة.

وتطورت المدينة ونمت عبر العصور المختلفة، إلا أن وقوعها بين إمبراطوريات عظيمة متصارعة قامت في وادي النيل والفرات، وتذبذب ولاء الحكام المحليين بين هذه القوى، جعلها عرضة لغزوات خارجية، الأمر الذي يفسر التنوع في نسيجها الاجتماعي والعرقي والديني. فقد خضعت القدس وعلى التوالي لسيطرة القوى الخارجية، وكان اولها قيام قائد الجيش البابلي نبوخذ نصر بالسيطرة على المدينة في 587 ق. م.، ومن ثم وبعد احتلال بابل، أمر كورش الفارسي عام 538 ق. م بإعادة بناء معبد القدس وسمح لليهود بالعودة. وبعد ذلك، قام الاسكندر المقدوني باحتلال القدس عام 332 ق. م. وكذلك خلفاؤه من البطالمة والسلوقيين حتى قدوم الرومان سنة 63 ق . م. وطغت الحضارة الهيلينية، خلال الفترتين الهيلينية والرومانية، على سائر مظاهر الحياة فيها، مما أدى إلى وجود صراع بين رموز هذه الحضارة الوثنية ومناصريها، وبين الحكام والسكان المحليين.

وكنتيجة لقيام الثورتين اليهوديتين ضد روما في (66-70 م و 132-135م)، تم منع اليهود من العودة إلى القدس، بينما تمكن المسيحيون ذوو الأصول الوثنية – وليس اليهودية– من الاستقرار في القدس بدءا من القرن الثاني. وأضحت القدس، وبعد نشر مرسوم ميلان للغفران عام 313م، ومجلس نيس في325م، مركزا للديانة المسيحية وبقيت كذلك طيلة الفترة البيزنطية. وقد شهدت الفترة المسيحية بناء العديد من الكنائس ورحلات الحج المنتظمة نحو الديار المقدسة والقدس.

ويفخر العرب والمسلمون بأن القدس قد فتحت صلحا (بسلام) على يد الخليفة عمر بن الخطاب عام 15هـ/638م، الذي وقع معاهدة كفلت لسكانها المسيحيين الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم. واستمر الحكم العربي الإسلامي للمدينة المقدسة لمدة 14 قرنا تقريبا لم ينقطع خلالها إلا لفترة وجيزة (483-583 / 1099-1187) حينما احتل الصليبيون المدينة. وقد وقع على عاتق الأسر الإسلامية المتعددة التي حكمت المدينة



القدس، منظر عام من الجهة الشمالية، طباعة د. روبرتس (حقوق الطبع، متحف فكتوريا والبرت، لندن).

من أمويين وفاطميين وأيوبيين ومماليك وعثمانيين، تطوير المدينة خاصة منطقة الحرم الشريف. وتميزت أغلب فترات حكم المدينة خلال العهد الإسلامي بالتسامح، فاستمر بالإقامة فيها أغلب الطوائف المسيحية، وسمح لليهود بالعودة والإقامة في المدينة بعد طردهم وحرمانهم من العيش فيها.

ولكون القدس ثالث المدن قدسية بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد بذل المسلمون الجهد والمال لتطوير المدينة، وخاصة في منطقة الحرم الشريف، فقاموا ببناء المساجد، المدارس، الزوايا، الخانات، النزل، القباب التذكارية، الأضرحة، النوافير، الحمامات والأسواق. وجعلوا من القدس مدينة من أجمل مدن العصور الوسطى تزخر بالعديد من العمائر الدينية، والثقافية، والاجتماعية والفنية. وتعدّ قبة الصخرة التي بناها الأمويون قطعة فنية نادرة، وواحدة من أهم المعالم والآثار الاسلامية. وكذلك مدينة القدس القديمة التي تعدّ من المدن القلائل التي حافظت على طابع العصور الوسطى. ويجوز التعبير المجازي هنا على أنها عبارة عن متحف معماري نادر يزخر بالعمائر الاسلامية وغير الإسلامية الرائعة.

وباستثناء قبة الصخرة، المسجد الأقصى وبعض المباني التي يعود تاريخها الى الفترة الأموية، تنتمي معظم المباني في القدس الى فترة ما بعد الحروب الصليبية، وخاصة المرحلة المملوكية (658–992هـ / 1260–1517م). وقد أولى سلاطين وأمراء المماليك عناية خاصة بالمدينة، فشيدوا عشرات الصروح الدينية والعلمية والتجارية، وتبرعوا بوقف سخي لضمان المحافظة على هذه المؤسسات التي عكست، وبشكل كبير، الأهمية الدينية لمدينة القدس في جانبين: الأول كونها مركزاً للحج، والثاني كونها مركزا للفكر الإسلامي، وخاصة فيما يتعلق بالفكر الصوفي.

ي.ن

1.1 الحرم الشريف

يقع الحرم الشريف في الجهة الشرقية الجنوبية للبلدة القديمة في القدس، وهو يشكل حوالي سدس مساحة البلدة القديمة. ويشكل جداراه الشرقي والجنوبي جزءا من سور القدس. ويكون الدخول إلى الحرم الشريف لغير المسلمين عبر باب المغاربة فقط، وتسبقه إجراءات أمنية تستغرق أحيانا وقتا غير قصير، ويستطيع الزائر الخروج عبر أي باب من أبواب الحرم المتعددة. والدخول إلى الحرم الشريف مجاني، ولكن زيارة داخل قبة الصخرة والمسجد الأقصى والمتحف الإسلامي تستلزم شراء تذكرة، من الكشك الواقع أمام المتحف الإسلامي، وهي صالحة ليوم الشراء فقط، والدفع نقدي بالعملة المحلية. ويسمح التصوير الشخصي في ساحات الحرم، أما التصوير الداخلي في المتحف والمسجد الأقصى وقبة الصخرة فهو ممنوع إلا بإذن مسبق من دائرة الأوقاف. ويجب على الزائر حينما يدخل إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة أن يخلع نعليه، ويترك حقائبه وآلة تصويره، وعلى مسؤوليته الشخصية، في الخارج.

ومخطط الحرم مستطيل الشكل، تؤدي إليه عشرة أبواب تقع كلها في الجدار الغربي والجدار الشمالي. وترتيبها على التوالي من الغرب: باب المغاربة، باب السلسلة، باب المطهرة ، باب سوق القطانين، باب الحديد، باب الناظر، وباب الغوانمة الواقع في الزاوية الشمالية الغربية للحرم. ومن الشمال: باب العتم، باب حطة، وباب الأسباط. وتوجد أبواب مغلقة غير مستخدمة حاليا تقع في الجدار الشرقي والجنوبي. ومعظم هذه الأبواب مملوكية، بنيت، غالبا، على أساسات ومواقع لأبواب أموية ورومانية.

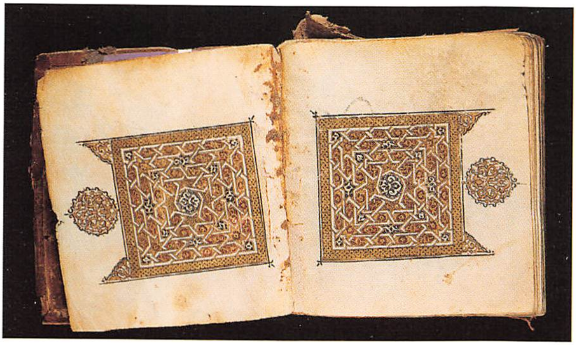
وللحرم الشريف أهمية كبيرة في العقيدة الإسلامية، حيث ورد ذكره في القرآن الكريم على أنه موضع الإسراء والمعراج، وهو القبلة الأولى في الإسلام، وهو موضع الحشر والقيامة، وكذلك هو المكان الذي ربط الرسول محمد عليه السلام بينه وبين مكة والمدينة. وعلاوة على ذلك فإن الحرم القدسي الشريف هو جوهرة القدس المعمارية والفنية. وكون الحرم الشريف أهم أجزاء البلدة القديمة على الإطلاق، فهو الذي منح القدس القسم الأكبر من أهميتها وقداستها وموقعها التاريخي.

وقد ارتبطت التطورات التاريخية للقدس ارتباطا وثيقا مع هذا الموقع، لذا فالتكوين والشكل والقداسة وما نراه اليوم للحرم الشريف، يعدّ ثمرة تطور معماري وتاريخي طويل تم بفضل الجهود والرعاية التي بذلها الحكام المسلمون من مختلف الأسرات التي حكمت فلسطين.

وبعد تدمير القدس سنة 70 م، وثورة اليهود الثانية في (132-135م)، أعاد الرومان بناء المدينة على نمط مدينة وثنية تدعى - كولونيا ايليا كابيتولينا- وشيدوا معبدا نذر للآلهة جوبيتر كابيتولينس (رب الآلهة عند الرومان). وبعد ذلك، أعيد تعمير المدينة وتطويرها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ومن ثم في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان.

واستمرت العناية بالحرم الشريف طيلة

الربعة المغربية، صورة مزدوجة، المتحف الإسلامي، الحرم الشريف، القدس.



فترات الحكم الإسلامية، خاصة زمن الأيوبيين (583 - 648 هـ/ 1187-1250م) الذين وقع على عاتقهم، وبعد 9 عقود من الحكم الصليبي، إعادة أسلمة المدينة وتعمير منطقة الحرم، وترميم قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وكذلك زمن المماليك (648-229هـ/ 1250-1517م) الذين ساهموا في تطوير المناطق المحاذية للجدارين الشمالي والغربي للحرم الشريف، عبر إنشاء سلسلة من المدارس والزوايا الصوفية، فضلا عن المشاريع الحيوية كتأمين المياه عبر قنوات ومجموعة من الأسبلة. كما ساهم العثمانيون (922-1336هـ/ 1517-1917م) في تطوير الحرم وبخاصة الأجزاء المحيطة بصحن الصخرة المشرفة.

وحيث إن الحرم الشريف يحوي العديد من الآثار المعمارية الممثلة لسائر الأسرات الإسلامية، ونظرا لأن الزيارة التفصيلية إلى كل هذه الآثار تحتاج إلى وقت طويل، فقد روعي في اختيار محطات هذا المسار أن تكون ممثلة لأبرز العمائر والعهود الإسلامية التي تعكس تنوع وظائفها وطرزها المعمارية.

ي.ن.

1.1.1أ المتحف الإسلامي

يقع المتحف الإسلامي داخل الحرم الشريف، حيث يشكل الزاوية الجنوبية الغربية للحرم. وتكون ساعات الزيارة له بين (8-11 صباحا)، و(1-2 ظهرا)، ما عدا الجمعة والأعياد، ويسمح بالزيارة في ساعات الصباح فقط خلال شهر رمضان. ويغلق الحرم وقت الصلاة، وتختلف أوقاتها قليلا حسب فصول السنة، وهي عادة ما بين الساعة (11 - 12:30 ظهرا)، والساعة (2 - 3 بعد الظهر).

أنشئ المتحف الإسلامي سنة 1341هـ/ 1923م، وهو بذلك يعدّ من أول المتاحف التي أنشئت في القدس. ويضم المتحف الإسلامي مجموعة من الكنوز التي قدمت كهدايا للمتحف أو تلك التي نقلت من الحرم الشريف وعمائره بعد إجراء ترميمات فيها، رغبة في حفظ هذه التحف في مكان مناسب، لتعرض على جمهور أوسع من الزوار والسائحين. لذا فإن أغلب تحف المتحف تعكس تراث

الربعة المغربية، بداية كل جزء من القرآن الكريم، المتحف الإسلامي، الحرم الشريف، القدس.

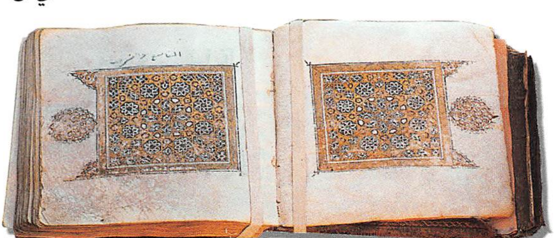




الربعة المغربية، صفحة تظهر استعمال الألوان المختلفة وتشترك بعلامات الترقيم والعلة، المتحف الإسلامي، الحرم الشريف، القدس

الحرم والقدس وفلسطين. ويتكون المتحف من قاعتين رئيستين، الأولى قاعة طولية تمتد من الشمال إلى الجنوب كانت مسجدا أيوبيا، والثانية تعود للفترة الصليبية وهي تمتد من الغرب إلى الشرق. ويضم المتحف مجموعة نادرة من الأخشاب الأموية، وبقايا منبر نور الدين (منبر المسجد الأقصى) الذي أحرق عام 1969، وكنزاً من الوثائق المملوكية والمصاحف التي لا مثيل لها، بالإضافة إلى مجموعات من الرخام والمعادن والبلاطات الخزفية. وسوف نتوقف هنا ونوجه عناية خاصة فقط إلى المصحف المغربي، والذي يعرف أيضا بالربعة المغربية.

ي.ن.



الربعة المغربية، صورة مزدوجة، المتحف الإسلامي، الحرم الشريف، القدس.

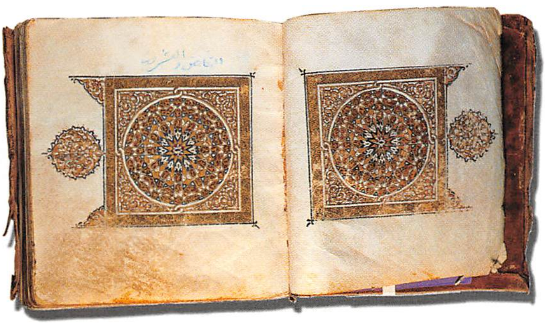
المصحف المغربي/ أو الربعة المغربية

يحتوي المتحف الإسلامي على مجموعة قيمة من المصاحف، وأهم هذه المصاحف هو المصحف المغربي المخطوط أو الربعة المغربية. وهو مصحف مكون من ثلاثين جزءا، مكتوبة بالخط المغربي، الذي يشبه إلى حد ما الخط الكوفي، إلا أن الفرق بينهما هو أن الخط الكوفي ذو زوايا حادة أما المغربي فزواياه لينة.

كتب هذا المصحف بأجزائه الثلاثين، كما هو موثق على الصفحتين الأخيرتين من كل جزء، عبد الله علي بن عبد الحق ملك المغرب في مدينة فاس سنة 745هـ / 1345م، وأوقفه على التلاوة في المسجد الأقصى في القدس. ويعدّ هذا المصحف من أروع المصاحف التي وردت إلى المسجد الأقصى خلال القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، حيث إن جميع أجزائه مكتوبة على رق غزال، وكل منها مجلد بجلد سميك من رق الغزال أيضا. ويوجد على كلا الوجهين زخارف هندسية وكتابية، وكل وجه محاط بشريط زخرفي عبارة عن خيوط ذهبية وفضية متداخلة من الخارج والداخل بزوجين من الخيوط الفضية، كتب بداخله اسم كاتب الربعة، أما الوسط ففي داخله دائرتان فضيتان متحدتا المركز، كتب في الدائرة التي على الوجه الأول اقتباس قرآني نصه: "هذا بلاغ للناس ولينذروا به، وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب". أما الدائرة التي على الجهة المقابلة، فكتب بداخلها نص قرآني



الربعة المغربية، الصفحة الأخيرة من المجلد الثاني، المتحف الإسلامي، الحرم الشريف، القدس.



الربعة المغربية، صورة مزدوجة، المتحف الإسلامي، الحرم الشريف، القدس. (في الوسط)

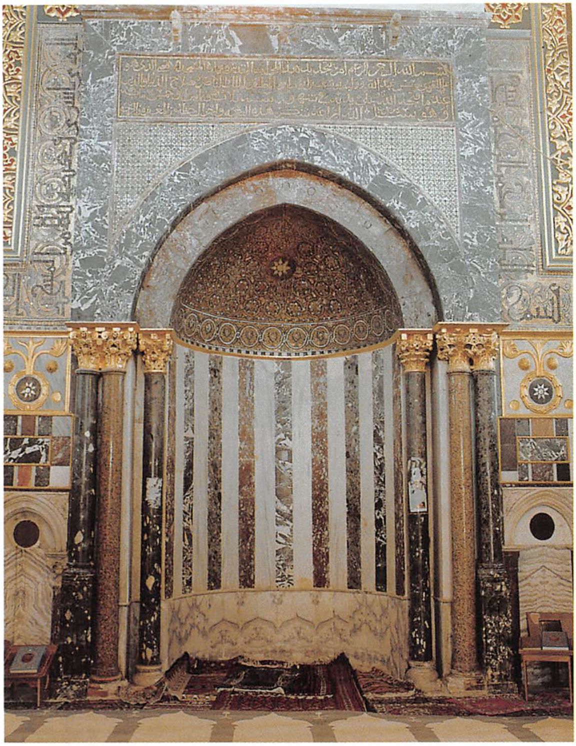


الربعة المغربية، صفحة تظهر استعمال الألوان المختلفة وتشترك بعلامات الترقيم والعلة، المتحف الإسلامي، الحرم الشريف، القدس. (في الأسفل)

آخر : "فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه، إن الله سميع عليم" .

وتحتوي الصفحتان الأوليان من كل جزء على زخرفة هندسية داخل إطار مربع تعبر عن عدة أشكال هندسية متداخلة مملوءة بالزخارف النباتية، وهي بالألوان الذهبي، والأحمر القاني، والأزرق، والأبيض، والأسود. وفي جهتي الزخرفيتين هناك زخرفة نباتية في الزاويتين الخارجيتين لكل مربع، وفي الوسط زخرفة نباتية على شكل شجرة تشبه الدائرة، أوراقها باللون الذهبي محددة باللون الأسود وظلالها باللون الأحمر القاني. وهذه الشجرة محددة من الخارج بإطار زخرفي أزرق اللون، ويوجد على الصفحة التالية مستطيل زخرفي بداخله زخرفة كتابية بالخط الكوفي المورق باللون الذهبي، وهي عبارة عن اسم السورة وعدد آياتها، وهي على خلفية بيضاء منقطة باللون الأحمر القاني.

أما الكتابة فهي باللون البني المحروق، ومزخرفة بنقاط مختلفة الألوان، فالخضراء تعبر عن همزة الوصل، والبرتقالي لهمزة القطع، وعلامات الشدّ والتسكين واضحة باللون الأخضر، وحركات الفتح والكسر والضم باللون الأحمر. وبالنسبة لحرف الفاء فإن النقطة وضعت أسفل الحرف وهي باللون البني، أما القاف فتتميز بوضع نقطة واحدة بنية أيضا فوق هذا الحرف. أما علامات الوقف فهي عبارة عن دوائر ذهبية بشكل صنوبري مقسم إلى ثلاثة أجزاء، ومنقطة جميعها باللون الأحمر القاني. كما



المسجد الأقصى، الحرم الشريف، القدس.

أن أسماء السور وعدد آياتها مكتوبة بالخط الكوفي المذهب، الذي ينتهي بزخرفة نباتية مشابهة للتي ذكرت سابقاً. وفي نهاية آيات كل جزء هناك مستطيل مذهب مكتوب بداخله بالخط الكوفي المذهب على خلفية بيضاء مزخرفة بعدة أنواع من الزخارف. أما الصفحتان الأخيرتان لكل جزء، فتحتويان على مربعين مذهبين بداخلهما كتب بالخط المغربي المذهب، مما يشير إلى نهاية كل جزء واسم الملك الذي كتبه وأوقفه وتاريخ الانتهاء من كتابته.

م.هـ.

1.1.ب المسجد الأقصى

يقع المسجد الأقصى في منتصف القسم الجنوبي للحرم الشريف.

وتكون ساعات الزيارة له من(8-11 صباحا)، و(1-2 ظهرا)، ما عدا الجمعة والأعياد، ويسمح بالزيارة في ساعات الصباح فقط خلال شهر رمضان. ويغلق الحرم في وقت الصلاة، وتختلف أوقاتها قليلا حسب فصول السنة، وهي عادة ما بين الساعة (11- 12:30 ظهرا)، والساعة (2 - 3 بعد الظهر).

لا يقصد بالمسجد الأقصى كل منطقة الحرم الشريف، كما هو الاعتقاد السائد، بل يقصد به ذلك المبنى المسقوف المحاذي لوسط الجدار الجنوبي للحرم الشريف. والمبنى الحالي هو نتيجة لتطور معماري طويل، بدأت ملامحه منذ تأسيس الخليفة عمر بن الخطاب لمسجد متواضع في الموقع مباشرة بعد فتحه لمدينة القدس (15هـ/ 637م)، وزيارته للحرم بصحبة البطريرك صفرونيوس.

لم يستدل على أية بقايا من هذا المسجد، وكانت هناك، على كل الأحوال، جهودٌ حثيثة قام بها الأمويون بين السنوات (65-96هـ/ 685 - 715م) لبناء ما يسمى بالأقصى. ويختلف الخبراء فيما بينهم في نسبة هذه الجهود ، فالبعض ينسب الفضل للخليفة عبد الملك بن مروان (65-86هـ/ 685-705م) باني قبة الصخرة وقبة السلسلة، وجملة من أبواب الحرم وأسواره، أما البعض الآخر، فينسبه لابنه الوليد (86-96هـ/ 705 -

715م) باني القصور الأموية التي اكتشفت مؤخرا إلى الجنوب من المسجد. وهناك فريق ثالث من الدارسين يرى رأيا توفيقيا مفاده أن البناء قد بدىء فيه في عهد عبد الملك، لكنه اكتمل في فترة حكم الوليد.

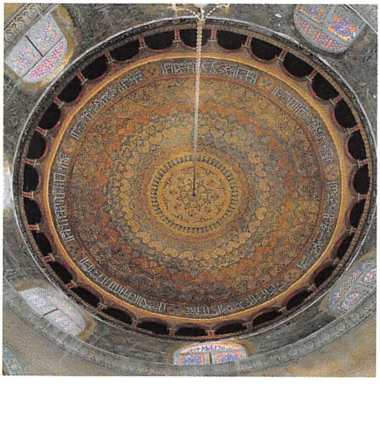
إن ما يمكن نسبته الى العهد الأموي من المسجد الحالي يتمثل في الجدار الجنوبي للمسجد القائم اليوم. ويعزى هذا أولا إلى طوبوغرافية موقع الأقصى التي تنحدر بحدة بإتجاه الجنوب، مما استلزم إنشاء تسوية من العمد والعقود لتشكل أساسا وقاعدة للمسجد، ويطلق على جزء منها اليوم الأقصى القديم، وعلى جزء آخر المصلى المرواني، وذلك لتشكل أساسا وقاعدة للمسجد. وثانيا، إلى كثرة الزلازل التي ضربت فلسطين والقدس فيما بعد العصر الأموي مما أدى إلى إعادة بناء الأقصى أكثر من مرة، وإجراء التعديلات على مبناه في الفترتين العباسية والفاطمية. وتم التدخل ثانية في مبنى المسجد الأقصى



مسجد الأقصى، المغطى، منظر باتجاه الشمال، الحرم الشريف، القدس.

في فترة الصليبيين، حيث حول قسم منه إلى كنيسة مما استوجب إضافة كوة شرقية كبيرة لا تزال ظاهرة للعيان في الرواق الأخير الشرقي، وتم استخدام جزء من القسم الغربي لتسكين الفرسان.

لقد وقع على كاهل الأيوبيين والمماليك القيام بعدة أعمال وترميمات لإعادة الصبغة الإسلامية للمسجد، حيث أمر صلاح الدين بترميم المحراب وإضافة المنبر (583هـ/1187م) بينما امر الناصر محمد بن قلاوون بإصلاح قبة المسجد (728هـ/1327 - 1328م)، ويشهد على ذلك الكتابات التذكارية المحفورة عليها.



مسجد الأقصى، القبة، الحرم الشريف، القدس.



قبة الصخرة، منظر عام، الحرم الشريف، القدس.

ولم تقتصر محاولات طمس هوية المسجد الإسلامية على التدخلات الصليبية فقط، حيث قام سائح أسترالي عنصري في 21 آب 1969 بإشعال حريق متعمد في المسجد ودمر القسم الجنوبي منه. وبالرغم من ان هذا التصرف انطلق من ميول عنصرية واضحة، إلا أن القضاء الاسرائيلي لم يرغب أن يرى سوى شخص مختل عقليا ونفسيا.

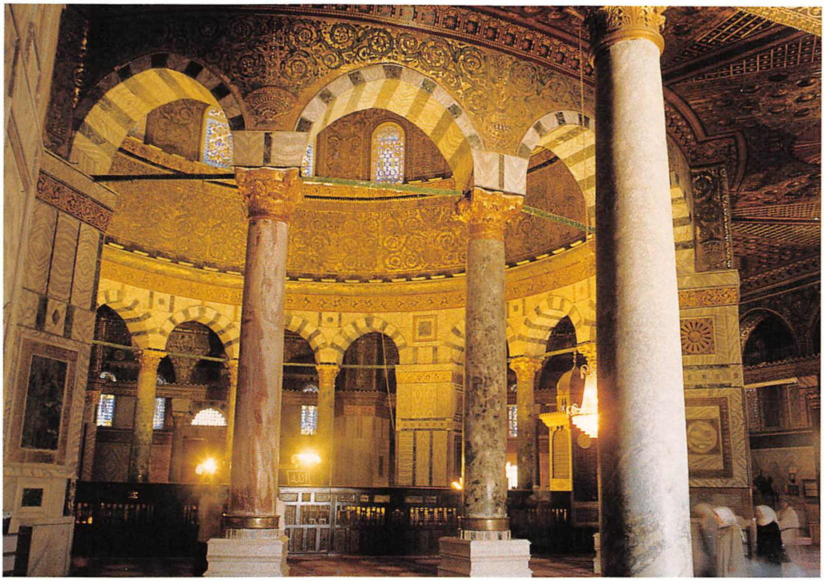
ونتيجة لكل هذه الأحداث والتغيرات، نجد أن المسجد بوضعه الحالي يختلف كثيرا عن أصل تخطيطه الأموي، والذي كان ضعفي مساحته الحالية. ويتم حاليا الوصول الى المسجد عبر الباب الأوسط، الذي هو أحد سبعة أبواب تشكل مداخل للمسجد، ويؤدي كل باب إلى رواق من أروقة المسجد السبعة، ويتقدم هذه الأبواب سبع فتحات، يعلو كل فتحة عقد مدبب، أكبرها حجما وارتفاعا العقد الأوسط.

وتخطيط المسجد الأقصى الحالي مستطيل الشكل تبلغ مساحته 80 م طولا × 55 م عرضا، ويتكون من سبعة أروقة تمتد من الشمال إلى الجنوب، أوسعها عرضا الرواق الأوسط الذي ينتهي بقبة نصف دائرية قطاعها مدبب الشكل تقوم أمام المحراب، وتستند على أربعة عقود مدببة كبيرة جدا، وفتح في أركان هذه العقود أربع كوات مجوفة نصف دائرية، وكانت تحولا من شكل القبة المربع الى المثمن ومن ثم الدائرية التي تم زخرفتها بعناصر نباتية وهندسية وكتابية.

ي.ن.

1.1.ت قبة الصخرة

تقع قبة الصخرة في مركز الحرم الشريف وهي جوهرة القدس وفلسطين.


قبة الصخرة، منظر عام من الداخل، الحرم الشريف، القدس.


قبة الصخرة، التفاصيل الزخرفية الداخلية للقبة، الحرم الشريف، القدس.

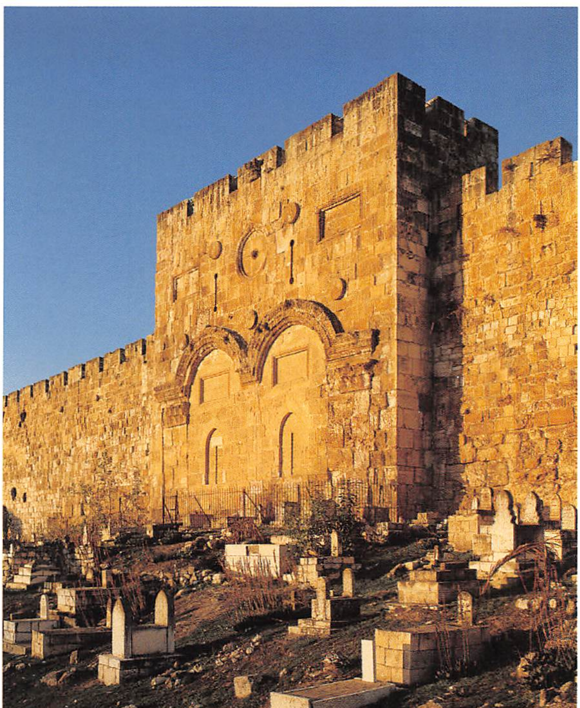
تكون ساعات الزيارة لها بين (8-11 صباحا) و(1-2ظهرا)، ما عدا الجمعة والأعياد، ويسمح بالزيارة في ساعات الصباح فقط خلال شهر رمضان. ويغلق الحرم في وقت الصلاة، وتختلف أوقاتها قليلا حسب فصول السنة، وهي عادة ما بين الساعة (11- 12:30 ظهرا)، والساعة (2-3 بعد الظهر).

تعدّ قبة الصخرة واحدة من أقدم العمائر الإسلامية وأكثرها ندرة، ويمثل التناسق والأصالة والإبداع في زخارفها وعمارتها مدرسة فنية حظيت باهتمام العلماء والدارسين على مر العصور. ولقد اهتم السلاطين والملوك والأمراء بمبنى قبة الصخرة المشرفة طيلة العهود الإسلامية، وتمثل ذلك بإجراء الترميمات والإصلاحات الداخلية والخارجية عليها، لكن دون المساس بمخططها العام و نمط زخارفها الأصلية.

بنيت قبة الصخرة برعاية الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة 72هـ / 691-692م فوق الصخرة التي صعد الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، منها إلى السماوات العلى ليلة



قبة الصخرة، تفاصيل الأقواس التي تحمل القبة، الحرم الشريف، القدس.



الباب الذهبي، الجدار الشرقي، الحرم الشريف، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي)

الإسراء والمعراج. وقد حرص عدد كبير من المسلمين على زيارة هذا الموقع وتكريمه بعد الفتح الإسلامي للقدس، مما دفع عبد الملك بن مروان إلى الاهتمام بموضع الصخرة وبناء هذه القبة التي نراها اليوم.

وبناء قبة الصخرة من الخارج مثمن الأضلاع تعلوه قبة نصف كروية تستند على رقبة دائرية. وللقبة أربعة أبواب كل باب منها يقابل إحدى الجهات الأربع. وقد لبّست الأقسام السفلى من الجدران الخارجية بألواح رخامية، وأما الأجزاء العلوية فكسيت ببلاطات من القاشاني المزخرف، تعود في تاريخها إلى عهد السلطان سليمان القانوني، الذي أمر باستبدال زخارف الفسيفساء التالفة بكسوة من البلاطات الخزفية في الفترة بين 952-959هـ / 1545-1552م. ورقبة القبة مزينة أيضا بالنوع نفسه من الخزف، في حين أن القبة الخارجية الإسمنتية، والتي كانت إلى عهد قريب (1385هـ/ 1965م) خشبية، مغطاة بصفائح النحاس المطلية بالذهب. وتم تغطية ما بين القبة والمثمن الخارجي والأوسط بسقف خشبي مستوي ملبس من الخارج بألواح الرصاص، ومزخرف من الداخل بزخارف خشبية ملونة.

ويتألف مخطط قبة الصخرة من الداخل من مثمنين، داخلي وخارجي، يحيطان بالصخرة التي تعلوها القبة. ويقوم المثمن الخارجي على ثماني دعامات وستة عشر عمودا، في حين يستند المثمن الداخلي على أربع دعامات واثني عشر عمودا. وأقيمت



البوابة الذهبية، منظر من جهة الغرب، الحرم الشريف، القدس.

بين الدعامات والأعمدة عقود نصف دائرية زخرفت بالفسيفساء والكتابات الملونة. وتتكون القبة الداخلية الخشبية (قطرها 20.44م) -والتي تعدّ أقدم هيكل خشبي قائم حتى الآن- من ألواح خشبية مزخرفة بزخارف كتابية وهندسية على أرضية من الجص. ويوجد فراغ تقرب مساحته من المتر، ونصف المتر يفصل بين هذه القبة الداخلية والقبة الخارجية الإسمنتية، وذلك لحمايتما من العوامل الجوية. وتحتوي رقبة القبة الدائرية على ست عشرة نافذة، وقد زينت الرقبة بالزخارف الفسيفسائية والآيات القرآنية.

تقع الصخرة المشرفة أسفل القبة، وهي صخرة طبيعية غير منتظمة الشكل (18م × 13م بارتفاع 1.5م). يوجد أسفلها كهف مربع الشكل تقريبا (طول ضلعه 4.5 م) فيه محرابان، أحدهما مجوف والثاني مسطح. ويؤدي عدد كبير من المسلمين الصلاة داخل هذا الكهف لاعتقادهم أن الدعاء فيه مستجاب.

ي.ن.

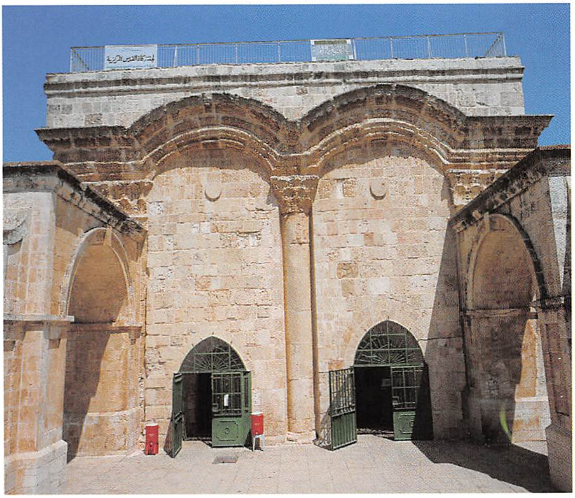
1.1.ث. الباب الذهبي (باب الرحمة وباب التوبة)

يقع باب الرحمة وباب التوبة في وسط الجدار الشرقي للحرم الشريف.

تكون ساعات الزيارة له بين(8-11 صباحا)، و(1-2 ظهرا)، ما عدا الجمعة والأعياد، ويسمح بالزيارة في ساعات الصباح فقط خلال شهر رمضان. ويغلق الحرم وقت الصلاة، وتختلف أوقاتها قليلا حسب فصول السنة، وهي عادة ما بين الساعة (11- 12:30 ظهرا)، والساعة (2-3 بعد الظهر).

وزيارة الموقع بحاجة إلى تنسيق وإذن مسبق من دائرة الأوقاف الإسلامية (ت 222 / 628-02).

إن تاريخ بناء هذا الباب غير معروف، لكن



البوابة الذهبية، منظر من جهة الغرب يبين العمود المركزي، الحرم الشريف، القدس.

التكوين المعماري والعناصر الزخرفية التي توجد في الباب تشير إلى أن بناءه قد تم في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، الذي نفذ خطة شاملة لتطوير منطقة الحرم الشريف. وقد قام عبد الملك بعدة مشاريع معمارية في القدس أشهرها بناء قبة الصخرة، وقبة السلسلة، وبناء عدد من الأبواب والأسوار في الحرم الشريف.

ونسجت حول الباب الذهبي -وهو باب مزدوج يتألف من باب الرحمة وباب التوبة- عدة روايات وأساطير، منها أنه حينما وصل الإمبراطور هيراكليوس الى الباب سنة 631م ، نزلت فجأة حجارة الباب وسدت مدخله، وحينما وقف بتواضع فتح هذا الباب. ومع أن هذه الأسطورة ظهرت لأول مرة سنة 215هـ / 830 م، إلا أنها استمرت وبقوة في العصور الوسطى، وقد اعتاد الصليبيون فتح الباب مرتين في العام، في يوم أحد الشعانين وفي يوم تمجيد الصليب، رغم أن السيد المسيح دخل في أحد الشعانين من باب كان يعرف بباب بنيامين (باب الأسباط اليوم). ويسود الاعتقاد ايضا أن الإمبراطور هيراكليوس دخل على الأرجح من باب كان قائما على البناء الحالي، حيث كشفت الحفريات مؤخرا عن بقايا الباب القديم أسفل الباب الحالي. واسم الباب الحالي في الأدب الغربي "الباب الذهبي"، وهو مشتق من الكلمة اليونانية Horaia والتي تعني (جميل)، واللفظة اللاتينية Aurea والتي تعني (ذهبي).

ويطلق على هذا الباب في الأدب العربي الإسلامي اسم "باب الرحمة وباب التوبة"، وتعتمد هذه التسمية على تفسير للآية 13 الواردة في سورة الحديد في القرآن الكريم. وهذه الآية تشير، حسب تفاسير العلماء، إلى باب بداخله رحمة "أي المسجد الأقصى" وخارجه عذاب "أي وادي جهنم" الواقع إلى الشرق من الباب. لذا فليس من المستغرب أن يحظى هذا الباب بمكانة هامة في الإسلام، ويصبح من أهم المواقع الدينية والأثرية في منطقة الحرم الشريف. ولقد تم تحويل المنطقة المحاذية له الى الشرق الى مقبرة إسلامية لتصبح أقدم وأشهر مقبرة إسلامية في القدس، ولتحمل اسم الباب وتعرف "بمقبرة باب الرحمة". وقد دفن فيها عدد من صحابة رسول الله، ولا تزال حتى يومنا هذا المكان الذي يتمنى كثير من المسلمين أن يدفنوا فيه.

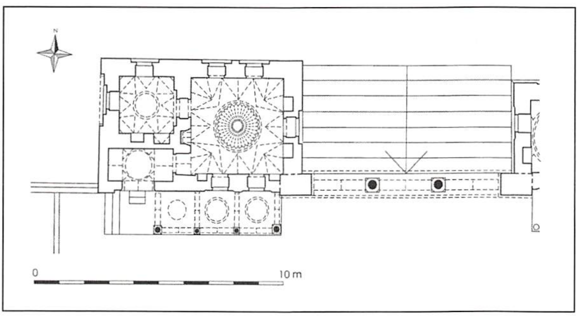


منظر عام للجهة الشمالية الغربية لخلوة أحمد باشا، الحرم الشريف، القدس.

استخدم هذا الباب مسجدا في الحقب الفاطمية والأيوبية والمملوكية. أما في الفترة العثمانية فقد استخدم مقرا لأتباع الطرق الصوفية خاصة المولوية. وقبيل قدوم الصليبيين، أنشئت فوق هذا الباب المدرسة النصرية، وهي من أوائل وأشهر مدارس القدس، ونسبت إلى العالم الجليل الشيخ نصر المقدسي. ولجأ لهذه المدرسة حجة الإسلام، الفليسوف الصوفي، الإمام الغزالي، حيث مر بمرحلة هامة من تطوره الفكري، مرحلة الشك ثم اليقين، وفيها ألف كتابه المشهور "إحياء علوم الدين".

ولمبنى باب الرحمة والتوبة أربع واجهات متكاملة جميلة كلها على مستوى طابقين، مغطاة بالزخارف النباتية والهندسية البارزة، وتشكل الواجهات الشرقية جزءا من سور القدس وسور الحرم الشريف. ويتوصل لداخل المبنى من الحرم الشريف عبر مجموعة من الدرجات الكبيرة، والتي تؤدي إلى الداخل المكون من رواقين يمتدان شرقا وغربا، وكل رواق مكون من ثلاث بلاطات، كل منها تغطيها قبة ضحلة، وتستند القباب على صفين من الأعمدة الكبيرة.

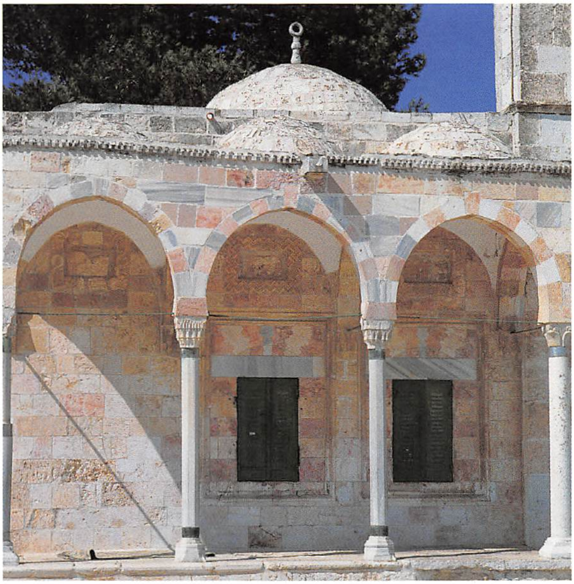
ي.ن.



مخطط الجهة الشمالية الغربية لخلوة أحمد باشا، الطابق الأرضي، الحرم الشريف، القدس.

1.1.ج الخلوة الشمالية الغربية لأحمد باشا

تقع الخلوة الشمالية الغربية لأحمد باشا في



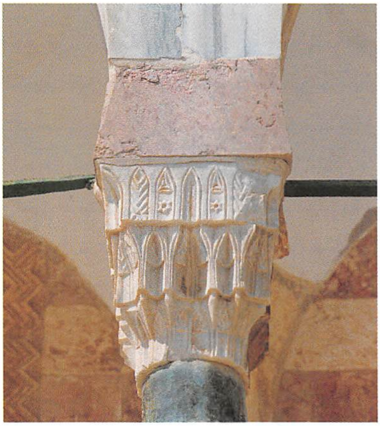
الجزء الشمالي الغربي لخلوة أحمد باشا، الرواق، الحرم الشريف، القدس.

الجدار الشمالي لصحن قبة الصخرة المشرفة ملاصقة للحد الغربي للبائكة الشمالية.

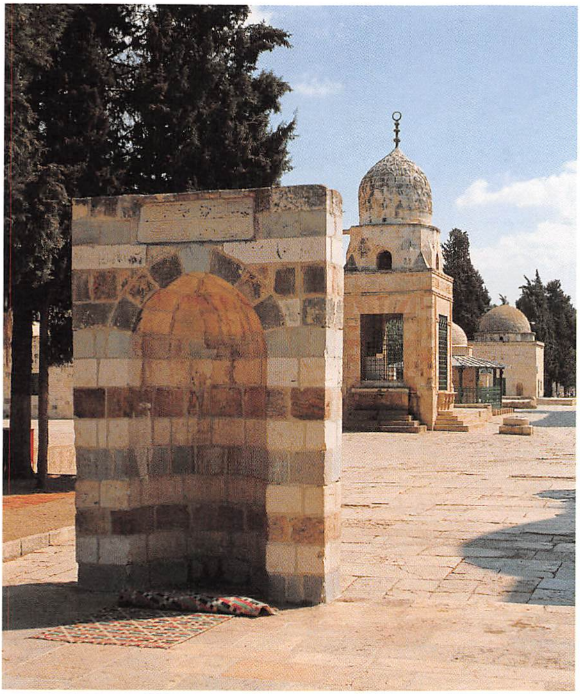
تكون ساعات الزيارة لها بين (8-11 صباحا)، و(1-2 ظهرا)، ما عدا الجمعة والأعياد، ويسمح بالزيارة في ساعات الصباح فقط خلال شهر رمضان. ويغلق الحرم في وقت الصلاة، وتختلف أوقاتها قليلا حسب فصول السنة، وهي عادة ما بين الساعة (11- 12:30 ظهرا)، والساعة (2-3 بعد الظهر).

تغطي الخلوة عادة تلك المساحة الصغيرة الحجم الملحقة بالزوايا الصوفية، التي يجد فيها المتصوف مناخا مثاليا للتأمل والتركيز. ولكنها في الحرم الشريف عبارة عن مبنى مستقل مكون من مستويين من البناء فيه أكثر من وحدة معمارية. وانتشر هذا النوع من العمارة في الحرم الشريف في العهد العثماني، حيث وصلنا ما يقرب من عشرين مبنى، وتعدّ خلوة أحمد باشا هي الأجمل.

وتعرف هذه الخلوة باسم "الخلوة المملوكية" لأنها تحمل الكثير من مظاهر العمائر المملوكية في القدس. ويشغل الخلوة اليوم مكتب مدير المسجد الأقصى المبارك، لكن حين أنشأها أحمد باشا سنة 1009هـ/ 1600-1601م خصصها لذكر الله (للتصوف) ولدرس العلوم الشرعية (للعلم). ولتحقيق هذه الأهداف عين أحمد باشا في هذه الخلوة أحد أبرز علماء عصره من متصوفة القدس، الشيخ أبو السعود الغزي، وحدد له راتبا سنويا بلغ 600 قطعة فضية من ريع الوقف الذي خصصه لهذا المبنى، وذلك طيلة فترة حياته، كما قام بوضع الشروط التفصيلية لإدارة هذا المبنى وترميمه، بما يكفل استمرارية نشاطه العلمي.



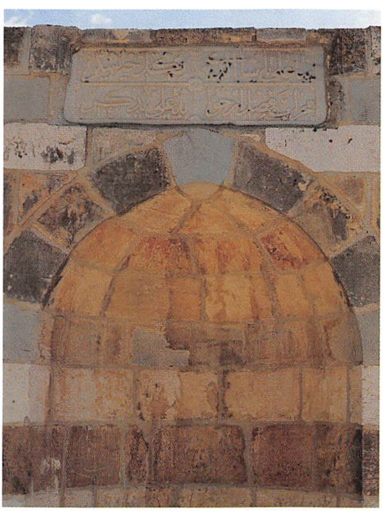
الجزء الشمالي الغربي لخلوة أحمد باشا، تاج العامود، الحرم الشريف، القدس.



محراب مصطبة علي باشا، الحرم الشريف، القدس.

كان أحمد باشا، باني هذه الخلوة وحاكم غزة آنذاك، سليل أسرة عريقة تولى أفرادها عدة مناصب هامة في الدولة العثمانية، وفي القدس على وجه الخصوص. فتولى جده مصطفى باشا مهام قيادية طالت اليمن زمن السلطان سليمان القانوني. أما والده فهو رضوان باشا، الذي تنسب إليه أسرة آل رضوان التي حكمت سنجق غزة في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلادي، ويعدّ زمن أحمد باشا العصر الذهبي لهذه الأسرة. وهو من أشهر رعاة العمارة في القدس في نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، وكان للقدس مكانة خاصة في قلبه، حيث قام بزيارات متكررة للمدينة والتقى بالمعماري اللامع عبد المحسن بن نمر، الذي قام بتنفيذ العديد من مشاريعه.

وتضم خلوة أحمد باشا مستويين من البناء، الأرضي وهو مكون من قسمين، الشرقي منهما عبارة عن غرفة مربعة، والثاني الغربي مشكل من غرفتين صغيرتين تحتويان الآن على مولد كهربائي لطوارئ الحرم الشريف. أما القسم العلوي فهو مؤلف من غرفة رئيسة مركزية وغرفتين صغيرتين، تحتوي إحداهما على محراب في جدارها الجنوبي. وتمتاز خلوة أحمد باشا بغناها المعماري والزخرفي، ولها أربع واجهات تطل على الجهات الأربع الرئيسة، تمتاز بتناسق عناصرها وألوانها لتعكس روح الفن المعماري في القدس مع المحافظة على تفردها الذي يظهر جليا في



محراب مصطبة علي باشا، النقش التأسيسي، الحرم الشريف، القدس.

عتبات الأبواب والشبابيك وما يعلوهما من حشوات زخرفية.

ي.ن.

1.1.ح محراب ومسطبة علي باشا

يقع محراب علي باشا ومسطبته في القسم الغربي من الحرم الشريف إلى الشرق قليلا من باب القطانين.

وتكون ساعات الزيارة من (8-11 صباحا)، و(1-2 ظهرا)، ما عدا الجمعة والأعياد، ويسمح بالزيارة في ساعات الصباح فقط خلال شهر رمضان. ويغلق الحرم وقت الصلاة، وتختلف أوقاتها قليلا حسب فصول السنة، وهي عادة ما بين الساعة (11- 12:30 ظهرا)، والساعة (2-3 بعد الظهر).

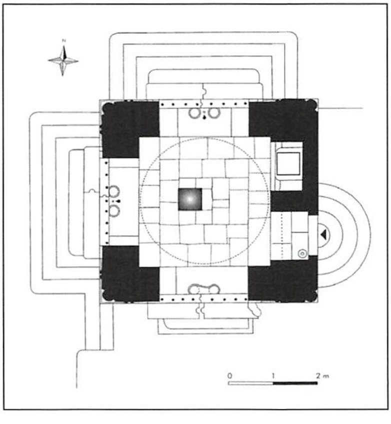
حدد تاريخ المحراب بموجب نص كتابي سنة 1047هـ/ 1637-1638م، وورد النص في لوحة رخامية تأسيسية مستطيلة الشكل، ثبتت فوق طاقية المحراب. ويتكون النص من سطرين من الكتابة الشعرية بخط النسخ العثماني.

بنى علي باشا، والذي كان حاكم القدس العثماني عام 1047هـ/ 37-1638م هذا المحراب والمسطبة . ولم يكن هدفه فقط بناء موقع لتخليد ذكراه، وإنما لتمكين جموع الزوار من أداء الصلاة في أماكن مكشوفة في الحرم الشريف. ويرجح أن مسطبته كان يتحلق حولها الكثير من طلبة العلم لتلقي محاضرة في الهواء الطلق من قبل شيخهم.

ويقع المحراب وسط الجدار الجنوبي



سبيل قايتباي، القبة المنحوتة، الحرم الشريف، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: J. تايلور).

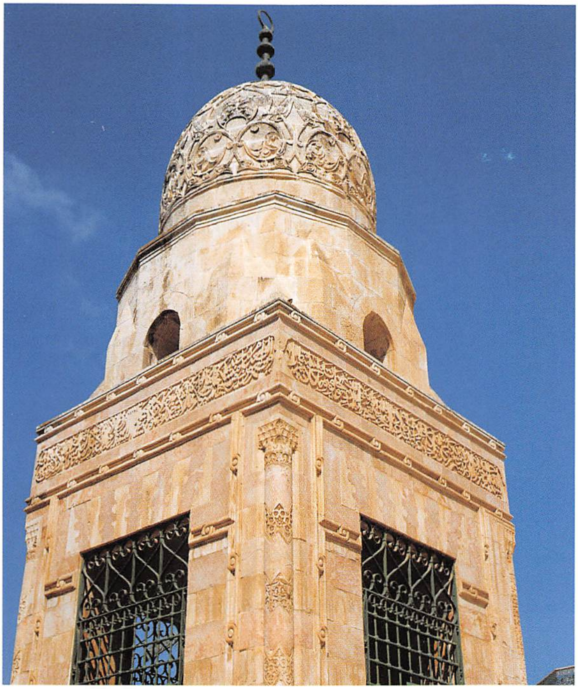


مخطط لسبيل قايتباي، الحرم الشريف، القدس.

للمسطبة، وهو محراب مجوف تنتهي حنيته بعقد مدبب بني بأسلوب الأبلق. ومع أن المحراب عادة هو عنصر معماري من عناصر المساجد، سواء كان المسجد مستقلا أو ملحقا بمجمع معماري، إلا أنه هنا وفي عمارة الحرم الشريف وحدة معمارية مستقلة.

وقد كان من الشائع ان نجد في الحرم الشريف مسطبة بني فوقها محراب، ولكن هذا لا يعني أن كل مسطبة لها محراب.

بلطت مساطب الحرم في صفوف من البلاط الحجري البسيط الأبيض اللون، والذي تحول إلى رمادي بتأثير العوامل الجوية. وكان يوجد قرب كل مسطبة شجرة تمدها بالظل وتلطف من حرارة الجو صيفا. ووضعت على جوانب المسطبة درجة أو اثنتان لتسهيل الدخول.



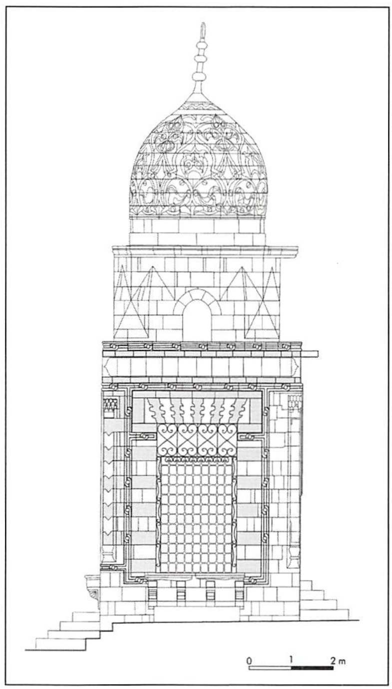
الصورة العلوية (أقصى اليمين) سبيل قايتباي، القبة المنحوتة، الحرم الشريف، القدس (حقوق الطبع A. وولز).

ي.ن.

1.1.خ سبيل قايتباي

يقع في ساحة الحرم الشريف بين درج صحن قبة الصخرة الغربي المؤدي للقبة وباب القطانين.

تكون ساعات الزيارة من (8-11 صباحا)، و(1-2 ظهرا)، ما عدا الجمعة والأعياد، ويسمح بالزيارة في ساعات الصباح فقط خلال شهر رمضان. ويغلق الحرم وقت



سبيل قايتباي، ارتفاع الواجهة الجنوبية، الحرم الشريف، القدس.

سبيل قايتباي، منظر داخلي للقبة، الحرم الشريف، القدس.

القبة النحوية، المدخل، الحرم الشريف، القدس. (في الأسفل)





الصلاة، وتختلف أوقاتها قليلا حسب فصول السنة، وهي عادة ما بين الساعة (11- 12:30 ظهرا)، والساعة (2-3 بعد الظهر).

يعدّ سبيل قايتباي واحداً من أجمل سبل بيت المقدس والأكثر روعة بين المباني الصغيرة المقببة في منطقة الحرم الشريف، وهو مثال نموذجي للعمارة المملوكية المتأخرة بصورة عامة، وللعمارة القاهرية بصورة خاصة. ويمكن الوصول إليه بسهولة بعد الخروج من الباب الغربي لقبة الصخرة ونزول الدرج (البائكة) المقابل لهذا الباب، حيث يوجد مبنى مستطيل قائم على مسطبة تعلوه قبة حجرية فريدة الزخارف.

لقد تم إنشاء السبيل في البدء بأمر من السلطان سيف الدين إينال (865هـ/ 1465م)، ثم أعاد بناءه، لاحقا، السلطان الأشرف قايتباي عام 887هـ/ 1482م كملحق للمدرسة الأشرفية المجاورة. ولم يتبق من سبيل إينال سوى البئر الذي أقام قايتباي سبيله عليها. وقد رمم السبيل السلطان العثماني عبد الحميد الثاني عام 1300هـ/ 1882-1883م، كما تدل النقوش الكتابية عليه. وقامت لجنة إعمار المسجد الأقصى في الفترة الأخيرة بترميم السبيل وإصلاحه.

ويقع السبيل فوق الجزء الشمالي من مسطبة فيها محراب من الناحية الجنوبية. ويتكون بناء السبيل، الذي يبلغ ارتفاعه حوالي 13م، من ثلاثة أجزاء. الجزء الأول عبارة عن قاعدة مستطيلة تتخللها نوافذ عالية من ثلاث



القبة النحوية، منظر عام، الحرم الشريف، القدس.

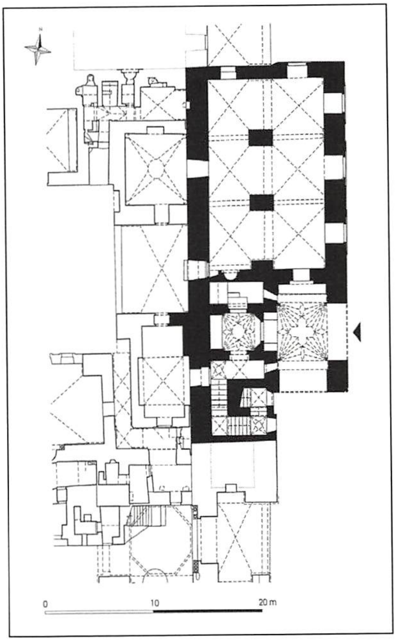


القبة النحوية، تيجان أعمدة المدخل، الحرم الشريف، القدس.

جهات، وعليها حماية حديدية تعود إلى العصر العثماني. وعتبات النوافذ محمولة على كوابل حجرية محفورة. أما سواكف النوافذ فهي تتكون من صنج معشقة. ويقع باب السبيل في الجهة الشرقية، ويمكن الوصول اليه عبر درج مستدير يستند على بلاط المسطبة. وهناك أربع درجات تقود إلى القاعدة من الجهتين الشمالية والغربية. ويوجد في زوايا البناء أعمدة ذات قواعد وتيجان مقرنصة. أما البناء الحجري، فقد تم حسب النمط المعماري المسمى بالأبلق، حيث بني بالتناوب من حجارة حمراء وصفراء. ويوجد في أعلى البناء شريط كتابي تذكاري يتضمن آيات قرآنية ومعلومات عن مؤسسي السبيل. والشريط مكتوب بالخط النسخي المملوكي.

ويوجد في الجزء الأوسط من البناء رقبة القبة، التي تشكل منطقة الانتقال ما بين القاعدة المستطيلة والقبة المستديرة. وفي وسط كل ضلع من أضلاعه الأربعة نافذة صغيرة للتهوية. ويوجد في زوايا الرقبة دعامات صغيرة ذوات شكل هرمي لتحول أعلى مربع الطابق الأول إلى مثمن ومن ثم إلى مضلع ذي اثني عشر ضلعا.

ويتألف الجزء العلوي من قبة حجرية عالية مميزة ومغطاة بزخارف الأرابيسك. وهذه القبة هي المثل الوحيد على هذا الفن المملوكي المصري خارج القاهرة، ومع ذلك، فليس له مواز حتى في القاهرة، حيث إن القباب المنحوتة المشابهة تكون عادة فوق الأضرحة. فالسبيل في مصر كان غرفة في مجمع ولم تكن



المدرسة الأشرفية، مخطط الطابق الأرضي، الحرم الشريف، القدس.



المدرسة الأشرفية، مقطع الواجهة (الشرق)، الحرم الشريف، القدس.

له قبة على الإطلاق.

إن عناصر البناء المعمارية والزخرفية مستوحاة بصورة رئيسة من تقاليد البناء المصرية. وليس من المستغرب أن البنائين والصناع كانوا مصريين جلبوا معهم أسلوب بناء القباب والزخرفة، التي كانت تزين قباب القاهرة وأبنيتها لا سيما قباب الترب والمدافن والأضرحة. ومن المرجح أن هؤلاء البنائين الذين بنوا السبيل هم أنفسهم الذين أنشأوا لاحقا المدرسة الأشرفية.

م.هـ.

1.1.د القبة النحوية

تقع القبة النحوية في الزاوية الجنوبية الغربية لصحن قبة الصخرة؛ في أعلى الدرج المؤدي إلى الصحن من باب السلسلة.

تكون ساعات الزيارة من (8-11 صباحا)، و(1-2 ظهرا)، ما عدا الجمعة والأعياد، ويسمح بالزيارة في ساعات الصباح فقط خلال شهر رمضان. ويغلق الحرم وقت الصلاة، وتختلف أوقاتها قليلا حسب فصول السنة، وهي عادة ما بين الساعة (11- 12:30 ظهرا)، والساعة (2-3 بعد الظهر).

أنشأ القبة النحوية الأمير حسام الدين أبو سعد قيماز المعظمي، والي بيت المقدس، عام 604هـ/ 1227-1228م ، بأمر من الملك المعظم عيسى، حاكم جنوب سوريا وفلسطين إبان العهد الأيوبي. ويشهد على ذلك في النقش الكتابي الموجود على الحائط الشمالي للغرفة الغربية من المبنى، وكذلك نصوص مؤرخي

المدرسة الأشرفية، المدخل، الحرم الشريف، القدس.

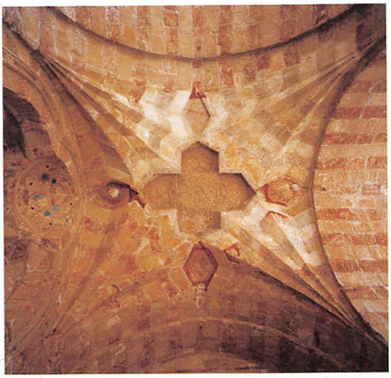


المدرسة الأشرفية، تفاصيل المدخل، الحرم الشريف، القدس. (في الأسفل)



بيت المقدس الشهيرين ابن فضل الله العمري (746هـ/1345م)، ومجير الدين الحنبلي (900هـ/1495م). وكان الهدف من إنشاء القبة أن تكون مدرسة لتعليم نحو اللغة العربية، حيث اشتهر المعظم عيسى باهتمامه الشديد بالنحو العربي، وبأنه ألَف بنفسه بعض الكتب في هذا المجال. وقد ذكر العمري، في معرض وصفه للقبة، أن الملك المعظم عين إماما للقبة لتأدية فرائض الصلاة الخمس فيها، كما وعين شيخا، من مدرسته القائمة خارج الحرم والمسماة بالمدرسة المعظمية، لتعليم النحو لخمسة وعشرين طالبا يتبعون المذهب الحنفي. كما أوقف عليها قرية بيت لقيا في ولاية القدس لتسديد نفقاتها.

يعدّ هذا الصرح لوحة معمارية رائعة وبني على مستويين مستقلين انطلاقا من طبيعة الموقع الطوبغرافية. فتم بناء المستوى الأسفل على مستوى ساحة الحرم الشريف، ويحتوي على غرف معقودة بعقود متقاطعة يتم الدخول إليها من مدخل صغير في الجهة الغربية. وقد استخدمت هذه الغرف، بشكل أساسي، لتخزين الزيت الذي استعمل في إضاءة مصابيح المسجد الأقصى وقبة الصخرة، أما اليوم فتشغل هذه الغرف مكاتب محكمة القدس الشرعية. أما المستوى العلوي، فقد أقيم على مستوى صحن قبة الصخرة ويتكون من غرفتين تعلوهما قبتان حجريتان يفصل بينهما قاعة وسطى تربط بينهما. وتتميز القبة الغربية بارتفاعها وأناقتها، حيث تعود إلى مرحلة البناء



المدرسة الأشرفية، قنطرة المدخل، تفاصيل، الحرم الشريف، القدس.

الأصلية، ألا وهي الحقبة الأيوبية. أما القبة فوق الغرفة الشرقية فهي ضحلة وذات طراز معماري عثماني، مما يدل على إضافتها في مرحلة لاحقة بعد تهدم القبة الأصلية.

تتكون واجهة المبنى من مزيج من العناصر المعمارية، كالعقود والأعمدة الرخامية التي أضيفت خلال حقب مختلفة. ويمتاز الباب الرئيسي، الذي من المرجح أنه أقيم في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري / القرن العشرين الميلادي، بزخارفه الغنية، وأبرزها الأعمدة الرخامية ذوات التيجان المنحوتة، التي يعود تاريخها للفترة الصليبية. وهناك نقش بالخط النسخي العثماني في الجهة الغربية من الواجهة يشير إلى وجود سبيل أنشأه فاعل الخير حسن الحسيني عام 1137هـ/ 1724-1725م. وقد بقي النقش واندثر السبيل.

حافظت القبة الغربية من الداخل على طابعها الأصلي، حيث تميزت منطقة الانتقال من الغرفة المربعة إلى القبة المستديرة بزخارف غنية تضم عناصر زخرفية على شكل المحار، وزخارف الأرابسك الهندسية. ويوجد على أحد الجدران الداخلية نقش تذكاري مكتوب بالخط النسخي الأيوبي. وتشغل حاليا غرف المستوى العلوي لمبنى القبة النحوية مكاتب مفتي القدس.

م.هـ.

1.1.ذ المدرسة الأشرفية

تقع المدرسة الأشرفية على الحد الغربي للحرم الشريف بين باب السلسلة وباب المطهرة مقابل سبيل قايتباي.

تكون ساعات الزيارة من (8-11 صباحا)، و(1-2 ظهرا)، ما عدا الجمعة والأعياد، ويسمح بالزيارة في ساعات الصباح فقط خلال شهر رمضان. ويغلق الحرم وقت الصلاة، وتختلف أوقاتها قليلا حسب فصول السنة، وهي عادة ما بين الساعة (11- 12:30 ظهرا)، والساعة (2-3 بعد الظهر).

تعد المدرسة الأشرفية أفخم مدارس بيت المقدس، ليس فقط من الناحية المعمارية والفنية وإنما أيضا من حيث كونها أهم صرح علمي. فقد وصفها المؤرخ مجير الدين الحنبلي (901هـ/ 1496م) بجوهرة القدس الثالثة بعد المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وتنسب إلى السلطان الأشرف قايتباي الذي أعاد بناءها بين سنتي 885-887هـ/ 1480-1482م، حيث يطلق عليها أيضا اسم المدرسة السلطانية.

والواقع أن هذه المدرسة قد بنيت وهدمت ثم بنيت مرة ثانية. فهي أنشئت بدايةً في عهد السلطان الظاهر خشقدم، على يد الأمير حسن

الظاهري الذي كان ناظراً للحرمين الشريفين بين السنوات 869-872هـ/1464-1467م. وتوفي السلطان خشقدم قبل إكمال بنائها، فقام الأمير حسن الظاهري بإكمال هذه المهمة للسلطان قايتباي، الذي أوكل بدوره للأمير بردبك التاجي، الذي أصبح ناظر الحرمين الشريفين، إتمام عمارتها. وقد تم ذلك سنة 875هـ/1470م، كما يستدل من النقش التأسيسي، الذي ما زال قائما على جدار المدرسة القديم بالقرب من باب السلسلة. وكان الافتتاح الرسمي للمدرسة عام 877هـ/1472م، حين عين السلطان قايتباي شهاب الدين العميري شيخا على المدرسة، كما وظف مجموعة من الصوفية والفقهاء لتعليم الطلبة، وأوقف عليها أوقافا كثيرة. ويذكر مجير الدين العليمي أن السلطان قام بتخصيص التمويل اللازم لتغطية مخصصات شهرية لستين صوفياً وقدره 45 درهما، ودفع راتب شهري للشيخ مقداره 500 درهم، وكذلك مخصصات عدد آخر من الموظفين، إضافة إلى تكاليف إدارة المؤسسة. وقد تضمن وقف قايتباي على مدرسته أراضي 28 قرية منتشرة في كل من غزة والرملة والقدس والخليل؛ وقد اشتملت في غزة على خان وحمام ومعصرتين وطاحون وفرن وإسطبل وحوانيت وبيوت.

وعندما زار السلطان قايتباي المدرسة لأول مرة سنة 880هـ/1475م لم تعجبه لأن عمارتها كانت تشبه غيرها من المباني المحيطة بالحرم، فأمر بهدمها وتعاقد مع مجموعة من المعماريين والصناع المصريين لإعادة بنائها، بإشراف مهندس معماري قبطي. وعندما تم الانتهاء من العمل سنة 887هـ/1482م، كان البناء الجديد تحفة فنية رائعة برزت فيها العمارة المملوكية، ولا تضاهيها في الجمال أية مدرسة أخرى في القدس. وقد عزز ذلك، الوصف الجميل الذي أطلقه الراهب الدومينيكاني الشهير فيليكس فابري حين زار المدرسة سنة 888هـ/1484م. ولكن وللأسف، فقد تهدم جزء كبير من المدرسة إثر الزلزال الذي تعرضت له المدينة سنة 903هـ/1497-1498م، فأعيد بناؤها وعادت إلى سابق عهدها، وظلت تؤدي مهامها التعليمية على مدار ثلاثة قرون. وقد تغنى بها الرحالة والمؤرخون الذين زاروها في القرنين العاشر والحادي عشرالهجريين / السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ووصفها السائح التركي أوليا جلبي حوالي سنة 1080هـ/1670-1696م، قائلا: "المدرسة السلطانية هي أفضل مدارس بيت المقدس". وقد نزل فيها العالم الصوفي عبد الغني النابلسي سنة 1102/1690-1691 ووصفها بأنها مدرسة عظيمة ذات أهمية كبرى.

تتكون المدرسة الأشرفية من طابقين. ويتميز المدخل الرئيس للمدرسة، والذي يكون عبر ساحة الحرم بغناء عناصره المعمارية وتفاصيله الزخرفية، التي تشكل عصارة الفن المعماري المملوكي في أعلى مراحل تكونه. وهو يحتوي على سقيفة مفتوحة من

الجهتين الشرقية والجنوبية محمولة على عقدين مدببين مغطاة بعقد مروحي. ويقع الباب في تجويف عميق تعلوه شبه قبة ملئت بالزخارف المحفورة، والمرصعة بقطع من القاشاني المزجج. ويؤدي الباب إلى دركاة تنتهي شمالا الى قاعة اجتماعات كبيرة. ويوجد في الحائط الشرقي لهذه القاعة باب ونافذتان تطلان على ساحة الحرم، وفي حائطها الشمالي باب ونافذة، أما حائطها الجنوبي فيحتوي على نافذة أخرى ومحراب مزخرف بالرخام الملون. وتشغل هذه القاعة الآن مشاغل لترميم مخطوطات الحرم القدسي الشريف ووثائقه. وإلى الجنوب من الرواق، هناك سلم حجري يقود إلى الطابق العلوي والى مئذنة باب السلسلة.

وبالرغم من أن الجزء الجنوبي من الطابق العلوي في حالة متهدمة، إلا أن تخطيطه المملوكي ذا الايوانات الاربعة المتعامدة لا يزال واضح المعالم. وكان يتوسطه صحن مركزي يحيط به إيوانان رئيسان من الشمال والجنوب، وإيوانان صغيران من الشرق والغرب. ولم يبق من هذه الأواوين الأربعة شئ باستثناء الإيوان الجنوبي ومحرابه. ويحتوي الجزء الجنوبي الغربي من هذا الطابق على مجموعة غرف تشكل اليوم جزءا من مدرسة شرعية للبنات.

م.هـ.

1.1.ر القلعة–موقع اختياري

تقع غرب مدينة القدس، محاذية للسور، وإلى الجنوب من باب الخليل.

وتقع أوقات الزيارة: بين (الساعة 8 صباحا– الساعة 5 بعد الظهر)؛ ويجب شراء تذكرة دخول.

تعد القلعة واحدة من أهم معالم بيت المقدس، وتشكل مثالا نموذجيا للعمارة العسكرية الإسلامية. وقد بنيت في موقع إستراتيجي للدفاع عن مدخل المدينة الغربي. وأحد الأسباب المباشرة في اختيار موقع إنشائها هو وجود تحصينات قديمة في هذا الموقع. ويعود مبنى القلعة–كما يظهر اليوم–إلى عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، حيث أمر بإعادة بنائها عام 710هـ/1310-1311م. وقد ورد هذا التاريخ في نقش تأسيسي فوق المدخل الرئيسي الشرقي، وفقاً للباحث السويسري الشهير ماكس فان برشام عام 1894، ولكن هذا النقش اختفى منذ ذلك الحين. وقد ذكر المؤرخ المصري المعروف أحمد القلقشندي سنة 756- 812 هـ/ 1355- 1418م أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمر بتجديد القلعة عام 716هـ/1316-1317م؛ لتكون حصناً عسكريا تتمركز فيه حامية المدينة، ومقرا للإدارة المملوكية في مدينة القدس. هذا واستنتج عالم الآثار

البريطاني جونز، الذي أجرى حفريات أثرية في الموقع خلال الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين، أن السور الخارجي للقلعة، بما في ذلك الأبراج، يعود إلى العصر المملوكي المبكر. ويمكن مشاهدة أساليب مشابهة لذلك في قلعة الكرك والشوبك في الأردن. ويحتوي المبنى كذلك على أجزاء مبكرة من العصور الهلينية والرومانية والإسلامية الأولى، وأجزاء أخرى أضيفت لاحقا في العصر العثماني.

ومخطط القلعة عبارة عن مستطيل غير متجانس مكون من أسوار ضخمة وخمسة أبراج عالية، وتحيط به تحصينات خارجية وخندق. والمدخل الرئيس للقلعة يكون عبر البوابة الخارجية الشرقية التي أضيفت بأمر من السلطان العثماني سليمان القانوني عام 939هـ/ 1532-1533م. وهي تؤدي إلى البوابة الرئيسة الداخلية عبر جسرين، حيث يمتد الجسر الخشبي الأول فوق الخندق الذي يقود إلى التحصينات، ومن ثم عبر جسر حجري يمتد فوق خندق داخلي. ويعلو مدخل البوابة الداخلية برواز حجري من المرجح أنه كان يحتوي على نقش القلعة التأسيسي المفقود. وينعطف المدخل إلى اليمين ثم إلى اليسار، حيث يؤدي إلى غرفة ذات تخطيط مثمن وتعلوها قبة فيها طاقة مقببة للتهوية.

ويتم من هذه الغرفة تسلق سلم حجري إلى سطح البرج الشمالي الشرقي الملقب بـ "برج داود"، والذي يرجح أن تاريخه يعود إلى زمن هيرودوس (37-4 ق.م.). ومن أعلى البرج هناك منظر جميل للمدينة القديمة، ولا سيما الحرم الشريف.

هذا، وقد كشفت الحفريات الأثرية التي أجريت داخل صحن القلعة عن وجود مقطع سور وبرجين مربعين يعودان إما إلى القرن الثاني أو الأول ق.م.، وبرج دائري ومقطع سور يعود إلى العصر الأموي (41-132هـ/ 661-750م). وقد حولت قاعة الطابق العلوي للبرج الجنوبي الغربي إلى جامع في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وذلك إستنادا إلى نقش لا يزال موجودا في الحائط الشرقي لقاعة الجامع. كما ويوجد أيضا نقش آخر في الجدار نفسه يشير إلى إنشاء برج في القلعة من قبل الملك الأيوبي المعظم عيسى عام 610هـ/ 1213-1214م، وكلاهما ليس في مكانه الأصلي. وقد رمم هذا الجامع بأمر من السلطان العثماني سليمان القانوني عام 938هـ/ 1531-1532م، حيث أضيف إليه محراب ومنبر جميلان ومئذنة. إلا أن المئذنة بشكلها الإسطواني الحالي قد تم ترميمها في الفترة التي كان فيها محمد باشا حاكم فلسطين العثماني عام 1065هـ/ 1655م.

مخطوطات مكتبة المسجد الأقصى

د. يوسف النتشة

كانت فلسطين في مقدمة مراكز العلم والثقافة الإسلامية منذ بدايات الفتح الإسلامي وحتى العهد العثماني. وكان لمكانة القدس الدينية في الإسلام، وللمسجد الأقصى، ولانتشار المدارس حول الحرم الشريف، أثر واضح في تشجيع الفقهاء والعلماء على زيارة القدس والإقامة فيها. وانتشرت حلقات النقاش وتم دراسة كثير من المواضيع، والتي كان منها الفقه، واللغة، والشعر، والعلوم اللسانية والدينية، والتفسير والحديث.

وقام العديد من العلماء المحليين والوافدين من أجزاء العالم الإسلامي بكتابة المؤلفات الخاصة بهم في فلسطين، وشجعوا تداولها بين التلاميذ. وأحضر بعض العلماء مؤلفات مخطوطة من القاهرة ودمشق وبغداد ومكة والمدينة. ونشأ العديد من المكتبات التابعة للمؤسسات العامة أو المكتبات الشخصية. ومن أبرز هذه المكتبات كانت مكتبة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ومكتبة الشيخ محمد الخليلي.

ونظرا لما تعرضت له المدينة من مشاكل ونكبات، فقد تبعثر عدد كبير من هذه المخطوطات وتعرضت للتلف والضياع، مما حدا بالمجلس الإسلامي الأعلى إلى تأسيس مكتبة حديثة عام 1340هـ/1923م لتضم ما تبقى من هذه المخطوطات. وقد تنقلت هذه المكتبة في جنبات المسجد الأقصى حتى استقرت في "مسجد النساء"، إلى الشرق من القاعة الشرقية للمتحف الإسلامي.

ويعود تاريخ هذه المخطوطات إلى فترات زمنية متعددة من العصر المملوكي والعثماني، وأقدمها مؤرخ للقرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. وتغطي هذه المخطوطات مواضيع إسلامية متعددة، مثل علوم القرآن من تجويد وتفسير وعلوم الحديث ومصطلحه، وأصول الدين، والتصوف والآداب الشرعية والفقه، وفروع الفقه الأربعة، واللغة العربية وآدابها، والتاريخ والفلسفة، والفلك والحساب.

ورغم الجهود الخيرة التي بذلت للعناية بهذه المخطوطات، وذلك بتبخيرها مرتين في العام، وفي وضع ثلاثة فهارس لها من قبل أمين المكتبة، فإن هذه المخطوطات تعاني من الرطوبة، وبحاجة إلى صيانة دورية، والى ترميم دقيق. ولسد هذا النقص، فقد قامت مؤسسة التعاون، وبالتنسيق مع دائرة الأوقاف الإسلامية، بإعداد مشروع لإنشاء مركز حديث في القدس لصيانة المخطوطات وترميمها . والمشروع الآن قيد الإنجاز، وسيكون مقره في المدرسة الأشرفية، والتي كانت مقر مكتبة الأقصى حتى مطلع عام 1421هـ/2000م. ويقوم الطرفان (دائرة الأوقاف ومؤسسة التعاون) بالتعاون مع معهد الترميم الإيطالي في فلورنسا، وبإشراف منظمة اليونسكو، لإنجاز هذا المشروع. وقد قام العديد من الطلاب بالتطوع للحضور إلى القدس والمساعدة في معالجة المخطوطات وصيانتها.

نافذة – المشاريع المائية في الحرم الشريف

د. يوسف النتشة

ذكر الله تعالى الماء في القرآن قائلا: "وجعلنا من الماء كل شيء حي". ونظرا لشح الماء في القدس وفلسطين، فقد كان له دور أساسي في اختيار موقع أول نواة للمدينة، فقد تحكم نبع الماء الوحيد في المدينة (عين سلوان)، في موقع نواة مدينة القدس. ونظرا لاستخدام الماء للإيفاء بشروط الطهارة (الوضوء) الواجب توافرها عند أداء المسلم لصلواته الخمس اليومية، فقد اكتسب الماء أهمية دينية في الإسلام. وحيث إن الحرم الشريف هو واحد من أقدس المعالم الاسلامية، وموضع الإسراء والمعراج، فقد استقطب منذ أوائل العهد الإسلامي وحتى اليوم، عددا كبيرا من الزوار من سائر أنحاء العالم الإسلامي، خاصة في شهر رمضان والمناسبات الدينية المختلفة. ولهذا السبب عمد المسؤولون إلى ثلاث وسائل لتأمين الماء الضروري من أجل بقاء أمتهم، وتمكينهم من القيام بعبادتهم وشعائرهم. الأولى: حفر مجموعة من الآبار والخزانات في الحرم وتهيئتهما. والثانية: مد القنوات من منابع المياه القريبة وإيصالها للحرم. والثالثة: بناء مجموعة من الأسبلة في الحرم وفي المواقع الواقعة حوله. وتراوح عدد هذه الآبار، ووفقا للمصادر التاريخية، ما بين 22-37، موزعة في الحرم الشريف، بعضها عميق وبعضها الآخر ضحل، وتحوي هذه الآبار مجتمعة حوالي عشرة ملايين جالون من المياه. ويمكن تمييز هذه الآبار ، فأغلب هذه الآبار لها خرزة حجرية أو رخامية بارزة عن مستوى الأرضية، وبعضها يجاوره حوض حجري أو بني فوقه قبة أو سبيل. ولقد نشأ حول هذه الآبار الكثير من القصص والحكايات، كبئر الورقة التي يقال إن اسمها اتخذ من حادثة نزول شخص إلى البئر يبحث عن دلوه، فصادف أسفل البئر بابا يفتح إلى حديقة، فدخل إليها وأخذ ورقة من أشجارها، وصعد فعرفت البئر لاحقا ببئر الورقة. وكان مصدر هذه الآبار هو من مياه المطر. وكانت هذه الآبار تؤمن المياه ليس فقط لزوار الحرم بل لأهل القدس أيضا. لكن وفي فترات الجفاف، لم تكن هذه المياه كافية، مما دفع القائمين للبحث عن مصادر أخرى للمياه. وكان الحل بالاستفادة من مياه الينابيع المجاورة، والواقعة إلى الجنوب من القدس عند قرية إرطاس، والتي استغلت مياهها إبان العصر الروماني، وقد جلبت المياه للحرم بوساطة قناة ماء صبت في سقاية أنشأها السلطان الأيوبي الملك العادل عند حد الحرم الغربي. وتشير المصادر التاريخية إلى أن هذه القناة، والتي عرفت بقناة السبيل، قد تم ترميمها في عهد المماليك على يد الأمير تنكز، ثم السلطان قايتباي. وإضافة إلى تعمير القناة، فقد تم بناء العديد من الأسبلة في العصر الأيوبي والمملوكي في الحرم الشريف، نذكر منها صهريج المعظم عيسى، وسبيل شعلان، وسبيل إبراهيم الرومي، لكن أجمل هذه الأسبلة هو سبيل قايتباي، والذي يقع مقابل المدرسة الأشرفية. وبنيت أسبلة على طرز مختلفة في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني، وبلغ عددها ستة أسبلة توزعت داخل الحرم وحول مداخله الرئيسة، وجميعها أمثلة رائعة على الأسبلة الحائطية، كما تم بناء أسبلة أخرى على الطراز المملوكي، صاحبها صيانة مستمرة لقناة السبيل.



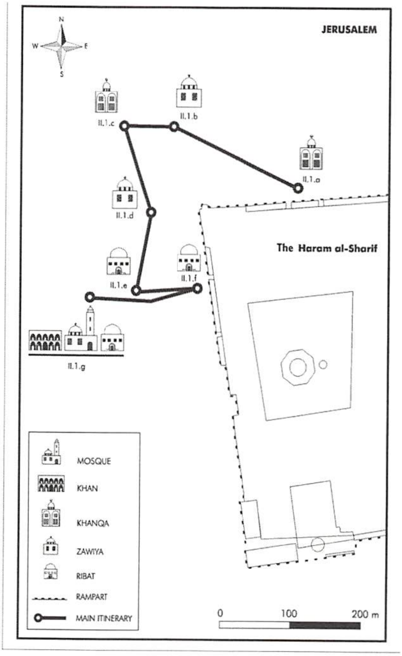
المؤسسات الصوفية في بيت المقدس

د. يوسف النتشة

1.11 القدس

1.11.أ الخانقاة الدوادارية
1.11.ب الزاوية الخلوتية (الحمراء)
1.11.ت الخانقاه المولوية
1.11.ث الزاوية القادرية (الأفغانية)
1.11.ج رباط بايرام جاويش
1.11.ح الرباط المنصوري
1.11.خ خاصكي سلطان

أسواق القدس
التحصينات والبوابات



الزاوية الخلوتية، المئذنة، القدس. (الصفحة المقابلة)

"يا كافي يا شافي" نداء ورجاء موجه إلى الله تعالى من عباده الصالحين المؤمنين، الذين يطلبون من الله أن يكفيهم المصائب، أي أن يبعد عنهم المصائب، وأن يشفيهم من الأمراض والعلل. ومع أن هذه العبارة هي صلاة شائعة عند عباد الله المؤمنين كافة، إلا أنها في صميم جوهر الفلسفة الصوفية، والطريق نحو السعادة الحقيقية بعد عبادة الله. وعليه، يهدف هذا المسار (وكما هو مبين في العنوان) إلى التعريف بنماذج من المؤسسات الصوفية التي انتشرت في القدس.

وقد مر التصوف في الإسلام بمراحل كثيرة، ففي بداياته كانت المساجد والبيوت الشخصية مقرا للصوفية وأتباعهم. وعندما أضحت الصوفية لاحقا عامة ومشتركة، إستلزمت وجود مؤسسة (مقر). وبدأت ملامح هذا التطور بالنسبة للقدس في العصر الأيوبي، وتوسع هذا النوع من المؤسسات وتنوع في العصر المملوكي والعثماني. وعرفت هذه المؤسسة بعدة أسماء، أشهرها وأولها كان "زاوية"، وهي عربية الأصل، وثانيا "خانقاة"، وهي لفظة فارسية الأصل، وثالثا "رباط". وأيا كان الاسم الذي أطلق على مبنى الصوفية، فإنه لا يوجد فارق كبير في التخطيط المعماري أو النظام الإداري والمالي بين هذه المباني.

ويتكون هذا المسار من ثمانية مواقع تمثل طرقا صوفية مختلفة، يعود أغلبها للمرحلة العثمانية، وعدد منها يعود للمرحلة المملوكية. وبينما شهد العصر العثماني توسعا وانتشارا في الطرق الصوفية، فإن معظم المؤسسات المملوكية دمرت بسبب انتهاء وقفها، وبالتالي نقص التمويل عنها. وبالرغم من أن المراجع التاريخية تفيد بوجود فرق صوفية قبل الاحتلال الصليبي، غير أن أقدم ما وصلنا من المؤسسات الصوفية يعود إلى عصر الأيوبيين.

إن التفاصيل المعمارية لأية مؤسسة تعكس عادة غنى الفترة وفلسفتها التي بنيت خلالها، وبالطريقة نفسها، كانت المؤسسة الصوفية تتألف تقريبا من الأقسام التالية: مجموعة من الغرف الصغيرة توفر جوا من الوحدة والتفرد للصوفي، وقاعة كبيرة لاجتماع الصوفية وجلساتهم، وأحيانا كان يتوافر مسجد صغير للصلوات والدعاء والدرس والوعظ ، ومطبخ متواضع ومرافق ، ومئذنة لإيصال نشاط الزاوية للمجاورين، وهي بمثابة الأداة الإعلامية للطريقة الصوفية، وساحة مفتوحة، قد يكون جزء منها حديقة صغيرة مزروعة بالأشجار والورود، وأخيرا بئر لتجميع مياه المطر. وقد تضمنت هذه المؤسسات نظام الوقف الإسلامي، الذي حدد علاقتها مع السلطة القضائية والتنفيذية، كما حددت الشروط التي تنظم إيرادات المنتسبين لهذه المؤسسة ونفقاتهم ورواتبهم وواجباتهم وصلاحيتهم.

1.11 القدس

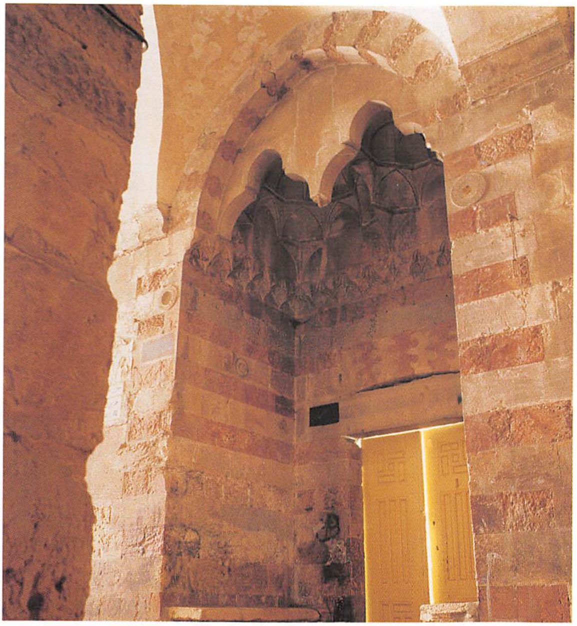
1.11أ الخانقاة الدوادارية

تقع إلى الجنوب من المدرسة السلامية في طريق باب العتم المتفرع من طريق المجاهدين.

وتمنع الزيارة حاليا لأن الموقع تشغله مدرسة للتعليم الخاص.

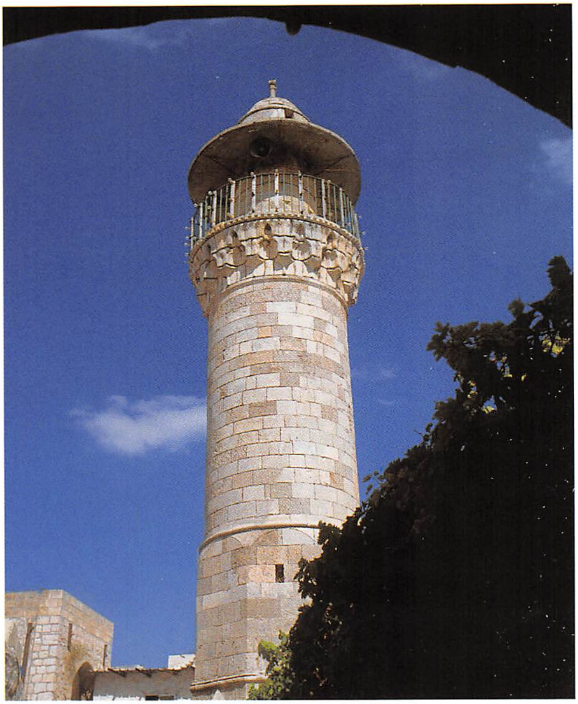
إن الوصول للدوادارية سهل لا يحتاج إلى عناء كبير، فالسير قليلا إلى الغرب من باب الأسباط، والانعطاف يسارا في طريق باب العتم، يؤديان لمشاهدة مدخل الدوادارية. لكن يحتاج الزائر إلى قليل من الوقت حتى تتكيف عيناه مع الظلام الذي يكتنف المنطقة، وحتى يتبين له جمال مدخل المبنى ومكوناته وواجهته الغربية.

والدوادارية التي تعرف، حسب كتابتها التأسيسة، بدار الصالحين، وإلى عهد قريب أطلق عليها اسم المدرسة البكرية (نسبة إلى أبي بكر الصديق، الخليفة الأول)، استمدت اسمها الأصلي (الدوادارية) من مؤسسها الأمير علم الدين أبو موسى الدوادار. وكانت مهمة إنشاء المراكز الصوفية إحدى الوظائف الهامة في عصر المماليك، والتي يتولاها الأمراء الكبار، وقد ولي الأمير علم الدين سنجر واحتل عدداً من المواقع الإدارية والعسكرية والعلمية، وتعاقب على خدمة سلسلة من السلاطين المماليك، كبيبرس (658هـ-676 / 1260-1277)، والناصر محمد بن قلاوون (حكم ثلاث فترات). وعرف عن علم الدين تعاطفه مع الصوفية ورعايته للعلم والعلماء حتى شبّه بيته بمسجد.



الخانقاة الداودارية، المدخل، القدس.

وتقدم الكتابة التي تعلو المدخل، معلومات هامة عن تاريخ الخانقاة ومصادرها المالية. فقد تأسست عام 695هـ / 1295-1296م لإيواء ثلاثين نفرا من الصوفية من العرب والعجم، منهم عشرون عازبا وعشرة متزوجين، وأن تستضيف الزوار من طائفة الصوفية لمدة عشرة أيام. واشترط أيضا أن يتم تدريس الحديث الشريف، والقرآن الكريم والمذهب الشافعي فيها. ولضمان استمرارية هذه الخانقاة في دورها ولتأمين المصاريف الجارية لها، فقد تم تزويدها بأوقاف سخية، منها قرية بيرنبالا شمالي القدس، وقرية حجلة بالقرب من أريحا، وعدة عقارات أخرى في القدس ونابلس وبيسان.



الزاوية الخلوتية، المئذنة، القدس.

وتتميز الدوادارية بأصالة تصميمها وروعة فنها المعماري، فمدخلها الذي فتح في الواجهة الغربية هو تحفة معمارية فريدة في عمارة القدس، بالرغم من وجود أمثلة مشابهة له في عمارة دمشق. وقد بني من المداميك الحمراء والرمادية اللون (الأبلق)، وهو يمتد حتى مستوى بداية القبو الذي يغطي المدخل المتراجع. ويعلو فتحة المدخل عتب حجري يليه مباشرة عقد تخفيف مؤلف من صنج معشقة. ويعلو العقد شريط الكتابة المذكور أعلاه، ثم يليه ثلاثة صفوف من المقرنصات الحجرية الجميلة التشكيل. ويتقدم صفوف مقرنصات طاقية المدخل عقدان ثلاثيان فتحاتهما مدببة، ويتقدمهما عقد مدبب مشكل من صنج معشقة ملونة.

ويؤدي المدخل مباشرة إلى ساحة مكشوفة مستطيلة الشكل مبلطة بالبلاط الحجري الكبير الحجم. وتحاط الساحة من الشمال والجنوب بخلوات صغيرة الحجم كانت مكان سكن المتصوفة، في حين أن الجهة الجنوبية محاطة بقاعة كبيرة مستطيلة مكونة من ثلاثة أقسام، فتحت في القسمين الجانبيين من الخارج نافذتان لكل منهما عتب يعلوه عقد تخفيف مكون من أحجار معشقة، وفوق العقد بنيت نافذة دائرية. أما القسم الأوسط، ففيه بني مدخل تذكاري يفضي إلى داخل هذه القاعة، التي استخدمت كمكان لتدريس الحديث والقرآن، ومكان لاجتماع الصوفية الذين كانوا مقيمين في هذه الخانقاة.

1.11.ب الزاوية الخلوتية (الحمراء)

تقع الزاوية الخلوتية في القسم الشمالي من البلدة القديمة، في الجهة الغربية لطريق المئذنة الحمراء، قريبا من عقبة البسطامي، يمكن زيارة الداخل بعد الاستئذان من الموظفين فيها، وأفضل الأوقات لذلك قبل صلاتي الظهر والعصر.

مع أن الطريقة الصوفية الخلوتية وجدت في القدس في العصر المملوكي ، إلا أن تأسيس مبنى هذه الزاوية تم في أوائل العصر العثماني في 939هـ/ 1532-1533م، حيث تدل وثيقة وقفية في سجلات محكمة القدس الشرعية على تخصيص ريع أراضٍ في أنحاء

مختلفة في القدس؛ للإنفاق على مصالح هذه الزاوية وعلى القائمين عليها.

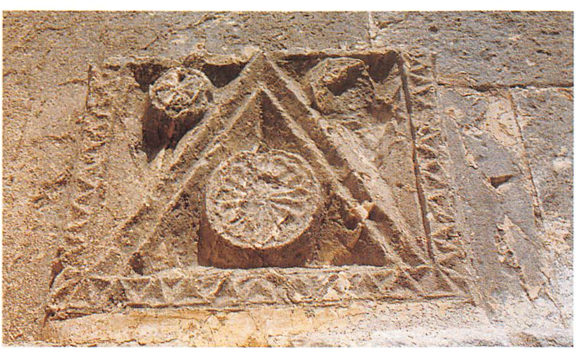
وتنسب هذه الزاوية إلى الشيخ علاء الدين أبو الحسن، الذي كان مندرجا في سلك الطريقة الخلوتية ومن أقطاب الصوفية في القدس في القرن العاشر هـ / السادس عشرم. فقد لقب "بقدوة الراشدين وزبدة الصلحاء الناسكين". وقد لعب أصحاب ومريدو هذه الطريقة، خاصة من نسل الشيخ علي، دورا بارزا في حياة القدس الاجتماعية والدينية. فقد تولى بعضهم المناصب الكتابية، فضلا عن مواصلتهم تولي إدارة هذه الزاوية ورعاية أوقافها. فعبد القادر شلبي كان كاتبا لوقف بيرام جاويش.

وقد لفت مسلك الشيخ علي المتقشف وورعه نظر الأمراء المتنفذين، مما أدى إلى رعايتهم للشيخ وللزاوية، وذلك بإيقاف الأراضي والعقارات، مثلما فعل حاجي بيك وقاسم بيك، حاكما نابلس وصفد في النصف الأول من القرن العاشر / السادس عشر.

ولكن –للأسف– لم يتبق إلا الجزء اليسير من مرفقات الزاوية الخلوية. فقد اختفت خلاوي الصوفية، والمسجد الأصلي وقاعة الذكر، وغيرها من المرافق، كالطاحونة وحانوت الحياكة، اللذين كانا من ضمن أوقافها. ومساحة الزاوية الحالية هي أقل كثيرا مما كانت عليه، حيث يبدو أن أملاك هذه الزاوية ومرافقها امتدت جنوبا حتى نهاية الطريق، عند ما يعرف اليوم خطأ بمسجد الشيخ ريحان.

ومع هذا، فإن ما بقي من الزاوية، والمتمثل في الساحة المكشوفة والمئذنة الجميلة، يعطي تصوراً عن جمال الزاوية. فالساحة الحالية مستطيلة الشكل، وتوجد فيها بئر ماء ووحدة مراحيض، وهي مزروعة بالأشجار والورود. وتقع المئذنة في الجهة الشمالية الشرقية من الساحة المكشوفة، حيث تنتصب غير متصلة بمبنى المسجد الحالي الذي أسس حديثا أواخر القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي. ويبلغ ارتفاع هذه المئذنة حوالي 18م، وهي مبنية من الحجارة البيضاء اللون، والتي تحولت بفعل الزمن إلى الرمادي، ويتخلل هذه المداميك بعض الأحجار ذات اللون الأحمر. وللمئذنة قاعدة مربعة، تحمل جذعاً إسطوانيا رشيقا. وتقوم شرفة المؤذن، حيث كان يقف المؤذن ليصدح بالآذان، على مقرنص على شكل كابولي. والشرفة مستديرة تنتهي بقبة صغيرة عليها مظلة لتحمي المؤذن من الحر والمطر. والمسجد عامر تقام فيه الصلوات الخمس كل يوم حين ينادى من مئذنته للصلاة.

الزاوية الخلوتية، تفاصيل المئذنة الزخرفية، القدس.



1.11.ت الخانقاة المولوية

تقع الخانقاه المولوية في شمالي البلدة القديمة من القدس، إلى الشمال قليلا من منتصف الطريق المعروف بطريق المولوية، الواصل بين طريق المئذنة الحمراء من الشرق والطريق الرئيس لحارة السعدية.

يمكن زيارة الموقع في ساعات النهار بعد الاستئذان من القاطنين هناك، ومن الموجودين في القاعة السفلية.

يرجع تاريخ وحدات المولوية المعمارية الى عدة فترات زمنية، حيث تعود قاعة مسجد الخانقاه، وعلى وجه اليقين إلى الفترة الصليبية، وأما القاعة التي في مستوى الشارع فقد تكون قبل الفترة الصليبية بقليل، وهناك عدة وحدات سكنية في الطابق الثاني من الفترة المملوكية، في حين أن المئذنة، وقاعة السماع خانة، التي تقع في الطابق الثالث، تعودان إلى القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.

الخانقاة المولوية، المدخل، القدس.



وكانت وظيفة هذا المجمع دينية، سواء حينما كان كنيسة في الفترة الصليبية (كنيسة سانت آجنس)، أو حينما تحول إلى مسجد. وقد تعمقت هذه الوظيفة في العصر العثماني، عندما أضحت مقرا للطريقة الصوفية المولوية في القدس. وتنسب هذه الطريقة إلى الصوفي الذائع الصيت، مولانا جلال الدين الرومي، المدفون في مدينة قونية في تركيا. واشتهرت هذه الطريقة بغطاء الرأس الطويل، وبمصاحبة الموسيقى والرقص الإيقاعي لجلساتهم الصوفية. وقد بقيت هذه الطريقة نشطة في القدس حتى أوائل القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي، إلا أنها ضعفت وتلاشت في النصف الثاني من ذلك القرن، فتحول كثير من مرافق الزاوية إلى دور سكن، لكن لا زالت الصلوات اليومية تؤدى في المسجد، ويرتفع من أعلى المئذنة الآذان.

وساهم العديد من الأمراء في رعاية مجمع المولوية وتطويره، وأخرهم كان أمير الأمراء خداوردي بيك الشهير بأبي سيفين حاكم لواء القدس سنة 995هـ / 1586-1587م، الذي أضاف الطابق الثالث الذي يحتوي على قاعة السماع خانة، حيث كان يجلس الصوفية لذكر الله وللتعبد حسب الطريقة المولوية. وزود خداوردي المولوية بوقف سخي نقدي بلغ 500 قطعة ذهبية، ومن ريع هذا الوقف حصل وفر كبير جدا في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، بعد صرف سائر الرواتب ونفقات ادارة الوقف، والتي

كان من ضمن موظفيها ناظر للوقف، وإمام، وشيخ، ومقرئ للقرآن، ومؤذنان، وفراش، وشعال، وبواب.

والواجهة الغربية للمبنى متواضعة، يقع في قسمها الشمالي باب يقود إلى قاعة مستطيلة كبيرة فتحت ورممت مؤخرا. وفي وسط هذه الواجهة باب معلق، يؤدي عبر عدة درجات، إلى ساحة مكشوفة غير منتظمة الشكل، تتوزع حولها وحدات الخانقاة المختلفة. ويقع مسجد الخانقاة إلى الشمال من الساحة، وهو مستطيل الشكل، يتشكل من ثلاثة أروقة. وتغطي هذه الأروقة أقبية متقاطعة تستند على صفين من الدعامات الكبيرة، وعندما تحولت هذه القاعة إلى مسجد أضيف محراب في وسط الجدار الجنوبي. وتلاصق المئذنة الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد، ولها قاعدة كبيرة. أما بدن المئذنة فهو إسطواني الشكل على نمط المآذن العثمانية القلمية، لكنه هنا أقل رشاقة من تلك المآذن، ويغلب عليه الطابع المعماري المحلي. وفي الساحة قبر للشيخ علي أحد المنتمين للطريقة المولوية، ويوجد الى الجنوب منه غرفة تنخفض أرضيتها عن مستوى أرضية الصحن، فيها قبور لثلاثة من أقطاب المولوية. ويتوصل للسماع خانة، التي تطل على البلدة القديمة، ولمدخل المئذنة عن طريق عدد من الدرجات. كما يوجد فوق عتب مدخلها كتابة تأسيسية تذكر تاريخ الإنشاء واسم المؤسس خداوردي. ولقد زار الرحالة المتصوف عبد الغني النابلسي المولوية، وترك لنا وصفا حيويا عن الموقع وعن الذكر والموسيقى اللذين أدتهما طائفة المولوية على شرف زيارته للخانقاة.



الزاوية القادرية، الواجهة الرئيسية، القدس.

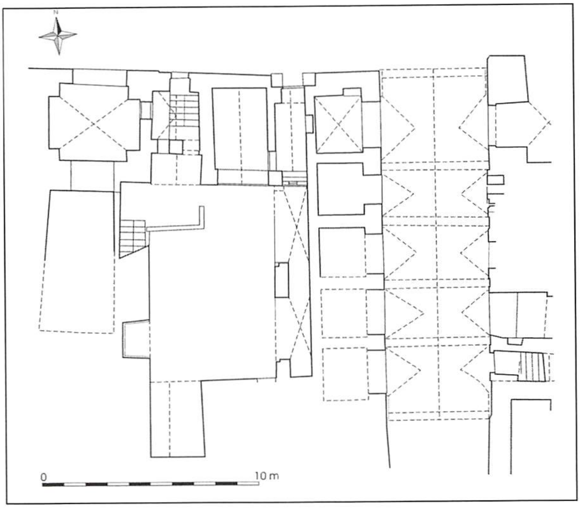
1.11.ث الزاوية القادرية (الأفغانية)

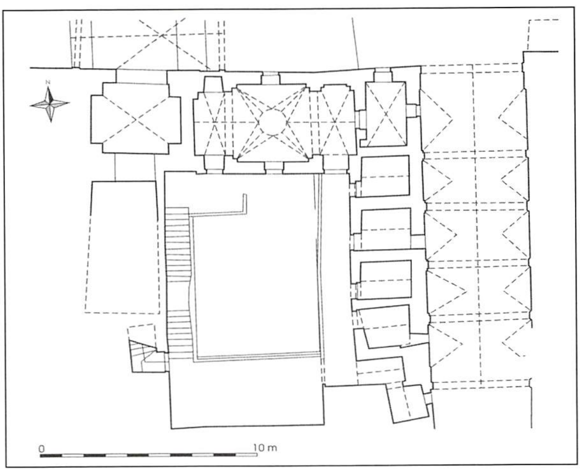
تقع في طريق برقوق المتفرع من طريق باب الغوانمة أحد أبواب الحرم الشريف.

والدخول إليها بحاجة إلى ترتيب مسبق مع شيخ الزاوية.

إن الاستدلال على القادرية سهل، لأنها المبنى العام الوحيد والمميز بمدخله الذي يقع في الجانب الشمالي من طريق برقوق. واستمد اسم القادرية من اسم الشيخ عبد القادر الجيلاني، مؤسس الطريقة الصوفية القادرية ورائدها في العالم الإسلامي. وتعرف هذه الزاوية اليوم باسم الزاوية الأفغانية، لإقامة

رباط بايرام جاويش، مخطط الطابق الأول، القدس.





رباط بايرام جاويش، مخطط الطابق الأرضي، القدس.

مجموعة من أفغان القدس فيها في العقود الماضية، ونظرا لأن من تولى إدارتها مؤخرا كانوا من تلك الجماعة.

وقد حافظت الزاوية القادرية على نسيجها المعماري الأصيل، وعلى كونها لا زالت تقوم بوظيفتها الأصلية، حيث لا يزال مريدوها يحرصون على الالتقاء مع شيخهم الحالي الشيخ عبد الكريم الأفغاني، وذلك مرتين أسبوعيا على الأقل، بالإضافة إلى يوم الجمعة.

بنى هذه الزاوية محمد باشا، حاكم القدس، سنة 1043هـ/1632-1633م. واشتهر محمد باشا برعايته للمؤسسات الصوفية في القدس، واهتمامه بعمارة القدس وتطورها المعماري، ودفعه حبه للقدس الى الاستقرار فيها بعد تقاعده. وخصص محمد باشا لزاويته مبلغا كبيرا من المال للنفقات الجارية، وحتى يكفل استمرارية الدخل، فقد اشترط أن يستثمر المبلغ في التجارة، وان يتم تأمين المصاريف المطلوبة من واقع الربح السنوي.

وللزاوية القادرية واجهتان خارجيتان، الأولى غربية لها شبابيك صغيرة الحجم لتأمين إضاءة طبيعية لخلوات الزاوية، والثانية جنوبية، وهي الواجهة الرئيسة، وتحتوي على المدخل الوحيد للزاوية. وإذا ما قورن هذا المدخل مع مدخل الداودارية، نجده بسيطا ولا يرى منه سوى عقده المدبب. ويرتفع مدخل القادرية عن مستوى أرضية الشارع بثلاث درجات، وله مسطبة حجرية على كلا جانبيه، ويعلو المدخل كتابة تأسيسية، ذكر فيها اسم الزاوية وطريقتها، واسم صاحب الطريقة وتاريخ البناء.

ويؤدي المدخل عبر ممر قصير إلى ساحة مكشوفة مستطيلة الشكل، الجزء الأكبر منها مزروع بأصناف متعددة من الأشجار والنباتات، مما يتفق والوصف الذي ورد

في الوقفية قبل أربعة قرون. ويحيط بهذه الساحة من الجنوب والغرب إحدى عشرة خلوة صغيرة للصوفية. وتقع مرافق الخدمات للزاوية وقاعة الاجتماعات الخاصة بالصوفية في الجهة الشمالية، وهي مكونة من طابقين، الأرضي الأصلي، في حين أضيف العلوي لاحقا ليؤوي شيخ الزاوية. ويوجد للزاوية مسجد معلق يقع إلى الشرق من المدخل ويتوصل إليه بواسطة درج.

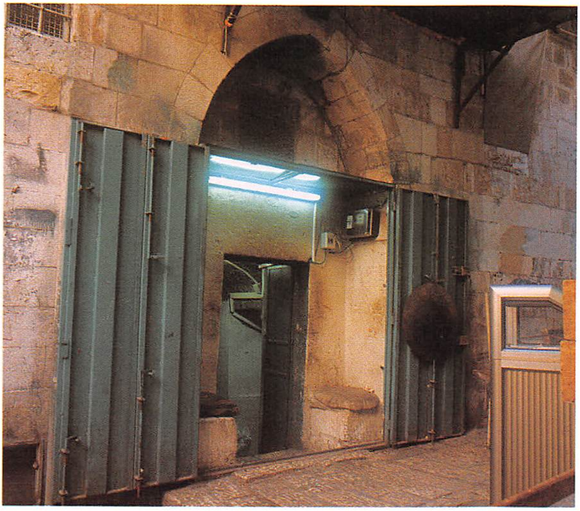
1.11.ج رباط بايرام جاويش

يقع الرباط عند الزاوية الجنوبية الغربية لمفرق الطرق، حيث تلتقي طريق عقبة التكية وطريق باب الناظر مع طريق الواد، ويتعذر زيارة الداخل لأنه الآن دار سكن ومدرسة.

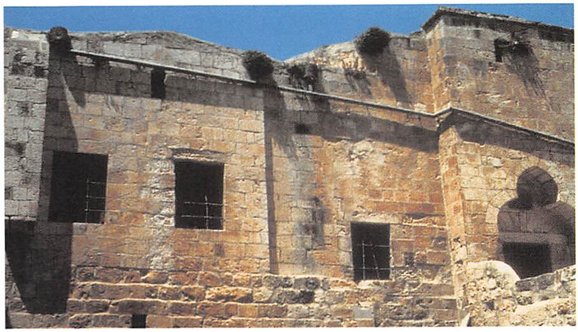
ذكرت كتابة تأسيسية ثبتت فوق مدخل الرباط أن تاريخ الانتهاء من إنشاء الرباط هو 20 ربيع الأول من سنة 947هـ/ 25 تموز 1540م، وأن الأمير بايرام جاويش بن مصطفى هو الذي قام ببنائه لتوفير السكن للفقراء.

ومع أنه لا توجد ترجمات عربية للمصادر التاريخية المتداولة لبايرام جاويش، إلا أن ما ورد في وثائق سجلات محكمة القدس يزودنا بمعلومات وافية عن هذه الشخصية الهامة في تاريخ القدس في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي. فلقد تقلد بايرام عدة مناصب عسكرية ومدنية هامة في القدس. وشمل نشاطه في القدس نواحي اجتماعية واقتصادية ومعمارية وإدارية. فمن نشاطه، على سبيل المثال، أنه تولى إدارة مجمع خاصكي سلطان بطريقة حازمة وأمينة. وأشرف على تعمير الماوردية، وعلى اتمام حمامي السلطان التابعين لوقف خاصكي سلطان، وعاقد معماريين على إصلاح قناة للمياه. كما تاجر بالصابون، والسكر، والسمن، والعقارات، والأراضي في جميع أنحاء فلسطين والشام، وسافر إلى مصر لجلب معماريين للعمل في سور القدس بتكليف من محمد النقاش، المشرف على بناء السور. هذا بالإضافة إلى إنشاء دار خاصة به وبيت للأيتام والرباط موضوع البحث.

ولرباط بايرام جاويش واجهتان، الرئيسة جنوبية فتح فيها مدخل الرباط، وتقع على طريق عقبة التكية، والثانية شرقية تطل على طريق الواد. ومبنى الرباط الحالي مكون من ثلاثة مستويات، المستوى الأول والثاني أصليان، بنيا زمن بايرام، بينما أضيف الثالث



مدخل رباط بايرام جاويش، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان).



رباط بايرام جاويش، الواجهة الداخلية، القدس (حقوق الطبع Mهاملتون بيرغوين).

في فترة لاحقة غير مؤرخة. ويضم المستوى الأول وبعد المدخل مباشرة ممرا صغيرا مستطيلا، يؤدي إلى ساحة مكشوفة محاطة من الشمال والشرق والجنوب بخلوات صغيرة لإقامة الفقراء والصوفية. ويتكون المستوى الثاني من ساحة مكشوفة صغيرة، يتوصل إليها عبر درج من ساحة المستوى الأول، وكذلك من ممر يوصل أولا إلى ست خلوات، ومن ثم إلى قاعة تتشكل من ثلاثة أجزاء.

1.11.ح الرباط المنصوري

يقع الرباط في الجهة الجنوبية من طريق باب الناظر بالقرب من مدخل الحرم الشريف .



رباط المنصوري، منظر للمدخل من الخارج ، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان).

وزيارة الرباط ممكنة طيلة ساعات النهار.

يعود تاريخ الرباط إلى الفترة المملوكية، وقد تأكد ذلك بواسطة كتابة تأسيسية محفوظة في أعلى الجدار الجنوبي لمدخل الرباط، التي تنص بأن السلطان المنصور قلاوون هو الذي أمر ببناء هذا الأثر في القدس، سنة 681هـ / 1282-1283م، وذلك لإيواء حجاج القدس وفقرائها. وقلاوون هو من سلاطين المماليك المشهورين ممن أرسوا دعائم الدولة المملوكية في مصر والشام، فقد تولى الحكم (678هـ-689 / 1279-1290م) بعد السلطان بيبرس. وبالرغم من أن معظم نشاطات قلاوون المعمارية تركزت في القاهرة، إلا أنه كان للمدن التي لها مكانة دينية كالقدس والخليل نصيب من هذا النشاط، فقد أنشأ رباطا وبيمارستان في الخليل، ولكن معظم هذه العمائر اندثرت.

ولا توجد هناك سجلات للتفاصيل الإدارية والمالية والاجتماعية الخاصة بهذه المنشأة، ولكن تشير بعض الوثائق إلى أنه قد خصص لهذا الرباط ريع عدد من العقارات الواقعة في أنحاء مختلفة في فلسطين، إضافة إلى أن هذا المبنى قد أسس من قبل أعلى شخصية في الدولة المملوكية، مما مكنه من الاستمرار في وظيفته طيلة الحقبة المملوكية وحتى نهاية العصر العثماني، حين أقام في هذا الرباط طائفة من المسلمين الأفارقة الذين قدموا للإقامة في القدس، ولا زالوا مقيمين في هذا الرباط، وهناك إمكانية مؤكدة في أن يصادف الزائر للرباط بعضا منهم جالسين أمام

رباط المنصوري، من الداخل، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان).





رباط المنصوري، الواجهة الداخلية، القدس (حقوق الطبع، ارشيف كريس ويل، دائرة الفن الشرقي، متحف اشمولين، اكسفورد).

مدخل الرباط، وهم عموما ودودون جدا، وإلقاء التحية عليهم سيشكل مقدمة لطيفة للاستئذان لزيارة بعض مرافق الرباط. وقد استخدم الرباط لاحقا كسجن، وهذا يفسر سبب تسميته باسم حبس (سجن) الرباط. وللرباط واجهة معمارية تطل على طريق باب الناظر، وهي مكونة من طابقين: سفلي يرجع في تاريخه إلى العصر المملوكي، وعلوي يعود في تاريخه إلى العصر العثماني. ولا يزال بالإمكان مشاهدة جمال هذه الواجهة، المتمثل في نسق الشبابيك ولون حجارتها (الأبلق)، والعقد المدبب الكبير الذي يتقدم المدخل، والإطار الزخرفي الذي يفصل بين قسمي الواجهة، والعقد العلوي المزخرف بحلية الفارس. ويعكس مخطط الرباط الداخلي وظيفته الأصلية، ويضم ثلاث وحدات معمارية هي: الأولى، مدخل تذكاري مستطيل تنخفض أرضيته، المفروشة بالبلاط الحجري، قليلا عن مستوى أرضية الطريق، وعلى جانبيه الشرقي والغربي توجد مسطبة حجرية كبيرة وقبو متقاطع، وتقوم في جداره الجنوبي اللوحة الكتابية المذكورة أعلاه. أما الوحدة المعمارية الثانية فهي عبارة عن قاعة كبيرة مستطيلة تقع إلى الشرق من المدخل السابق، ويتوصل إليها بوساطة ممر. وتقسم هذه القاعة الرئيسة إلى قسمين بوساطة صف من أربعة أعمدة، تحمل عقودا مدببة. وقد استضافت هذه القاعة العديد من الحجاج الذين وفدوا للقدس من أنحاء مختلفة من العالم الإسلامي، وأعيد تأهيلها حاليا لتخدم العديد من الأغراض المختلفة إضافة إلى النشاطات الثقافية. أما الوحدة المعمارية الثالثة فهي ساحة كبيرة مكشوفة، تقع إلى الغرب من مدخل الرباط، وهي محاطة بمجموعة من الغرف والخلوات المختلفة الأحجام، إحداها فيه قبر. ونزل في هذه الغرف والخلوات خلال عدة قرون أعداد كبيرة من المجاورين والفقراء من القدس ومن أجزاء مختلفة من العالم الإسلامي. ولا تزال تشكل اليوم بيوتا للعديد من أحفاد ونسل بعض الطوائف التي اختارت الإقامة في المدينة المقدسة. ونظرا للظروف الاجتماعية والاقتصادية الصعبة التي يمر فيها سكان



مجمع السلطان خاصكي، يظهر من الأمام القبر والقصر، أما في الخلفية فتظهر قبة الصخرة وجبل الزيتون، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان).

المدينة، فقد تم إضافة أجزاء حديثة للساحة مما شوه جمالها.

1.11.خ خاصكي سلطان

يقع مجمع خاصكي سلطان في قلب البلدة القديمة لمدينة القدس، في وسط الجهة الجنوبية من طريق عقبة التكية التي توصل بين طريق خان الزيت غربا، وطريق باب الناظر شرقا.

زيارة القسم الخارجي متيسرة طيلة أوقات النهار، أما الداخل فيلزم التنسيق مع المسؤولين عند المدخل الجنوبي.

لقد استغرق بناء مجمع خاصكي سلطان حوالي أربع سنوات (959هـ-963/ 1552-1556م)، وهو أكبر مؤسسة خيرية في القدس.

المجمع كبير جدا وله مدخلان، الشمالي يقع في طريق عقبة التكية، بينما يقع الجنوبي في طريق عقبة السرايا. وتعني التكية في لغة أهل القدس العامية، مكان الأكل المجاني، بينما تعني السرايا مقر الحاكم أو الوالي، نسبة إلى مقر المحافظ العثماني قبيل الانتداب البريطاني (1917-1948).

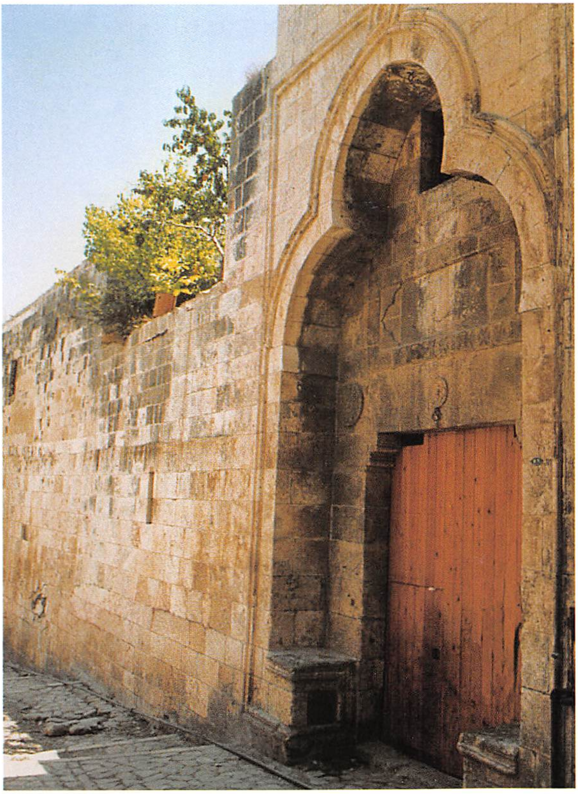
ينسب هذا المجمع إلى روكسلانه (Roxelane) زوجة السلطان العثماني سليمان القانوني (926-974/ 1520-1566)، والتي تعرف باسم خُرم (Khurrem) أي الضاحكة أو المرحة. لكنها تعرف في المصادر العثمانية باسم خاصكي سلطان، حيث يعني أثيرة السلطان أو محبوبة السلطان.

لقد أوقفت خاصكي سلطان على مشروعها الخيري الاجتماعي العديد من الأوقاف، لتكفل لأنشطته دوام البقاء والاستمرارية. وقد كان الدخل الناتج لحوالي 30 بلدة وقرية فلسطينية وغير فلسطينية يحوّل إلى ميزانية هذا المشروع. وأضيفت إلى هذه القرى أربع قرى إضافية من وقف السلطان سليمان القانوني لدعم الوقف بعد وفاة زوجته خاصكي سلطان. لقد كانت هذه القرى موزعة على عدة مناطق وولايات في غزة ونابلس والقدس وصيدا وطرابلس الشام.

ويتألف المجمع من أربعة أقسام، بعضها لا زال قائما:



مجمع السلطان خاصكي، المدخل الشمالي (منظر جانبي مع الطريق)، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان).



مجمع السلطان خاصكي، المدخل الشمالي، القدس (حقوق الطبع M هاملتون بيرغوين).

1) خان كبير لنزول المسافرين والتجار، ويتألف من مدخل كبير يفضي إلى ممر على جانبيه غرف، والممر يؤدي إلى ساحة مكشوفة محاطة من جهة الغرب والشرق بأروقة كونت الخان المذكور، ويمكن مشاهدة هذه الأجزاء اليوم من المدخل الجنوبي مع بعض التغير في الاستخدام.

2) مسجد ذو قباب وعقود لإقامة الصلوات وقراءة القرآن، والدعاء للواقفة بحسن أعمالها. ولا يعرف اليوم على وجه الدقة أين موقع هذا المسجد، وإن كان يرجح أن بعض أجزائه قد تهدمت، وأن يكون مطعم الطلاب الحالي قد بني فوقه.

3) رباط مؤلف من 55 غرفة لإقامة الصوفية والفقراء والزائرين لبيت المقدس، ولا يعرف موقع هذا الرباط. ويبدو أن أغلب الغرف قد تهدمت وتحولت إلى مرافق أخرى، وقد يكون موقعه حيث تقوم الآن دار الطباعة، إلى الشرق من المدخل الجنوبي.

4) مطبخ كبير اُلحق به فرن وطاحونة وعدة مخازن وسبيل لتوفير المياه العذبة للمقيمين. وهذه الأجزاء كلها موجودة ويمكن مشاهدتها بعد الدخول من الباب الشمالي إلى ساحة مكشوفة، والتوجه شرقا عبر عدة درجات. ولا يزال المطبخ يقدم الشوربة اللذيذة يوميا في الصباح بالإضافة الى الأرز واللحم في شهر رمضان وكل يوم ثلاثاء، رغم أن كل أوقاف هذه المؤسسة قد توقفت منذ مدة طويلة.

لقد أشرف على إدارة هذه المؤسسة مجموعة من كبار موظفي الإدارة العثمانية. وكان متولي الوقف يرسل من استانبول مباشرة، وكان يعاونه وتحت إدارته حوالي خمسين موظفا، كل منهم موكل بوصف وظيفي مفصل ومحدد حسب شروط الوقفية. فقد كان هناك شخص يشرف على غسيل الكؤوس، وآخر لتنقية الأرز، وكان هناك طباخان وثلاثة مساعدين لهم، بالإضافة إلى مرمم وعامل صيانة للحفاظ على المبنى. وبالإضافة الى مصاريف النفقات الجارية، بلغت رواتب هؤلاء الموظفين السنوية ما يقرب من 795.5 درهما فضيا.

نافذة-أسواق القدس

د. يوسف النتشة

امتازت المدن الإسلامية في العصور الوسطى بأسواقها الهامة مثل سوق خان الخليلي في القاهرة، وسوق الحميدية في دمشق، وسوق الصفافير (النحاسين) في بغداد، والسوق المصري في إستانبول. وفيما يخص القدس فقد كان هناك العديد من الأسواق التي ورد ذكر بعضها في يوميات الرحالة. وأشهر هذه الأسواق سوق القطانين. ومن أسواق القدس الأخرى، سوق خان الزيت، ويمتد من الشمال إلى الجنوب، حيث يبدأ من مفرق الطرق الذي يقع على بعد عدة أمتار جنوب باب العامود، ليصل إلى ما يعرف اليوم باسم سوق العطارين. وقد تميز هذا السوق، حتى مطلع القرن الماضي، بكثرة المعاصر والمصابن؛ وكل معصرة كان فيها مخزن كبير لزيت الزيتون، ومنها جاءت التسمية على الأغلب. وسوق خان الزيت سوق طويل، امتدت الحوانيت على جانبيه، وجزء من هذا السوق مسقوف مما يشكل حماية لرواده من الحرارة والمطر. وهناك ايضا سوق العطارين، الذي يشكل امتدادا لسوق خان الزيت باتجاه الجنوب، فهو من ضمن ثلاثة أسواق متلاصقة يعود تاريخها إلى المرحلتين المملوكية والعثمانية، وقد يعود بعض من أساساتها لفترة الصليبيين، حيث أظهرت الحفريات والمكتشفات الأثرية أنها أقيمت على أنقاض سوق سابق من المرحلتين الرومانية والبيزنطية. وهذا السوق مسقوف بأقبية متقاطعة تتوسطها فتحات للتهوية والإضاءة، وحينما تمر خطوط أشعة الشمس من خلال هذه الفتحات، وتنعكس على البضائع المعروضة في الحوانيت ذات الألوان المتعددة، فإنها تضفي على هذا السوق جوا شرقيا يتصف بالحيوية والمتعة، وتجعل من المرور فيه تجربة شيقة. كان هذا السوق، والى فترة قريبة، مخصصا لمحلات العطارة العربية والشرقية، لكن تطور القدس وانفتاحها على الحياة الحديثة، قلل من هذه المحال لتصبح الآن لا تزيد على ثلاثة محال تجارية.

وبالتوازي مع سوق العطارين من الغرب ومن الشرق، وعلى امتداده نفسه، هناك سوقان آخران لهما التخطيط والنسيج المعماري نفسهما، الغربي ويعرف بسوق اللحامين، نظرا لكثرة الحوانيت التي تختص ببيع جميع أنواع اللحوم، وقبل نصف قرن كان جزء كبير من حوانيت هذه السوق تختص بأعمال الحدادة العربية التقليدية التي تعتمد على الطرق والكور والنفخ، وبأعمال النحاس والطرق للمعادن الأخرى، وقد اشتهر بهذه الأعمال مجموعة من طائفة الأرمن المقيمين في القدس. وأما السوق الشرقي، فقد ظل الجزء الجنوبي فقط منه ظاهرا، لأن القسم الشمالي بحاجة إلى كشف، ويعرف باسم سوق الخواجات أي التجار.

وتوفر أسطحة هذه الأسواق الثلاثة مجتمعة، مراقبة ممتعة للبلدة القديمة بمساجدها وكنائسها ومبانيها، ويمكن الوصول إلى الأسطح عبر سلم عند نهاية سوق العطارين بعد أن ينعطف الزائر يساراً ويمر على نهاية سوق اللحامين، وبعدها يتجه جنوبا عند ما يعرف باسم سوق الحصر.

نافذة - التحصينات والبوابات

د. محمود هواري



باب المغاربة، يقع في الجزء الغربي من سور القدس، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي).

تعد أسوار بيت المقدس من أهم ملامح المدينة، وما زالت تحافظ على طابعها الأصيل منذ مئات السنين. ولقد تعرضت تحصينات المدينة الدفاعية إلى الهدم الجزئي وإعادة البناء والترميم مرات عديدة طوال تاريخها. وكانت المرة الأخيرة التي تضررت فيها بشكل كبير خلال الحروب بين الأيوبيين والصليبيين في بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي. ومع وصول المماليك إلى السلطة، بعد هزيمة الصليبيين بفترة، لم يلجأ الحكم المملوكي الجديد إلى تحصين أسوار المدينة، واكتفى بإعادة بناء القلعة وتحصينها لتكون مركزا عسكريا وإداريا.

أما أبواب المدينة فقد بقيت على سابق عهدها، وظلت تستخدم منفذا إلى المدينة وخارجها طوال العصر المملوكي. وقد ذكر مؤرخ القدس مجير الدين الحنبلي (901هـ/ 1496م) أسماء تسعة أبواب كانت تستخدم في زمنه، وهي: باب المغاربة؛ باب صهيون؛ باب السر؛ باب المحراب؛ باب الرحبة؛ باب دير السرب؛ باب العامود؛ باب الداعية؛ و باب الأسباط.

وقد جددت الأسوار والأبواب الحالية وأعيد بناء أجزاء كبيرة منها على يد السلطان العثماني سليمان القانوني ما بين السنوات 944هـ-947 / 1537-1541م. ويتطابق مسار هذه الأسوار بصورة كبيرة مع الأسوار التي أحاطت بالمدينة في العصر الأيوبي (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي). ويبلغ طول الأسوار بأضلاعها الأربعة حوالي 4018 م ويتراوح ارتفاعها بين 11.6-12.2 م. وتحتوي الأسوار على 35 برجا، و 17 سقاطة،



باب العامود، يقع في الجزء الشمالي من سور القدس، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي).



برج اللقلق، منظر عام، القدس.

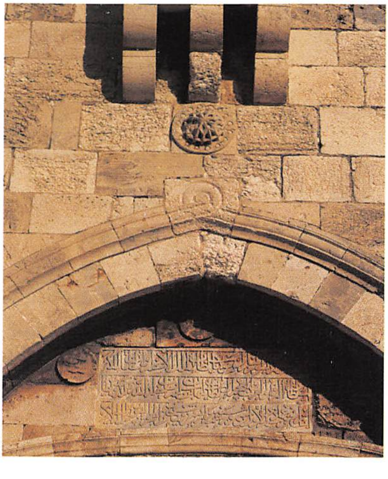
و344 طاقة للرماية، و16 نقشا كتابيا، وعدداً كبيراً من الرصائع الزخرفية.

ويوجد في أسوار المدينة اليوم سبعة أبواب مفتوحة هي: باب الخليل في السور الغربي، وباب الجديد، وباب العمود، وباب الساهرة في السور الشمالي، وباب الأسباط في السور الشرقي، وبابا المغاربة والنبي داود في السور الجنوبي.

هذا ويتسنى للزائر التجول حول الأسوار، فيما عدا القسم الواقع بين باب الأسباط ومقبرة باب الرحمة، إذ يحتاج الزائر إلى إذن خاص من دائرة الأوقاف الإسلامية أو من حارس المقبرة. ويمكن الصعود على الأسوار بعد شراء تذكرة خاصة من باب الخليل أو باب العامود، والتجول فوقها لرؤية معالم المدينة القديمة وقطاع الأسوار العلوية. وعلى الزائر، إذا ما رغب في الصعود إلى الأسوار، أن يلبس حذاء مناسبا لتفادي الانزلاق، و أن يتزود في فصل الصيف بقنينة من الماء وطاقية للحماية من أشعة الشمس.



القلعة، منظر عام من الداخل، القدس.



باب الخليل، تفاصيل، القدس.



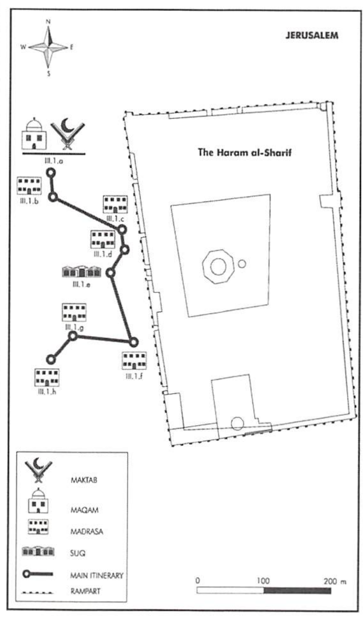
بيت المقدس- مركز العلم والمجاورة

د. يوسف النتشة

1.111 **بيت المقدس**

1.111.أ مكتب ومقام بايرام جاويش
1.111.ب المدرسة الماوردية (الرصاصية)
1.111.ت المدرسة والخانقاه الجوهرية
1.111.ث المدرسة الأرغونية
1.111.ج سوق القطانين
1.111.ح المدرسة التنكزية
1.111.خ المدرسة الطازية
1.111.د المدرسة الطشتمرية

نظام الوقف في بيت المقدس
يوميات طالب في مدرسة



المدرسة الماوردية، المدخل، تفاصيل، القدس.

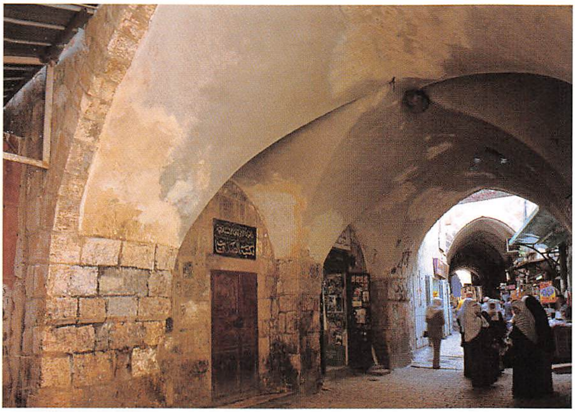
يعد "الحج (الزيارة) والصوفية والعلم" الأركان الثلاثة التي ميزت فلسطين والقدس. وقد جاء ترتيب هذا المسار بعد المسار الثاني، والذي استكشف الصوفية في القدس، ليلقي الضوء على مراكز العلم التي وجدت وتطورت بمحاذاة الحرم الشريف.

إن مناقشة موضوع مراكز العلم بقسم منفصل هي مسألة منهجية فقط، حيث إن هناك الكثير من التداخل في مواضيع هذه المسارات، خاصة بين مراكز العلم ومؤسسات الصوفية. ومن هذه الأمور المشتركة أن بدايات كل منهما وتطوره ارتبط بالمكانة الدينية الهامة التي حظيت بها مدينة القدس في العقيدة الإسلامية. وتماثلت الشروط والنظم التي وضعت لإدارة الوقف الخاص بالمدارس والزاويا الصوفية، بعضها مع بعض، وكذلك تشابهت بعض الأنشطة الثقافية خاصة تلك التي اعتمدت القرآن الكريم والحديث النبوي. وبما أن المدارس والزوايا متقاربة بمواقعها، فإن المرء لا يستطيع أن يتفادى العودة إلى بعض الأماكن مرة أخرى لزيارة صروح أخرى مختلفة، خاصة فيما يتعلق بمفرق طريق الواد عند التقائه بطريق باب الناظر وطريق عقبة التكية، حيث يزار في المسار الثاني والثالث.

ويشتمل هذا المسار على ثمانية مواقع ونافذتين. وتتطرق النافذة الأولى إلى نظام الوقف في الإسلام وفلسطين، أما الثانية، فتتناول يوميات ونشاط طالب في معهد علمي (مدرسة). وروعي في الاختيار، ما أمكن، وحدة الموضوع. وسوق القطانين هو الموقع الوحيد الذي شذ عن عنوان المسار، لكنه مرتبط معه من حيث الزمن والأصول الفنية والمعمارية، آخذين بعين الاعتبار أن جزءا كبيرا من دخل هذا السوق خصص للصرف على المدرسة التنكزية، إضافة إلى أنه يشكل حلقة وصل بين مركزي هذا المسار– طريق باب الحديد وطريق باب السلسلة .

ويبدأ هذا المسار حيث ينتهي المسار الثاني المتعلق بالمؤسسات الصوفية. ويفضل أن ينطلق الزائر لمواقع هذا المسار من باب العامود، علما بأنه يمكن أن يبدأ من نهاية المسار(الطازية) والسير باتجاه معاكس. وأفضل الأوقات لزيارة هذه المواقع ساعات الصباح وحتى ما قبل الظهر، كون بعضها يستعمل مكاتب تغلق ابوابها في ساعات ما بعد الظهر.

ويتيح مسار مراكز العلم التعرف على قطاع مهم جدا من القدس المملوكية، فهو يركز على الأجزاء المتاخمة للحرم الشريف في طريق باب الحديد وطريق باب السلسلة، ويمكن للزائرين أيضاً الاطلاع على طوبوغرافية المدينة، وعلى التنوع المتوافر في عمارة شوارعها الرئيسة والفرعية، إضافة إلى المشاكل الملحة والمتراكمة التي تعاني منها البلدة القديمة.



مكتب ومقام بايرام جاويش، المدخل، القدس.



مكتب ومقام بايرام جاويش، المنطقة الداخلية الشرقية والتي تحمي قبر بايرام جاويش، القدس.

1.111 بيت المقدس

1.1.111أ مكتب ومقام بايرام جاويش

يقع مكتب بايرام جاويش في الزاوية الشمالية الغربية لمفرق الطرق، عند التقاء طريق باب الناظر من الشرق وطريق عقبة التكية من الغرب، مع طريق الواد.

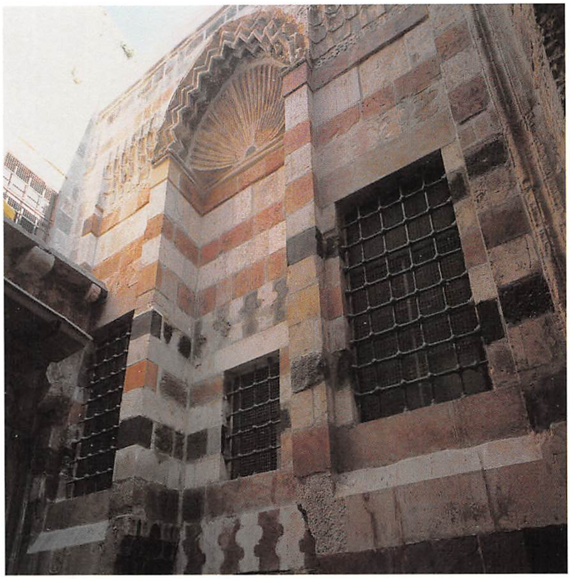
يمكن زيارة المكتب في ساعات النهار أثناء دوام موظفي مكتبة الصدقات.

تم الانتهاء من تجديد مكتب بايرام جاويش سنة 947هـ/ 1541م، وذلك حسب النقش الذي يعلو مدخل المكتب. لذا فإنه يمكن الافتراض أن الموقع كان يشغله مبنى معين، وأن بايرام قد قام بإعادة تجديد هذا المبنى ليكون مدفنا له ولعائلته، ومكتبا لتعليم الصبيان.

وعليه فإن المكتب أسس ليخدم وظيفة مزدوجة. والواقع أن التخطيط المعماري للقسم الأصلي من المكتب يخدم هذا التوجه. وقد توقف المكتب عن تعليم الأولاد منذ مدة، وبقي المكان مدفنا لبايرام، وغطي قبره بقماش لإتاحة الفرصة لاستخدام سطحه لبيع الكتب والمطبوعات الدينية من قبل لجنة الصدقات، ليذهب ريع هذه الكتب المعروضة لأعمال خيرية.

أوقف بايرام على مكتبه، في عام 948هـ/ 1543م، ريع غراس العنب والتين في الأراضي الواقعة في قرية بيت ساحور. وضم وقف مكتبه، فيما بعد، إلى وقف رباطه، مما جعل وقف بايرام جاويش ثاني أكبر وقف بعد وقف خاصكي سلطان في القدس العثمانية. وبلغ مقدار هذا الوقف 15 ألف درهم فضي، خصصها بايرام جميعها لشراء أراضٍ وعقارات في أنحاء مختلفة في فلسطين، واشترط بايرام أن يذهب ريعها لرباطه ومكتبه. فقد حدد ثلاث قطع فضية يوميا راتبا لفقيه الأطفال، ووفر له السكن المجاني، واشترط عليه تعليمهم القرآن والحديث ومبادئ القراءة.

لمكتب بايرام واجهتان تطلان على الطريق،



المدرسة الماوردية، المدخل، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان).

1.111.ب المدرسة الماوردية (الرصاصية)

تقع المدرسة الماوردية في الجهة الجنوبية من طريق عقبة التكية بين رباط بايرام جاويش من الشرق ومبنى "غير محدد" إلى الغرب. وزيارة الأقسام الداخلية غير ممكنة حالياً.

إن تاريخ إنشاء هذه المدرسة غير معروف، حيث لا توجد لوحة كتابية أو وثيقة وقفية يمكن أن تلقي قليلاً من الضوء عليها. وقد تم الاعتقاد بانها جزء من رباط بايرام جاويش، وبالتالي حددت على أنها مبنى عثماني. إلا أنه وجد أن الماوردية تحوي عناصر معمارية مملوكية وعثمانية، مما يجعل مناسبا، تحديد تاريخها ما بين نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي وبداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.

لا توجد معلومات متوافرة عن راعي هذه المدرسة وطبيعة أوقافها، فاسم المدرسة هو نسبة إلى أحد شيوخها المشهورين، وإلى فترة قريبة، كانت هذه المدرسة تعرف خطأ باسم المدرسة الرصاصية، نظرا لاستخدام مادة الرصاص في ربط مداميكها السفلية، بعضها مع بعض. وتشير وثائق المحكمة الشرعية إلى أنه كان للماوردية أوقاف كثيرة، لكنها كانت غير كافية لسد احتياجات المدرسة، مما أدى إلى الاستدانة لترميم مرفقات المدرسة على أمل السداد من الدخل المستقبلي للوقف، لكن نظرا لفشل السداد، فقد تحولت الماوردية لدار سكن، بحيث يقوم المستأجر بالتصليح والنفقة مقابل السكن لسنوات محددة،

الرئيسة، وتطل شرقاً على طريق الواد، وتحتوي على المدخل الوحيد للمكتب الذي تعلوه لوحة الكتابة التأسيسية، التي تشير إلى المؤسس وتاريخ التأسيس، والمزخرفة بالأحجار الملونة. وحجب القسم العلوي من هذه الواجهة قنطرة بنيت في فترة لاحقة لزمن بناء المكتب. أما الواجهة الثانية فهي جنوبية تطل على طريق عقبة التكية. ويتألف مبنى المكتب من طابقين. الطابق الأرضي، وهو الأصلي الذي جدده بايرام، ويتكون من قاعة كبيرة على شكل الحرف الإنكليزي T، قسمت بواسطة عقد حجري كبير إلى قسمين، يحوي القسم الأول الشرقي قبر بايرام جاويش. أما الطابق العلوي، والذي أضيف لاحقا، فيتكون من ساحة مكشوفة صغيرة نسبيا محاطة من جهتي الشرق والغرب بمجموعة من الغرف.

وبموافقة القاضي الشرعي. وكنتيجة لهذا العجز، رصد بايرام جاويش في النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ما يقرب من 3600 عثمانية (وحدة نقد فضية) مقابل أن يسكن بها بينما ينتهي من بناء بيته الخاص به، الواقع إلى الشرق من رباطه. وكذلك قام الحاج سنان الصوغنجي بالسكن في المدرسة لبعض الوقت وجدد أجزاء منها. وتستخدم مدرسة دار الأيتام الإسلامية حاليا أغلب أجزاء الماوردية فيما عدا المسجد كصفوف لتدريس طلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية.

لقد وضحت وثيقة ترميم أخرى الوحدات الخاصة بالمدرسة الماوردية، والحدود التي تفصل بين مجمع خاصكي سلطان وبين رباط بايرام جاويش، حيث تبين أن الماوردية تتكون من ثلاث غرف، وإيوان كبير مقابل للغرفة الكبيرة، ومسجد، فضلا عن ساحتين مكشوفتين. وقد تلقى مؤرخ القدس الشهير عارف العارف، صاحب كتاب المفصل في تاريخ القدس، علومه الأولية في إحدى غرف الماوردية في مطلع القرن العشرين.

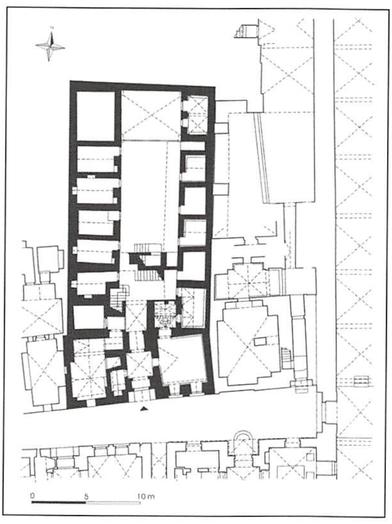
وبالإضافة إلى الوحدات الداخلية للماوردية، فهناك واجهة معمارية شمالية جميلة جدا، بنيت بأسلوب الأبلق، من حجارة سوداء وحمراء ورمادية. وفتح في وسط الواجهة مدخل متراجع قليلا عن الواجهة، تكتنفه مسطبتان صغيرتان، ويعلوه عتب حجري أحمر اللون، بني فوقه مباشرة شريط من صنج معشقة، وتنتهى طاقية المدخل بعقد له زخرفة الفارس يحيط بمحارة مشعة. ويؤدي المدخل إلى ممر موزع، في قسمه الغربي درج صاعد يوصل إلى مسجد المدرسة، وإلى بقية وحدات المدرسة المذكورة أعلاه، والتي ترتفع في مستواها عن مستوى الطابق الأرضي.

1.111.ت المدرسة والخانقاة الجوهرية

تقع الجوهرية في الجانب الشمالي من طريق باب الحديد مجاورة لرباط الكرد بالقرب من الجدار الغربي للحرم الشريف.

ويمكن زيارة بعض الوحدات الداخلية في ساعات النهار الصباحية وإلى ما بعد الظهر بقليل، وخاصة القسم التابع لدائرة الآثار الإسلامية. وعلى كل الأحوال، يجب الاستئذان من الطاقم الموجود بالمدرسة.

يعود تاريخ بناء الجوهرية إلى سنة 844هـ / 1440م، وذلك اعتمادا على كتابة تأسيسية



مدرسة وخانقاة الجوهرية، مخطط الطابق الأرضي، القدس.



مدرسة وخانقاة الجوهرية، الواجهة الجنوبية، منظر عام، القدس.



مدرسة وخانقاة الجوهرية، نافذة مزخرفة على شكل زهرة، القدس.

تعلو المدخل. وقد تم بناؤها لإيواء الصوفية والتشجيع على قراءة القرآن الكريم. ويستخدم قسم من المبنى حاليا مكاتب لقسم الآثار الإسلامية، أما بقية أجزائه فقد تحولت لدور سكن.

ومؤسس وواقف هذا الأثر هو جوهر القنقبائي، وأصله عبد خصي (طواشي) من الحبشة، كان جزءا من هدية قدمت للسلطان المملوكي برقوق (784-801هـ/ 1382-1399م) من قبل حاكم الحبشة. وتحرر جوهر لاحقا من العبودية، وتنقل في رعاية مجموعة من الأمراء متوليا للعديد من المناصب، فأصبح المشرف على خزائن السلطان الأشرف برسباي (825هـ-842 / 1422-1438م)، مما أتاح له التأثير في السياسة المالية للدولة المملوكية. وتولى جوهر الإشراف على شؤون الحريم في القصر السلطاني في 843هـ/ 1439م، ومنحه السلطان جقمق لقب شيخ مشايخ وخادم الحرم في المدينة. وتوفي جوهر عام 844هـ/ 1440م، عن عمر ناهز السبعين، بعد شهر واحد من إتمام مدرسته في القدس، ودفن في مدرسته التي أقامها في القاهرة قرب الأزهر الشريف.

وخصص جوهر لمدرسته أوقافا سخية تتناسب وحالته الميسورة، وكادر مؤسسته الطموح، وتضمنت هذه الأوقاف مجموعة من الأراضي تقع في قرية تقوع وطولكرم وفي قريتي بيت زيتون وكوفيا من منطقة غزة. وكان كادر المدرسة يتكون من ناظر، ومدير

مدرسة، وشيخ للصوفية، و25 صوفيا، وقارئ للدعاء، ومعلم لتحفيظ القرآن، و10 أيتام، وخادم، ومستخرج للغلال، وعاملين وكاتب. واشترط جوهر منح الأرامل مقدارا من الخبز يوميا، وخصص أموالا لشراء زيت للإنارة. وقدرت النفقات السنوية للمدرسة بحوالي 9600 قطعة فضية و11376 رطلا من الخبز.

وقد أدت الجوهرية في العصر المملوكي والعثماني دورا بارزا ورائدا في الحياة الثقافية والاجتماعية، فقد تولى التدريس فيها نخبة من الفقهاء العلماء الأجلاء، نذكر منهم على سبيل المثال، الشيخ كمال الدين بن أبي شريف القدسي، الذي كان من كبار العلماء، ومن أشهر شيوخ المدرسة الصلاحية. واتخذت الجوهرية كمكان لإقامة زوار القدس المهمين، فقد نزلها القاضي شرف الدين موسى الأنصاري، نائب السلطان، سنة 845هـ / 1471 م، والقاضي شهاب الدين بن جبيلات، الذي أرسل للتحقيق في حادثة بناء اليهود لكنيس في القدس بعد هدمه، حيث استقبل القاضي فيها وفدا من اليهود لسماع شهادتهم.

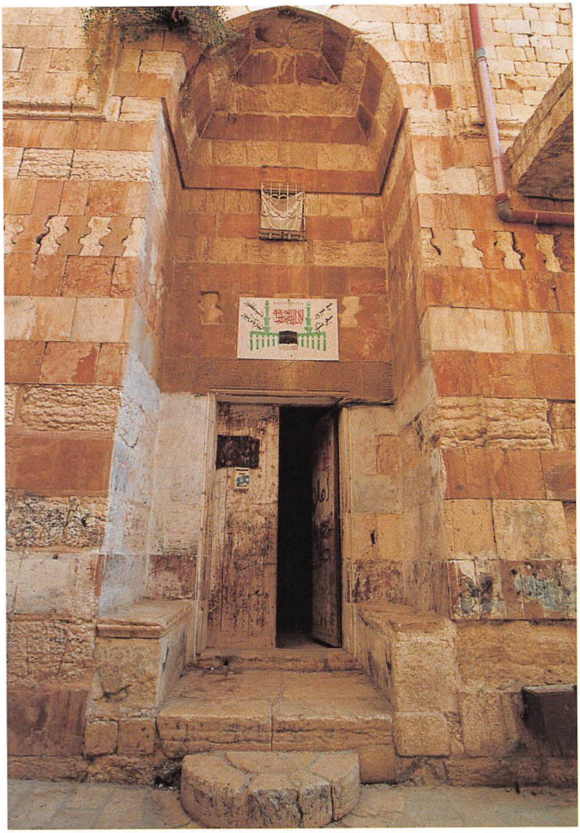
وفي آخر الأمر، أصاب الجوهرية ما أصاب أغلب المؤسسات الوقفية من مشاكل، مما أدى إلى توقف المدرسة عن دورها وتحولها إلى دار سكن في أواخر القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي. ولعل أكثر الأضرار التي أصابت الجوهرية تمثلت بما يعرف بحفريات النفق أسفلها، والتي قامت



مدرسة وخانقاة الجوهرية، نافذة مقرنصة ومزخرفة على شكل زهرة، القدس.

بها السلطات الإسرائيلية دون حق، مما أدى إلى تصدع في أركان المجمع المعماري وتشققها، الأمر الذي استدعى معالجة هندسية وفنية لوقف حالة التدهور، وحتى تاريخه فإن الجوهرية بحاجة إلى عناية مستمرة ومراقبة دائمة لوقف التدهور.

وللجوهرية واجهة جنوبية واحدة، فتح فيها مدخل يعلوه عقد مدبب يوصل عبر ممر، محاط من الشرق والغرب بغرف وقاعات، إلى ساحة مكشوفة تتوزع حولها من جهتي الجنوب والغرب مجموعة من الخلوات، في حين إن الجهة الشمالية يشغلها إيوان. ويتوصل للطابق الأول، عبر درج في الزاوية الجنوبية الغربية للساحة المكشوفة، يؤدي إلى الغرفة الأولى، وإلى مجموعة من الغرف حيث مقر قسم الآثار الإسلامية. وهناك درج آخر، يقع مباشرة إلى شرق الممر الذي يلي المدخل، يوصل إلى بقية الطابق الأول. أما



المدرسة الأرغونية، المدخل، القدس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان). (في الأعلى)

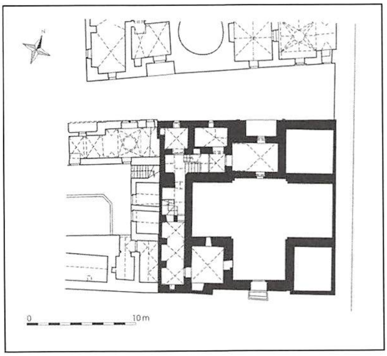
الطابق الثاني والذي يعود للفترة العثمانية، فيتم الوصول اليه عبر الطابق الأول. وتقع الخلوات فوق مثيلاتها من الطابق الارضي، ويسكن آل الخطيب في القاعات الكبرى الأخرى.

1.111ث المدرسة الأرغونية

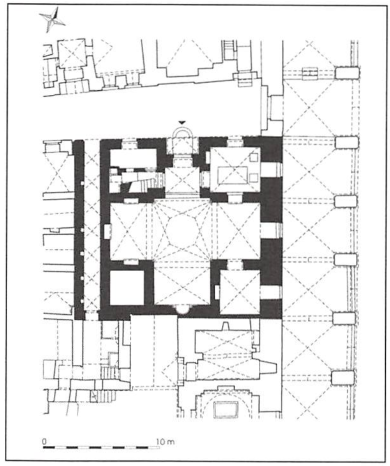
تقع المدرسة الأرغونية ملاصقة لجدار الحرم الغربي في الجانب الجنوبي عند نهاية طريق باب الحديد، الموصلة بين طريق الواد والحرم الشريف.

ويتعذر زيارة المبنى من الداخل، ولكن يمكن التمعن بجمال الواجهة الشمالية من الطريق العام في أي وقت من النهار.

أسس هذا المبنى، وحسب الكتابة التأسيسية، كمدرسة وتربة، وقد اكتمل إنشاؤه 759هـ/1358م، في عهد ركن الدين بيبرس السيفي، وذلك بعد عدة أشهر من وفاة الأمير أرغون 758هـ/1357م الذي بادر إلى تأسيس هذا المبنى. وكان أرغون من الأمراء اللامعين الطامحين في العصر المملوكي، فحينما كان عمره قريبا من سبعة عشر عاما، كان قد ترقى إلى رتبة أمير أربعين، وعرف حينها باسم أرغون "الصغير". وهذه رتبة متقدمة في الجيش المملوكي، يمر بها الأمير قبل أن يصل إلى رتبة أمير مائة، ومن ثم مقدم عريف، وهي الرتبة التي تفتح أمامه الوظائف الأميرية الهامة. وقد وصل أرغون إلى هذه الرتبة في عهد السلطان شعبان، ولذا فقد صدر مرسوم باستبدال لقبه "الصغير" بالكاملي نسبة إلى الكامل شعبان، وتوعد من يستمر بإطلاق



المدرسة الأرغونية، مخطط الطابق الأرضي، القدس. (في الأسفل)



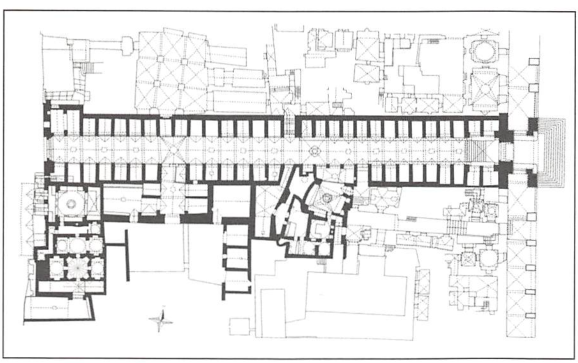
المدرسة الأرغونية، مخطط الطابق العلوي، القدس.

لقب "الصغير" بأقصى العقوبات. وتولى أرغون حكم إقليم حلب، وإقليم دمشق، وقاد جيشاً إلى إمارة ذولغادر، واستدعي لاحقا إلى القاهرة مركز السلطنة المملوكية سنة 755هـ / 1355م، واعتقل، فيما بعد، في ظروف غامضة وسجن في الإسكندرية، ثم أرسل بطالاً (منفياً) إلى مدينة القدس، حيث أقام فيها وأسس مدرسته الأرغونية.

واستقطبت الأرغونية العديد من الشخصيات الهامة، فقد تلقى القاضي سعد الدين سعد الديري (ت 867هـ / 1462-1463م) فيها دروسا في الفقه. كما أقام فيها، سنة 879هـ / 1474م القاضي غرس الدين خليل الكناني، مدرس المدرسة الصلاحية سابقا. وأصبحت الأرغونية لاحقا مقرا لحاكم القدس خضر بيك قبيل سنة 897هـ / 1491-1492م. وتشير الكثير من الوثائق من العصر العثماني الى مجموعة من التعيينات لعلماء ساهموا في ازدهار المدرسة. وقد تولى عدة أفراد من آل العفيفي وظيفة شيخ المدرسة، مما يفسر لماذا دعيت هذه المدرسة مؤخرا باسم دار العفيفي.

وفي عام 1931 / 1350 تم دفن الملك الهاشمي الحسين الأول، قائد الثورة العربية التي قامت خلال الحرب العالمية الأولى ضد الأتراك، في الإيوان الشرقي من المدرسة. وأغلب أجزاء هذا المبنى تستخدم حاليا للسكن.

وللأرغونية واجهة شمالية تكسوها حجارة معشقة متعاقبة الألوان (الأبلق)، ومدخل تذكاري متراجع قليلا ليفسح مجالا لمسطبتين تتقدمان الباب المستطيل الذي يولج منه للداخل. ويعلو هذا الباب كتابة تأسيسية سبق الإشارة إلى مضمونها، ويتوسطها شعار الجمدارية (المسؤول عن ثياب السلطان)، وهو شعار أرغون حينما تولى هذا المنصب. وإلى الشرق من المدخل تشاهد نافذة مستطيلة عليها مصبعات معدنية جميلة تعود إلى العصر المملوكي، وتلفت النظر إلى جمال تصميم الصنجة المركزية التي تعلو عتب هذا الشباك. ولمبنى الأرغونية تخطيط

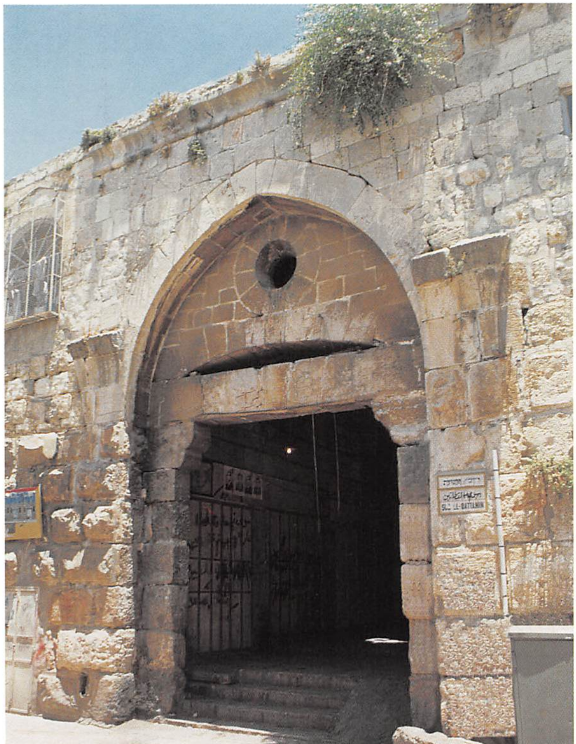


سوق القطانين، مخطط الطابق الأرضي، القدس.

سوق القطانين، المدخل الشرقي، القدس.

سوق القطانين، المدخل الغربي، القدس.





معماري متناسق يتكون من صحن مركزي مربع مغطى بقبو متقاطع، يحيط به أربعة إيوانات متعامدة عليه، أوسعها مساحة الإيوان الجنوبي.

1.111.ج سوق القطانين

يقع في منتصف الحد الغربي للحرم الشريف. ويمكن زيارة السوق في الأوقات كافة.

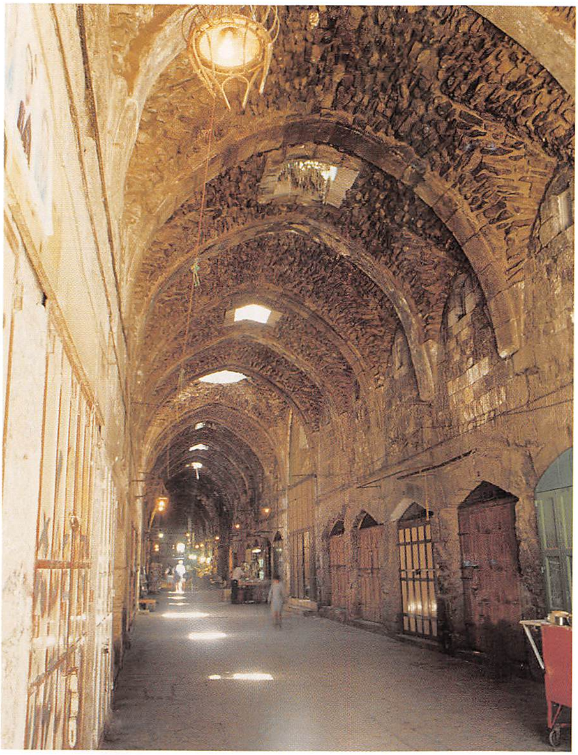
يعرف هذا المجمع اليوم باسم سوق القطانين، وهذه التسمية –والتي ترجع في أصولها إلى القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي– غير أصلية. ويطلق العامة على هذا السوق أحيانا اسم "السوق العتم" نظرا لظلمته بالمقارنة مع الأجزاء المكشوفة من الحرم الشريف.

ويعدّ هذا السوق واحداً من أكمل وأجمل الأسواق في فلسطين، واعتبره كريزول (Creswell)، عالم العمارة الإسلامية، من أروع الأسواق في بلاد الشام. ومدحه مجير الدين، مؤرخ القدس والخليل، في أوائل القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي قائلا: " ...ومن الأماكن المميزة في القدس سوق القطانين المجاور لباب المسجد من جهة الغرب وهو سوق نادر ورائع وغاية في الارتفاع".

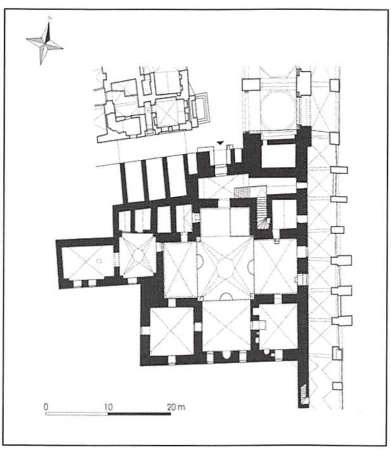
وبنى هذا السوق، الذي هو بمثابة مجمع تجاري، السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، الذي حكم في أواخر القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجريين (أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الميلاديين)، الذي

فاقت مساهماته المعمارية في القدس نشاط أي سلطان مملوكي أخر، بما في ذلك انشطة الأمير تنكز الناصري، نائب الشام المتنفذ سنة 712هـ-740./ 1312-1399م، قسم ريع حوانيت سوق القطانين مناصفة بين وقف الحرم الشريف والمدرسة التنكزية، لكن نظرا لتوقف المدرسة عن أداء دورها الآن، فإن دائرة الأوقاف الإسلامية تجبي كامل الدخل. وقد رمم هذا السوق مبدئيا، في سنة ،1974 وهناك خطط مستقبلية متعددة قيد الدراسة لترميم هذا السوق وتنشيطه اقتصاديا وثقافيا.

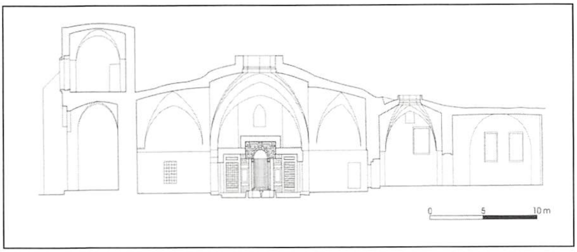
ويحتوي هذا المجمع التجاري على خان وحمامين وسوق طويل. ويمتد السوق من الشرق إلى الغرب حوالي 95م، يكتنفه على الجانب الجنوبي والشمالي صفان من الحوانيت يحوي كل صف ثلاثين حانوتا. والسوق معقود بقبو برميلي يتشكل من سلسلة من العقود، تقسم السقف إلى ثلاثين قسماً، فتح في كل واحدة منها منورٌ لإدخال الهواء والضوء إلى داخل السوق. ولهذا السوق مدخلان؛ شرقي وغربي، الشرقي منهما يشكل أحد أبواب الحرم الهامة، وقد بني بعناية فائقة وهو بحق تحفة معمارية نادرة يتكون من حنية ذات عقد ثلاثي الفصوص محاطة بحنية أخرى كبيرة متراجعة، شكلها على هيئة نصف دائرة محمولة على خمس صفوف من المقرنصات الحجرية. وقد صفت حجارة هذا المدخل بعناية على أسلوب الأبلق وألوانها سوداء وحمراء وبيضاء، وهذا التوافق في الألوان مألوف في عمارة القدس الإسلامية، خاصة في تلك



سوق القطانين، منظر عام، القدس.



المدرسة التنكزية، مخطط الطابق الأرضي، القدس.



قسم من المدرسة التنكزية، القدس.

العمائر التي تعود للفترة المملوكية. وأما الباب الغربي، فهو أبسط في تركيبه المعماري من الباب الشرقي، حيث يتكون من فتحة مستطيلة يعلوها عقد منبطح يتكون من سبع صنج معشقة بعضها مع بعض، ويعلو هذا العقد المنبطح عقد تخفيف ونافذة دائرية، وكل هذا داخل حنية طويلة تنتهي بعقد مدبب.

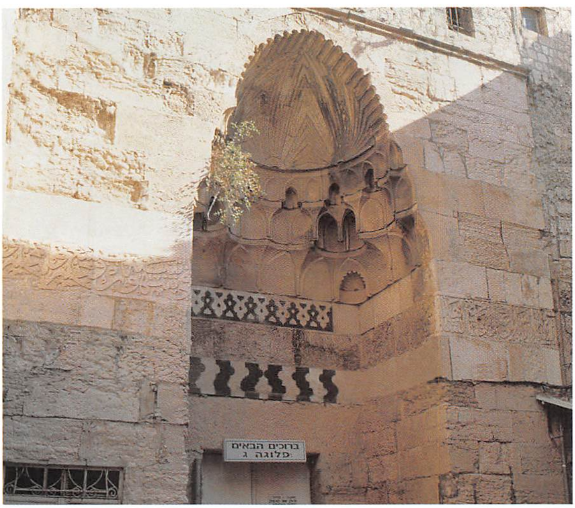
1.111ح المدرسة التنكزية

تقع في الجانب الشرقي من طريق باب السلسلة، ولا يمكن زيارة هذه المدرسة الجميلة نظرا لاحتلالها من قبل القوات الإسرائيلية، لذا فإن على الزائر أن يكتفي بمشاهدة الواجهة فقط.

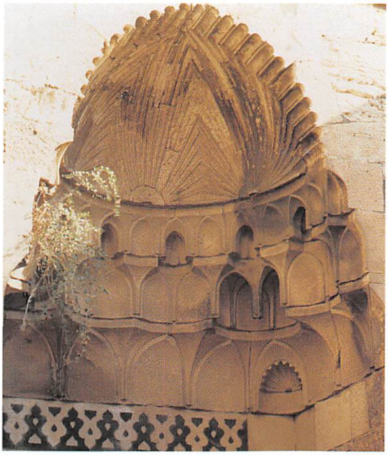
يوجد قبل بضعة أمتار من باب الحرم، ساحة مكشوفة صغيرة تشكل في الجانب الشمالي منها رباط تنكز الذي خصص للنساء، ويمكن مشاهدة سبيل السلطان سليمان القانوني (943هـ/1536م) في الجهة الشمالية الغربية، وفي خلفيته التربة السعدية (711هـ/1311م)، وأما الجزء الجنوبي من هذه الساحة فتحتله واجهة المدرسة التنكزية.

نعتت التنكزية عبر التاريخ بأكثر من اسم، فهي في كتاب الوقف خانقاة، وفي العديد من المراجع الأخرى هي مدرسة، وأما في كتابتها التأسيسية التي تعلو المدخل فوصفت بلفظ "مكان"، مما يشير إلى أنها بنيت لتكون مجمعاً معمارياً كبيراً ليخدم عدة وظائف. والواقع إن مبنى التنكزية كبير جدا ويتكون من ثلاثة طوابق.

واعتمادا على ما نقش في الكتابة التأسيسية للمبنى، فإن الذي أمر بإنشائها هو الأمير سيف الدين تنكز الناصري سنة 728-729هـ/1329م، رغبة وأملاً في الثواب والمغفرة من الله. بدأ تنكز حياته، وكغيره من أمراء المماليك، عبدا مملوكا، لكن ما لبث أن تدرج في المناصب والوظائف المملوكية حتى أصبح أعلى وأقوى شخصية إدارية وعسكرية في بلاد الشام في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد زوج أولاده



المدرسة التنكزية، المدخل، القدس. سلفرمان).



المدرسة التنكزية، تفاصيل المدخل، القدس.

من بنات السلطان، وبقي تنكز الشخصية المركزية في الدولة حتى تغير حظه وعزل سنة 740هـ / 1339-1340م.

واشتهر تنكز برعايته للكثير من المشاريع المعمارية في دمشق والقدس وفلسطين وأماكن أخرى. وتضمنت مشاريعه إنشاء المؤسسات الدينية، وبناء الخانات والحمامات، وتأمين المياه. ولا شك في أن ثروته الهائلة قد مكنته من تنفيذ هذه المشاريع العمرانية، والتي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا خاصة في مدينة القدس. فبالإضافة إلى المجمع المعماري الذي هو قيد البحث، أنشأ تنكز في مدينة القدس السوق المعروف اليوم بسوق القطانين، والذي ضم حمامين وخاناً، ورباطاً للنساء. وقد جرت في عهده عدة ترميمات للحرم الشريف.

وتضمن وقف المدرسة التنكزية قرية عين قينيا، غرب مدينة رام الله، مع جميع أراضيها، بالإضافة إلى ريع الحمامين. تعكس قائمة الموظفين في الوقفية وبوضوح الغنى الذي تمتعت به هذه المؤسسة، والدور الذي قامت به من ناحية ثقافية وتعليمية. أما مقدار رواتب الجهاز الإداري والتعليمي الشهرية بالدرهم فكانت على النحو التالي: مدرس (60)، مساعد مدرس (30)، وثلاثة مستويات من الطلبة متقدمون (20) ومتوسطون (15) ومبتدئون (10) بمجموع قدره 15 طالبا، وشيخ للحديث (40) وقارئ للحديث (20) و20 طالبا للحديث، لكل منهم (7.5)، وقارئ للقرآن (15) ومتوليان لكل واحد منهم (20) وبواب (20) ولشيخ الصوفية (60)، ولكل متصوف (10) بمجموع قدره 15 متصوفا، وللطباخ (5) والخادم (5) دراهم. هذا بالإضافة إلى مقادير محددة من الخبز وزيت الزيتون لكل منهم. ويستطيع كل متصوف زائر الإقامة لمدة عشرة أيام يمنح خلالها يوميا 1.5 درهم ونصف رطل من الخبز.

والتنكزية غنية أيضا في تفاصيلها المعمارية. فيشغل الواجهة الشمالية مدخل تذكاري فخم يتشكل من حنية متراجعة للداخل متوجة بطاقية نصف دائرية، حفر فيها زخرفة ذات حزوز تشبه حلية الفارس (chevron fluting) تشع الضوء في الاتجاهات كافة. وتستند هذه الطاقية على ثلاثة صفوف من المقرنصات. ويعلو فتحة الباب عتب كبير جدا فوقه شريط من الصنج المعشقة تعلوها الكتابة التأسيسية، التي يتخللها رنك تنكز المشكل من كأس كبيرة داخل دائرة، وهذا الشعار يشير إلى وظيفة الساقي، والتي كانت إحدى الوظائف الهامة التي شغلها تنكز



المدرسة الطازية، الواجهة الغربية، المشربية، القدس.

خلال سيرته الحافلة بالنشاط. ويشبه مدخل التنكزية مدخلا لمسجد في دمشق بناه تنكز أيضا، مما يلمح إلى بعض مصادر التأثيرات الفنية المعمارية التي تأثرت بها عمارة بيت المقدس. ويفضي المدخل إلى ممر فتح فيه باب في الجدار الجنوبي يؤدي إلى أجزاء المدرسة المكونة من صحن مكشوف محاط بأربعة أواوين وملحقات أخرى من الغرف والقاعات.

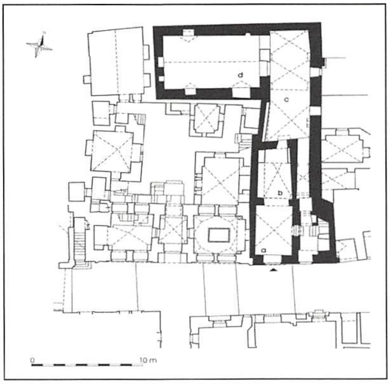
1.111.خ المدرسة الطازية

تقع المدرسة الطازية في الجانب الشمالي من طريق باب السلسلة قرب عقبة أبو مدين (زاوية المغاربة) المؤدية إلى حائط البراق. ولا يمكن زيارة داخل الموقع لأنه دار سكن.

مع أن الكتابة التذكارية في الواجهة الجنوبية فوق الشباك الرئيس تنص على وفاة الأمير طاز سنة 763هـ/ 1362م، إلا أنه لا يتوافر تاريخ محدد لزمن الوقف أو البناء. لكن اعتمادا على أدلة معمارية فإن التربة التي استخدمت كمدرسة سابقا قد بنيت على الأغلب سنة 762هـ/ 1361م.

ومؤسس هذا الأثر هو الأمير طاز، الذي كان عبداً مملوكا للسلطان الناصر محمد بن قلاوون. وشغل طاز عدة مناصب هامة في الدولة المملوكية، مثل "الساقي" أي المسؤول عن أشربة السلطان، وهو منصب حساس جدا في الدولة المملوكية، وكان رنك الساقي هو الكأس، وهذا يفسر وجود كأس في وسط الكتابة الأثرية السابقة الذكر. وبعد أن وصل الى منصب حاكم لمدينة حلب، بدأ نجمه بالأفول، فاعتقل، ثم أرسل بطالاً لاحقا إلى مدينة القدس حيث عاش فيها وأسس مدرسته موضوع البحث. وأشارت ثنايا المراجع التاريخية إلى أن الأمير طاز وأقربائه وبعض عتقائه قد عاشوا في القدس.

تشير الكتابة التأسيسة إلى المبنى على أنه تربة، إلا أن الواقع والشواهد الواردة في الوثائق يثبتان أنه كان للمبنى مجموعة من الوظائف المتعددة للفقهاء والقراء والمدرسين وغيرهم

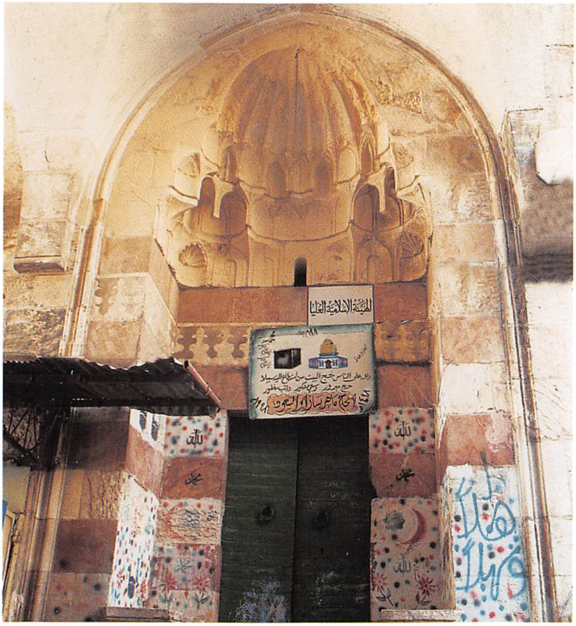


المدرسة الطازية، مخطط الطابق الأرضي، القدس.

ممن صرفت لهم الرواتب من واقع وقف المبنى. فقد أوقف طاز على مدرسته قرية المنية الواقعة إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية.

وللطازية واجهة واحدة جنوبية، قسمت إلى قسمين علوي وسفلي. السفلي فتح فيه باب بسيط يفضي إلى الداخل. وإلى الغرب من هذا المدخل يوجد شباك مستطيل الشكل، محاط بإطار غائر، مغطى بمصبعات معدنية مملوكية الطراز. ويعلو الشباك عتب نقش عليه الكتابة التأسيسية، ويوجد فوق الكتابة عتب آخر من صنج معشقة تعشيقا جميلا. وبنيت الحجارة في هذا القسم بأسلوب الأبلق. والقسم العلوي من الواجهة يمتاز بأنه متناسق الدواميك، تشغله مشربية (شرفة خشبية) من القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي، تعلوها ثلاثة شبابيك.

ويتكون مبنى الطازية من طابقين. الأول الأرضي ويتشكل من قسمين، القسم الأول (الجنوبي) يحوي على مدخل ودرج، وقاعتين، كل قاعة منهما مغطاة بقبو متقاطع. والقسم الثاني (الشمالي) مؤلف أيضا من قاعتين كبيرتين، يتوصل إليهما عبر ممر يقع إلى الشرق من كل من قاعتي القسم الجنوبي، ويضم الطابق الثاني إيوانا يؤدي إلى قاعة كبيرة ذات قبو متقاطع تطل على الشارع العام باتجاه الجنوب، ومجموعة من الغرف السكنية تقع إلى الشمال، أغلبها أعيد بناؤها في الفترة العثمانية، حيث إن بعضها مسقوف بقبة ضحلة صغيرة.



المدرسة الطشتمرية، المدخل، القدس.

1.111.د المدرسة الطشتمرية

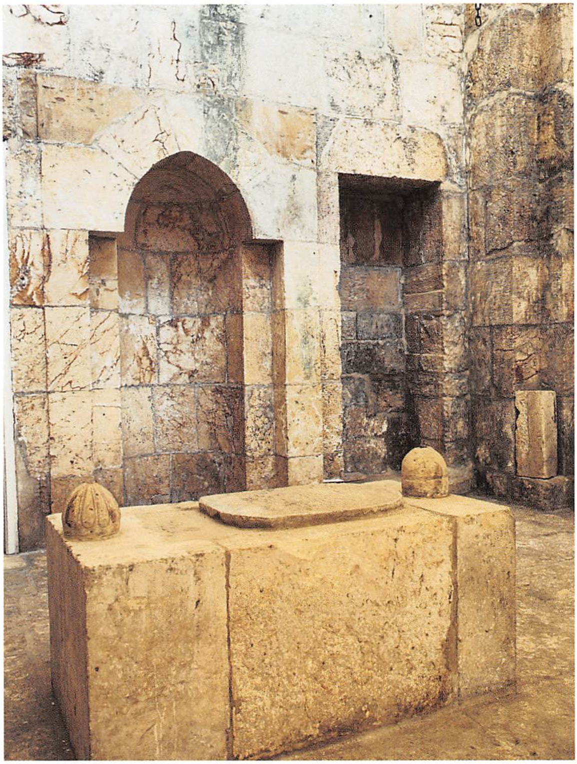
تقع المدرسة في الجهة الجنوبية من طريق باب السلسلة بين عقبة أبو مدين وطريق حارة الشرف.

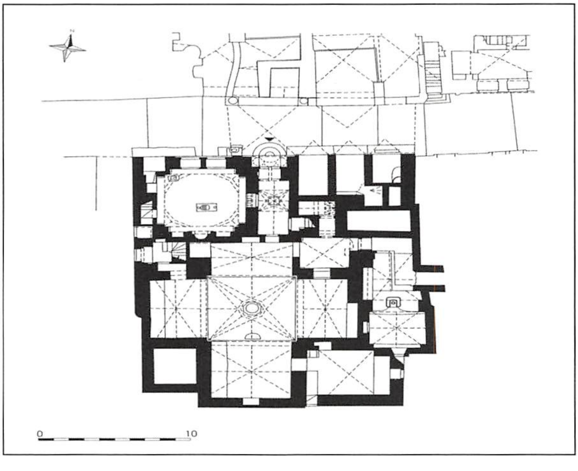
الدخول للأقسام الداخلية مسموح في ساعات الصباح بعد الإذن من الطاقم الموجود في المبنى.

إن بعد الطشتمرية النسبي عن الحرم الشريف قد تم التعويض عنه أولا بالموقع الممتاز الذي حازت علية الطشتمرية باعتبار أنها تحتل مفترق طرق، وثانيا بالمرونة وحرية الحركة التي توافرت لمصمم البناء، نظرا لتحرره من القيود التي تصاحب المباني المحدودة بعمائر وتطورات سابقة.

الصورة العلوية
المدرسة الطشتمرية، قبر طشتمر العلائي، القدس.

المدرسة الطشتمرية، مخطط الطابق الأرضي، القدس.





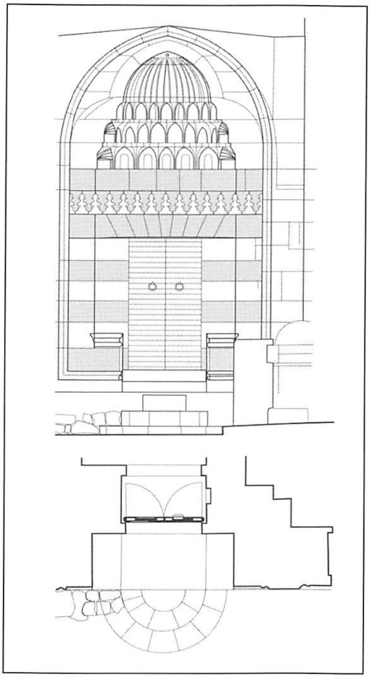
واستنادا إلى النص الذي نقش على الواجهة الشمالية، فإن الطشتمرية قد أمر ببنائها الأمير طشتمر العلائي سنة 782هـ / 1382-1383م، والذي اتصف بمجالسته للعلماء ومناظرته للفقهاء، وكان لديه شغف بالشعر والموسيقى. وتولى طشتمر خلال حياته العملية الإدارية والعسكرية عدة مناصب هامة في الدولة المملوكية، منها الدوادار الكبير للسلطان الأشرف شعبان، وحاكم نيابة صفد، وتولى منصب أتابك العساكر المصرية، ولكن في نهاية حياة حافلة، اختار طشتمر التقاعد في مدينة القدس بسبب خلافات مع الأمراء الآخرين، وعاش فيها بطالاً إلى أن توفي 786هـ / 1384م ودفن في تربته في مجمعه المعماري الذي هو قيد البحث.

أطلق مجير الدين، المؤرخ المشهور للقدس، على المدرسة اسم تربة، في حين إن وثائق المحكمة الشرعية سمتها مدرسة. أما الكتابة التأسيسية التي تعلو الواجهة الشمالية، فقد وصفتها بلفظ "مكان". ويبدو أن أنسب هذه التسميات هي الأخيرة، مع أن مكونات هذا المبنى ووحداته، تؤهلانه ليكون مجمعا معماريا متعدد الوظائف. فالمبنى له ثلاث واجهات (جنوبية وغربية وشمالية)، ومدخل تذكاري، ودركاة، وقاعة للدفن، ومدرسة بها أربعة أواوين، ومسقاة، وحوانيت، وغرف وقاعات متعددة.

والوصول إلى الداخل يتم بواسطة درجات دائرية معلقة، بنيت أمام الواجهة الشمالية والتي تتألف من قسمين: الأول غربي

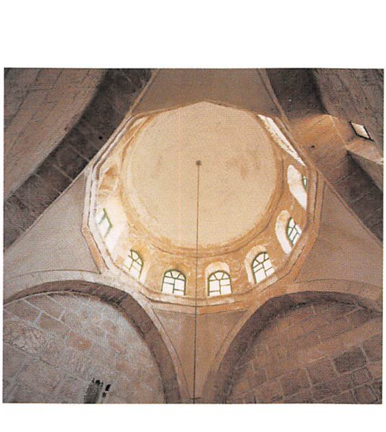
والثاني شرقي. ويشغل القسم الأول شباكان مستطيلان كبيران لهما مصبعات معدنية، يعلو كل شباك عتب، بني فوقه مباشرة صف من الصنج المعشقة المتعددة الألوان (الأحمر، والأسود، والأبيض)، يليه الشريط الكتابي السابق الذكر، ويعلو هذا الشريط صف آخر من الصنج المعشقة المماثلة للصف الذي يوجد أسفل الكتابة. وهذا كله محصور داخل إطار من الزخرفة القالبية المجوفة، وتتواصل مداميك الحجارة دون انقطاع –فيما عدا شباك لإنارة القسم العلوي من غرفة الضريح– حتى مشاهدة بدن القبة التي تعلو غرفة الضريح. ويتقدم الشباكين مسقاة صغيرة، قوامها حوض حجري مجوف، ويوجد الى الغرب حانوت صغير تعلوه شرفة حجرية تستند على أربعة كوابل، وقد تم ترميم هذه الشرفة مؤخرا. ويحتل القسم الثاني الشرقي مدخل جميل مقرنص مبني من الحجارة الملونة، بني على كل جانب من جانبيه مسطبة حجرية، وتتوّجه طاقية مؤلفة من عدة صفوف من المقرنصات.

ويوصل المدخل إلى دركاة مستطيلة معتمة مغطاة بسقف خشبي، فتح في كل جدار من جدرانها الثلاثة باب. الأول يقود إلى غرفة الضريح المربعة الشكل، وأرضيتها مفروشة بالرخام الملون، حيث يقوم في القسم الجنوبي منها قبر حجري تعلوه قبة نصف كروية، والباب الثاني الجنوبي يوصل إلى صحن مركزي يحيط بكل جهة من جهاته الأربع إيوان، الجنوبي أكبر حجما وعمقا، وفيه محراب مجوف في وسط جداره الجنوبي. وأما



المدرسة الطشتمرية، بوابة المدخل الرئيسي، مقطع طولي، القدس.

الباب الشرقي الثالث فيؤدي عبر درج صاعد إلى الطابق العلوي من هذا المجمع، حيث توجد مجموعة من الغرف المستخدمة للسكن.



المدرسة الطشتمرية، قبة حجرة الضريح، القدس.

نظام الوقف في بيت المقدس

د. يوسف النتشة

"الوقف" هو هبة مالية أو عينية منحت في الأغلب لمؤسسات وأحيانا لأفراد، عبر تاريخ مدينة القدس الإسلامي، وقد لبت هذه الهبات حاجات المسلمين الدينية والدنيوية في بناء الأماكن العامة وصيانتها مثل المساجد والمدارس والأسبلة، حيث استعمل ريعها لتقديم الدعم المالي للعلماء والطلبة والفقراء. وقد يكون هذا الوقف حصة محددة من أراضي بلدة أو قرية، أو مبلغاً محدداً من المال، أو من دخل زراعي أو صناعي. إضافة الى ذلك، يمكن للوقف أن يتعين في داخل فلسطين أو في خارجها.

ونظرا لمكانة القدس الدينية السامية في الإسلام؛ فقد بدأت بواكير الوقف الإسلامي فيها مبكرة جدا، فقد أوقف الخليفة الراشدي عثمان بن عفان (23-35هـ/ 644-656م) مياه عين سلوان (جنوب البلدة القديمة) على الفقراء. وتواصل استعمال نظام الوقف هذا في الفترات اللاحقة لحماية مصالح الحرم الشريف. وازداد الوقف وتعمم بعد أن استرد صلاح الدين الأيوبي القدس، ومن الأمثلة على ذلك: وقف المدرسة الصلاحية والبيمارستان الصلاحي في العهد الأيوبي، ووقف التنكزية والدوادارية في العصر المملوكي، ووقف (خاصكي سلطان) في العهد العثماني. ولا زال نظام الوقف ممارسا في فلسطين وإن تركز أكثره في الوقف الذري.

وجرت العادة أن يوثق الوقف عبر صدور وثيقة أو مرسوم إذا كان الواقف سلطانا، وذلك عبر نقش كتابي على لوحة حجرية، كما لوحظ في وقف الدوادارية، أو بواسطة كتاب وقف تفصيلي يسجل ويوثق ويوقع من الشهود في المحكمة الشرعية. والطريق الأخيرة هي الأشهر والأعم، وقد تمت بها أغلب الوقفيات المملوكية والعثمانية. وحتى يتم التسجيل شرعا يجب أن يبرهن الواقف على أن العين الموقوفة هي ملك شرعي له، وفي حالة إمضاء الوقف فإنه يعدّ نافذاً شرعا وقانونا ولا يجوز الرجوع عنه، وكذلك لا يجوز بيعه أو استبداله أو تعطيل شروطه إلا في حالات نادرة، شريطة موافقة القاضي وتغليب مصلحة الوقف. ويحدد عادة في كتاب الوقف الهدف والمهمة التي أسس الوقف من أجلهما، ويذكر عادة الموظفون ومقدار رواتبهم ومهامهم.

ويختلف حجم الوقف وإيراداته اعتمادا على عدة عوامل ترتبط بالواقف والموقوف وزمن الوقف، فقد كان هناك وقف لطاسة لشرب الماء. ويعدّ وقف الحرم الشريف في القدس، ووقف الحرم الإبراهيمي في الخليل، ووقف النبي موسى من أكبر وأغنى الأوقاف في الفترة المملوكية. ورغم الفوائد الجمة لنظام الوقف إلا أنه لم يأخذ في الاعتبار التضخم المالي الذي كان يصيب الاقتصاد المحلي، وساهم الخلو والحكر والإيجارة الطويلة في تقويض نظام الوقف، الذي عانى عقوداً طويلة من الرتابة وعدم التجديد.

يوميات طالب في مدرسة

د. يوسف النتشة

لم يرد في المراجع التاريخية الإسلامية المتعلقة بمدينة القدس تفاصيل ومعلومات عن حياة الطالب وأنشطته المدرسية، لكن من خلال الشذرات المتناثرة في الكتب والوقفيات، يمكن استخلاص بعض المعلومات عن الحياة المدرسية.

قبل أن يقبل الطالب في المؤسسة التعليمية، لا بد أن تتوافر لديه معارف أولية من أيام طفولته ومراهقته. فإذا كان الطالب سعيد الحظ فإنه سينشأ في بيت علم تتوافر فيه الكتب والمراجع، ويتلقى معارفه المبكرة عن طريق والده أو بعض أقاربه. وإذا كان متوسط الحظ فإنه سيولد لأب عنده مقدرة مالية، ليرتب له دروسا خصوصية، ليتلقى علومه الأولية على يد شيوخ عصره. أما إذا كان قليل الحظ، فسيتلقى تعليمه في مدرسة للأيتام على نفقة بعض المحسنين المقتدرين، وقد يحظى مجانا بورق وحبر للكتابة مع كسرة من الخبز يوميا وكسوة سنوية. يتعلم الطالب في هذه المرحلة مبادئ القراءة والكتابة وحفظ أجزاء من القرآن الكريم، وبعض الأحاديث النبوية عن ظهر قلب. هذا ويذكر أن بعض الطلاب النجباء، كمجير الدين الحنبلي، مؤرخ القدس الشهير في العصر المملوكي، كان قد حفظ كل القرآن الكريم غيبا عند بلوغه العاشرة.

وبعد قبول الطالب في المدرسة، ستخصص له منحة مالية من ريع الوقف وحسب شروط الواقف، وذلك طيلة وقت دراسته، شرط قيامه بالحضور والالتزام بالدروس ونجاحه في الامتحانات. وقد يحظى الطالب بسكن، خاصة إذا كان من من مدينة أخرى أو عازبا. وسيصنف حسب مستواه إلى إحدى فئات ثلاث: متقدم؛ متوسط؛ ومبتدئ. وسيخير بالإضافة إلى دراسة القراءات السبع للقرآن الكريم وتفسيره، بين دراسة الفقه الإسلامي على أحد المذاهب الأربعة السنية (الحنفي؛ والشافعي؛ والمالكي؛ والحنبلي) أو التخصص في الحديث النبوي وتفسيره، وهناك احتمال أن يتلقى دروسا في الأدب وعلم اللغة العربية.

وأيا كان التخصص الذي سينخرط فيه، فإن الطالب ملزم بالاجتهاد وإلا تم طرده، ويبدأ الطالب يومه فجرا وينتهي عند الغروب. فعليه أن يصحو مبكرا لصلاة الفجر جماعة، بعدها يقرأ ما يتيسر من القرآن الكريم منفردا، وأحيانا مجتمعا مع أقرانه، وعليه أن يذكر الواقف والدعاء له إذا كان حيا والترحم عليه إذا كان ميتا. بعدها سيتناول وجبة الإفطار، ويتجه سريعا إلى أحد أواوين المدرسة الأربعة للالتقاء بزملائه وشيخ المدرسة ليسمع محاضرة في تخصصه، سيمنح فيها الفرصة لتوجيه الأسئلة والمشاركة في النقاش، وإذا ما استعصى عليه أمر فستتاح له فرصة ثانية لمراجعة ذلك مع مساعد الشيخ بعد صلاة الظهر ووجبة الغداء. وعند العصر قد يذهب للمسجد الأقصى لسماع الوعظ والفتاوى، وبعد صلاه المغرب والعشاء سيكون لديه الوقت الكافي لدراسة دروسه ومراجعتها قبل انتهاء يومه.



رحلة إلى البرية

د.يوسف النتشة، د. محمود هواري

منظر بانورامي لمدينة القدس القديمة

4.1 جبل الزيتون
a.4.1 الزاوية الأسعدية
b.4.1 مسجد قبة الصعود
c.4.1 مقام رابعة العدوية

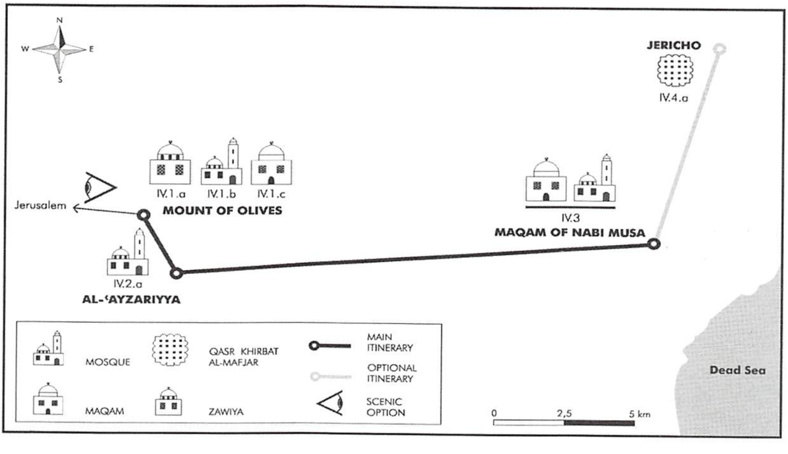
4.2 العيزرية
a.4.2 مسجد العزير

4.3 مقام النبي موسى

4.4 مدينة أريحا
a.4.4 موقع اختياري – قصر خربة المفجر (قصر هشام)

موسم النبي موسى

رهبنة الصحراء



البحر الميت من مرتفعات عين جدي، قرب دير القديس سابا، طباعة د. روبرتس (حقوق الطبع، متحف فكتوريا والبرت، لندن).

تعد الرحلة من القدس إلى أريحا تجربة مميزة للزائر من الناحية الجغرافية والتاريخية على حد سواء. إذ تتخلل هذه المنطقة مناظر الجبال والأودية الخلابة، والمشاهد شبه الصحراوية، والمزارات الإسلامية، والمواقع الأثرية، والأديرة المسيحية. وتنحدر الطريق المتعرجة من جبال القدس الواقعة على ارتفاع حوالي 800 م فوق سطح البحر باتجاه غور الأردن والبحر الميت، الواقع على انخفاض حوالي 400 م تحت سطح البحر (وهي أخفض نقطة على سطح الكرة الأرضية)، وصولا إلى أريحا الواقعة على انخفاض حوالي 250 م تحت سطح البحر، وهي أكثر مدينة انخفاضا في العالم.

يبدأ الزائر رحلته من مطل جبل الزيتون في قرية الطور، حيث يظهر أمامه باتجاه الغرب والشمال والجنوب منظر بانورامي لبلدة القدس القديمة والجبال والأودية المحيطة بها، والمنحدرات الغربية لجبل الزيتون الذي يزخر بالمعالم الأثرية والأبنية التاريخية. وباتجاه الشرق ينفتح أمام الزائر منظر رائع لصحراء القدس المترامية الأطراف والبحر الميت وغور الأردن؛ ويمكن رؤية جبال الأردن في الأيام ذات السماء الصافية. بالاتجاه شمالا لمسافة حوالي نصف كم، يصل الزائر عند مفترق الطرق، حيث يتمكن من التوقف لزيارة ثلاثة المواقع الأولى من المسار: الزاوية الأسعدية، مسجد قبة الصعود، ومقام رابعة العدوية.

ومن ثم ينطلق الزائر من مفترق الطرق باتجاه المنحدرات الجنوبية-الشرقية لجبل الزيتون، حيث يصل إلى قرية العيزرية لزيارة مسجد العزير الواقع إلى الشرق من كنيسة الفرنسيسكان (لذكرى القديس لازاروس الذي أحياه السيد المسيح). ومن العيزرية يواصل الزائر سفره باتجاه غور الأردن شرقا في طريق معبدة وحديثة استبدلت بالطريق القديمة الضيقة والمتعرجة بين القدس وأريحا. وسرعان ما تتغير طبيعة المشهد حيث الجبال والأودية المتموجة الشكل، تبدو جرداء قاحلة في فصل الصيف الطويل، ومكسوة ببساط من الخضرة والأزهار ذات الألوان الزاهية في فصل الربيع القصير. وتتخلل هذا المشهد الجميل مضارب البدو التي جذبت إليها ابتداء من العصر البيزنطي (القرنين الخامس والسادس للميلاد) الرهبان المسيحيين الأوائل. وما زال بعض الأديرة المرتبطة بهؤلاء الرهبان قائما إلى يومنا هذا، وأهمها دير القلط (القديس جريس) الواقع في وادي القلط شمال طريق القدس-أريحا.

وعلى بعد 18 كم من القدس ينعطف الزائر عن الطريق الرئيس باتجاه الجنوب إلى مسافة حوالي نصف كم، حيث يشاهد مجمعا معماريا ضخما تغطيه القباب البيضاء، وهو مقام النبي موسى الذي يعدّ من أهم المقامات التذكارية في منطقة القدس، وقد تم إنشاؤه في العصر المملوكي، وأضيفت إليه منشآت أخرى في العصر العثماني. وبعد زيارة المقام على الزائر العودة إلى طريق



القدس، منظر شامل من جبل الزيتون.

القدس – أريحا والمضي شرقا حتى الوصول إلى غور الأردن. ويعدّ هذا الغور جزءا من الشق السوري – الأفريقي الممتد من سوريا في الشمال وحتى شرقي أفريقيا في الجنوب. وهنا في مفترق الطرق تستمر الطريق شرقا نحو البحر الميت ونهر الأردن، الذي يصب فيه. ويعد البحر الميت بمثابة ظاهرة طبيعية فريدة من نوعها في العالم. وقد أطلق عليه الرومان اسم "بحر الإسفلت". أما المؤرخون العرب فقد أشاروا إليه باسم "بحر لوط" أو "بحر سدوم" نسبة إلى القصص المذكورة في التوراة، أو البحيرة المنتنة، نسبة إلى رائحة الكبريت. ويعود الفضل إلى الصليبيين في إطلاق تسميته الحالية "البحر الميت"، وهي إشارة إلى انعدام الحياة فيه. وتنعطف طريق أخرى إلى الشمال، باتجاه مدينة أريحا الواقعة وسط واحة غنية بالينابيع وأشجار النخيل وشتى أنواع الفاكهة. وتحتوي هذه الواحة على معالم أثرية وتاريخية هامة تعود إلى شتى العصور، وأهمها قصر خربة المفجر (أو قصر هشام) الذي يعود إلى العصر الأموي.

م.هـ

منظر بانورامي لمدينة القدس القديمة

يقع هذا المطل في الجهة الجنوبية الغربية من جبل الزيتون (الطور) مقابل فندق الأقواس السبعة. والذي يزود الزائر بمنظر بانورامي خلاب لمدينة القدس القديمة.

يستطيع الزائر من هذا الموقع الاستمتاع بمنظر بانورامي لمدينة القدس القديمة يحبس الأنفاس. وتظهر المدينة بروعة تخطيطها وجمال منشآتها المعمارية وحصانة أسوارها. وتبدو واضحة حدود الحرم الشريف، الذي وضع مخططه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (نهاية القرن



قبة الصخرة، منظر شامل من جبل الزيتون.

الأول / السابع)، بمبانيه وقبابه ومآذنه الجميلة، حيث تتوسطه قبة الصخرة بقبتها المذهبة، ويحده من الجنوب المسجد الأقصى بقبته الرصاصية الرمادية. كما وتبدو جلية كثافة المنشآت المعمارية على الحدود الشمالية والغربية للحرم. وتبرز معالم السور الشرقي والجنوبي للبلدة القديمة وأبوابها، ولا سيما الباب الذهبي المزدوج (باب الرحمة وباب التوبة) وباب الأسباط. وتظهر أيضا القلعة بأبراجها العالية والمنيعة في أقصى البلدة القديمة من جهة الغرب. بينما تضفي أبراج الكنائس وقبابها رونقا وجمالا متميزا على المدينة.

ولا عجب أن يبهر هذا المنظر مؤرخ القدس المملوكية مجير الدين الحنبلي (حوالي 901هـ/1496م) إذ كتب ما يلي: " ان رؤية بيت المقدس من بعد من العجائب المشهورة في نورانيتها وحسن منظرها، خاصة إذا نظرنا إليها من جهة الشرق، سواء كان الإنسان على جبل طور زيتا او من جهة القبلة".

م.هـ

4.1 جبل الزيتون

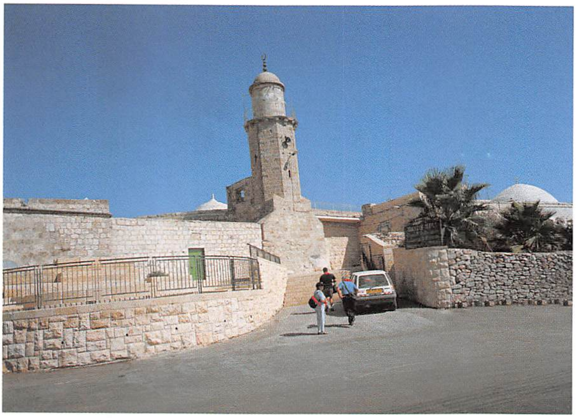
a.4.1 الزاوية الأسعدية

تقع الزاوية الأسعدية على الجزء الشرقي من قمة جبل الزيتون مجاورة لقبة مسجد الصعود، وقريبة لمجموعة من الكنائس الهامة المرتبطة بالسيد المسيح.

والزيارة ممكنة لصحن الزاوية خلال ساعات النهار فيما عدا مواعيد الصلاة وبعد الاستئذان من قيّم الزاوية.

تنسب هذه الزواية، التي تعرف أحيانا بالخانقاة، إلى بانيها ومؤسس وقفها شيخ مشايخ الإسلام، أبو سعيد أسعد أفندي، المفتي الأعظم في القسطنطينية (استنبول). ويبدو أن بعض أجزاء الزاوية، وعلى الأخص مسجدها، قد بني سنة 1023هـ/1614-1615م، وذلك استنادا إلى كتابة تأسيسية لا تزال قائمة فوق مدخل مسجد الزاوية. وتمكن أسعد أفندي، في 27 محرم 1033هـ/ 20 تشرين ثاني 1623م، من تأسيس وقف سخي للزاوية، عن طريق وكيله الشرعي، محمد باشا، حاكم القدس في ذلك الوقت. وشمل هذا الوقف عدة دور ومجموعة من

الزاوية الأسعدية، منظر عام، جبل الزيتون، القدس.





الزاوية الأسعدية، المدخل، جبل الزيتون، القدس.

الأراضي وفرناً في قرية الطور، حيث موقع الزاوية. واشترط الواقف، أسعد أفندي، أن يصرف ريع هذا الوقف السنوي على صيانة المبنى ومصاريفه الجارية، وعلى منتسبي هذه الزاوية وزوارها وموظفيها (ناظر وقف، إمام، مؤذن، بواب وخادم، جابي)، وذلك بإشراف شيخ الزاوية ومتولي وقفها ومعرفته، الشيخ شمس الدين محمد العلمي، أحد أقطاب الصوفية في بيت المقدس في النصف الأول من القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي.

يظهر من تتبع الرقوم الكتابية التي لا تزال محفوظة على جدران الصحن المركزي، ومن التحليل المعماري لأركان المبنى، أن الزاوية قد مرت بعدة مراحل بنائية ولم تبن خلال عملية معمارية واحدة. فبالإضافة إلى نقش المسجد المذكور أعلاه، توجد لوحتان كتابيتان، الأولى مؤرخة سنة 1143هـ/1730-1731م وهذه تخص القبو الموصل لقبر الشيخ العلمي، والثانية سنة 1323هـ/1905-1906م وهذه تؤرخ لرواق المسجد.

ويتكون مبنى الزاوية اليوم من عدة وحدات معمارية، يتوصل إليها بعد صعود عدة درجات، تبدأ من مستوى الطريق العام. ومباشرة بعد الانتهاء من الدرج يوجد مدخلان، الأول الشرقي يقود إلى قبة مسجد الصعود، والثاني الجنوبي يفضي إلى صحن الزاوية الأسعدية. والصحن المكشوف مستطيل الشكل، فرشت أرضيته بالبلاط الحجري الحديث. ومباشرة إلى الغرب من مدخل الزاوية، فتح باب في الجدار الشمالي للصحن يوصل عبر عدة درجات إلى القبو الذي دفن فيه الشيخ العلمي مع بعض أفراد أسرته. ومقابل هذا الباب، يوجد باب آخر في منتصف الجدار الجنوبي للصحن يؤدي إلى داخل مسجد الزاوية. والمسجد تخطيطه مستطيل (10م × 6.5م)، فتحت في جداره الغربي عدة نوافذ كفلت له الإضاءة، وفي جداره الجنوبي محراب مجوف. وقسم



الزاوية الأسعدية، النقش التأسيسي، جبل الزيتون، القدس.

سقف قاعة المسجد إلى قسمين بواسطة عقد مدبب: الجنوبي مربع تغطيه قبة ضحلة، في حين أن الشمالي قبو متقاطع مستطيل الشكل. وهناك باب ثالث في الجدار الغربي للصحن يوصل إلى ساحة مكشوفة أخرى غير منتظمة الشكل، ومستواها ينخفض عن مستوى أرضية الصحن، بني في جزئها الشمالي مراحيض ، ويشاهد في الجزء الجنوبي القبور. هذا ويشغل القسم الشرقي من الزاوية مجموعة بيوت سكنية لآل العلمي، ويتوصل إلى هذه البيوت عبر باب رابع فتح في الزاوية الجنوبية الشرقية للصحن.

ي.ن.

b.4.1 مسجد قبة الصعود

زيارته ممكنة بين الساعة الثامنة صباحاً والرابعة مساءً مقابل رسم بسيط.

تعدّ قبة الصعود من أكثر الأماكن المميزة في القدس، وهي تخلد ذكرى صعود السيد المسيح بعد قيامته حسب العقيدة المسيحية. وهو مذكور في كتاب لوقا، وإن كان لم يحدد موقع وقوعها على وجه الدقة، فقد تعارف على أن مكان هذه القبة هو مكان الصعود.

احتفل المسيحيون بالصعود سرا، قبل انتشار المسيحية ، في داخل مغارة على جبل الزيتون. وقد بنيت أول كنيسة لتخليد لذكرى الصعود في العصر البيزنطي قبل سنة 392 م، لكن لم يبق من آثارها شيء. وجرت محاولات عديدة لإعادة بنائها، استنادا إلى وصف الرحالة من العصر البيزنطي، والى الأبحاث الأثرية. وفي فترة الصليبيين استبدل المخطط القديم الدائري بمخطط مثمن، أحيط بدير محصن. تعمق خلالها التقديس والاحتفال بذكرى الصعود.

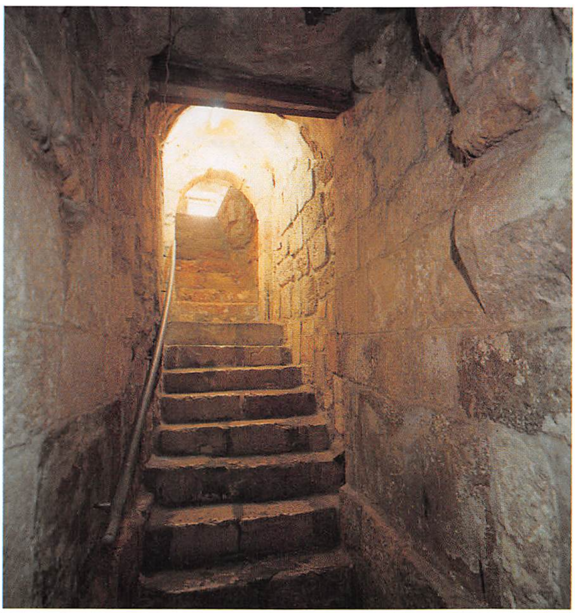
وبعد تحرير صلاح الدين للقدس، تحول ما بقي من هذه القبة التذكارية إلى مسجد، وبقيت من ذلك الحين وحتى اليوم وقفا إسلاميا، تديره دائرة الأوقاف الإسلامية، ويعامل كأي موقع مقدس آخر، مع تأمين الزيارة لجميع الطوائف المسيحية. ولقد قامت دائرة الأوقاف مؤخرا بترميم هذه القبة والساحة المحيطة بها.

وأثناء الترميمات التي جرت في عهد صلاح الدين وخلفائه، حوفظ على الكثير من العناصر المعمارية والزخرفية الصليبية، خاصة الأعمدة الرخامية وتيجانها، لكن أضيف محراب في الضلع الجنوبي للمثمن، وسدت الجدران بين الأعمدة بعد أن كانت

جامع قبة الصعود، منظر عام، جبل الزيتون، القدس.

مقام رابعة العدوية، مدخل الدرج، جبل الزيتون، القدس. (في الأسفل)





مفتوحة، كما تم ترميم البلاط. وتخطيط المسجد الحالي مثمن، يقوم بين الجدران أعمدة رخامية لها تيجان تحوي زخارف نباتية وحيوانية. ويستطيع الزائر العبور من باب فتح في الجهة الغربية، وأرضية الداخل مبلطة بالبلاط الحجري الصغير الحجم، وهناك إطار حجري مستطيل الشكل يحيط بما يعرف بموقع قدم السيد المسيح. وفي الساحة الخارجية الدائرية توجد مجموعة من المذابح الحجرية تعود الى طوائف مسيحية مختلفة، وعلى الجدران تشاهد مجموعة من الحلقات الحديدية التي تستخدم لربط الخيم والمظلات أثناء الاحتفال السنوي بعيد الصعود.

ي.ن.

c.4.1 مقام رابعة العدوية

يوجد المقام على جبل الزيتون مجاورا لمبنى الزاوية الأسعدية، وزيارة الداخل تحتاج إلى تنسيق مسبق مع القيّم.

أشارت عمليات التحليل العمراني والحفريات التي جرت في المقام عام 1995م إلى أن هذا الموقع مركب ونتاج عهود زمنية مختلفة. وأقدم هذه العهود يمكن إرجاعها إلى العهد البيزنطي، كما أشارت إليه بعض الكسر الفخارية، وشوهدت كتابة أثرية يونانية، في الجدار الغربي، ونص الترجمة لهذه الكتابة: "تشجعي يا دمتيلا لا أحد مخلد" Courage Dometilla None is immortal"

ومع أن البعض ينسب هذا الموقع الى القديسة بيلاجيا، إلا أن من المرجح أنه استخدم قبراً.



مقام رابعة العدوية، داخل الحجرة الجنائزية، جبل الزيتون، القدس.

وشوهدت في الموقع عدة كتابات كوفية تعود في تاريخها إلى أوائل العهد الإسلامي، وبالرغم من أنه لم يتم التحقق منها، إلا أنها قد تكون لها أهمية دينية، خاصة وأنه وصلتنا عدة روايات منذ القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي تدل على وجود مدفن باسم رابعة العدوية. كما أن ما اكتشف من قطع فخارية يعود إلى المرحلتين الأيوبية والمملوكية، إضافة إلى جدار يعود إلى القرن 7- 8هـ / 13-14م. وينسب هذا المقام اليوم إلى رابعة العدوية. والواقع أن المصادر التاريخية الإسلامية، تذكر أكثر من شخصية بهذا الاسم، أشهرها أم الخير رابعة العدوية البصرية، المتصوفة المشهورة، والتي توفيت سنة 185هـ / 801م في البصرة في العراق. وهناك رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري، والتي يرجح أنها مدفونة في هذا المقام، وإن كان الأمر غير ثابت. وقد علق عبد الله المخلص على هذا الموضوع قائلاً:

"وعلى هذا فتكون رابعة المدفونة في جبل طور زيتا تحت الزاوية الأسعدية، والتي ما زال ضريحها مقصد الزوار، لا هي بالعدوية ولا هي زوج أحمد بن أبي الحواري. فلعلها رابعة أخرى ذهبت الأيام بأخبارها وإن لم تستطع محو آثارها".

وللمقام مدخل بسيط، عبارة عن فتحة مستطيلة يعلوها عتب حجري، تعلوه نافذة ، وأصل هذا المدخل فتحة عقد سدت لاحقا لتشكل مدخلا. ويتكون داخل المقام من قسمين: الغربي وهو مربع التخطيط تقريبا، ومغطى بقبو نصف برميلي، وفتح في جداره الجنوبي محراب، مما يعني أن هذه المساحة استخدمت للصلاة. ويفصل درج يمتد حوالي 5م القسم الغربي عن القسم الشرقي، ذلك لأن أرضية القسم الشرقي تنخفض كثيرا عن مستوى القسم الغربي. ولهذا القسم أرضية إسمنتية مما يعنى أنها حديثة، ومسقط هذا القسم مستطيل الشكل تبلغ أبعاده 5.6 م × 3.4 م، ويتوسط الأرضية الضريح المنسوب إلى رابعة العدوية، ويغطى هذه الغرفة قبو نصف برميلي.

ي.ن.

4.2 العيزرية

a.4.2 مسجد العُزير

يقع المسجد في بلدة العيزرية، التي تتربع على السفح الشرقي لجبل الزيتون، على الطريق الموصل من القدس إلى أريحا.

الزيارة مسموحة للساحة الخارجية فقط في غير أوقات الصلاة وبعد الاستئذان من الإمام.

ويمكن الوصول إلى المسجد من الطريق الرئيس الذي يربط القدس باريحا، وذلك بالانعطاف يسارا عبر طريق فرعي معبد يقع على بعد عدة أمتار إلى الشمال الشرقي من الساحة التي تتقدم كنيسة اليعازر بالعيزرية.

كانت العيزرية في العصر الروماني وفي العصور الوسطى والى عهد قريب، المحطة الأخيرة قبل الدخول إلى مدينة القدس من الشرق. وهكذا كانت البلدة بالنسبة للسيد المسيح عليه السلام، حينما كان يزور القدس قادما من الجليل. حيث كان يرحب به في بيت ماريا ومارثا وأخيهم العزير(Lazarus) في العيزرية. وحسب شهادة الإنجيل، نفذ إحدى معجزاته بإحياء العُزير من قبره بعد موته. ويرجع الفضل إلى هذا الحدث في نشوء البلدة وتطورها في العصر البيزنطي، واستمر تطورها أيضا في العصور الوسطى، بل إن الاسم العربي للبلدة اشتق من التسمية اليونانية (Lazarion) والتي تعني مكان العُزير.

وتشير الروايات التاريخية والدلائل المعمارية إلى أنه تم في العصر البيزنطي، إنشاء كنيستين (الأولى تهدمت بفعل الزلازل في سنة 390م، والثانية بنيت في القرن السادس) ودير للراهبات البندكتيات. وتم على الأغلب إعادة استخدام أجزاء من هذه المباني وترميمها في فترة الصليبيين. لكن بعد طردهم على يد صلاح الدين 583هـ/1187م، ويبدو أن هذه العمائر قد أصابها الخراب والإهمال، وبما أن المسلمين يؤمنون بالمسيح كرسول من عند الله، وبمعجزة إماتة العُزير وإحيائه كما وردت في القرآن، فقد أنشأوا على جزء منه مسجدا باسم العُزير.

ولا يعرف على وجه الدقة متى أسس المسجد، لكن يظهر من نسيجه المعماري، أنه مر بعدة مراحل معمارية، آخرها كان في الفترة العثمانية، حيث أشارت سجلات محكمة القدس الشرعية إلى أن المسجد تم ترميمه في القرن 10هـ/16م، وفي القرون التالية، لكن آخر هذه الترميمات وثقت بكتابة تذكارية



مسجد العزير، مدخل مع نقوش تذكارية، العيزرية.

نقشت على أعلى مدخل المسجد. وهذه الكتابة منقوشة بالخط العثماني، وهي من ثلاثة سطور، وضعت داخل إطار زخرفي، وتنص على أن المسجد قد رمم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني(1293-1327هـ/ 1876-1909م).

وباب المسجد المتواضع الخارجي يوصل إلى مجموعة من الدرجات التي تؤدي إلى ساحة المسجد المكشوفة التي تنخفض أرضيتها كثيرا عن مستوى أرضية الطريق، وهي مستطيلة الشكل محاطة بالجدران الحجرية تعود في تاريخها إلى فترات زمنية مختلفة، كما يظهر من أسلوب الدقاقة والأحجام والأشكال، وبني في جدارها الجنوبي محراب حجري حديث مجوف بسيط التكوين. ويدخل لبيت الصلاة عبر باب مستطيل تعلوه الكتابة العثمانية السالفة الذكر. وتخطيط بيت الصلاة مستطيل الشكل، أرضيته مفروشة بالسجاد، وسقفه قبو برميلي تسنده دعامة حجرية ضخمة تلي المدخل مباشرة. وفي القسم الشرقي من بيت الصلاة يوجد ضريح مستطيل الشكل على نمط القبور والأضرحة العثمانية، ينسب إلى النبي العُزير، وفي الجدار الجنوبي يوجد محراب مغشى ببلاطات القاشاني العثمانية الطابع، ذوات الطرز والزخارف المنوعة. وفي النهاية الغربية لبيت الصلاة توجد كوة مستطيلة مغلقة حاليا، لكن سابقا كانت تفضي إلى قبر اليعازر، والذي يتوصل إليه اليوم من الطريق الرئيس مباشرة إلى الغرب من مدخل المسجد.

ي.ن.

4.3 مقام النبي موسى

يقع مقام النبي موسى على مسافة 28 كم الى الشرق من مدينة القدس، حيث توجد إشارة على طريق القدس أريحا الرئيس ترشد إلى المقام.

الزيارة مسموحة طيلة النهار، لكن زيارة داخل المقام مسموح بها فقط في غير أوقات الصلاة.

يوجد المقام في منطقة صحراوية منعزلة، في وسط كثبان رملية، تشرف على منطقة البحر الميت. ويشجع هدوء بيئتها وسكونها على التأمل والتفكر، مما يجعله شبيها بالبيئات التي ازدهرت فيها الديانات السماوية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلام).

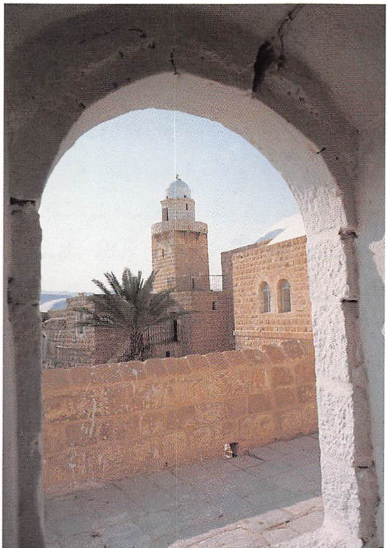
لقد تم بناء هذا المقام لأسباب عديدة، أولها

مسجد العزير، قبر النبي عزير، العيزرية.





مقام النبي موسى، منظر عام.



مقام النبي موسى، مئذنة الجامع.

تكريم نبي الله موسى باعتباره من الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم، وثانيها، لأن المسلمين يعتبرون عقيدتهم مكملة ومصححة للديانات السماوية السابقة (اليهودية والمسيحية) استنادا للآية القرآنية : "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير". أما ثالثها فإن إقامة المقام بهذه السعة في تلك المنطقة قد يفسر كرد فعل للرغبة في إيجاد توازن مع مجموعة الأديرة التي وجدت في المنطقة منذ المرحلة البيزنطية. وحشد، عدد كبير جدا من العامة والخاصة في وقت محدد، وترتيب مبرمج لا شك أنه يخدم أكثر من غرض. فهو إلهاء للعامة عن شؤون



مقام النبي موسى، منظر داخلي يظهر مئذنة الجامع.

الحياة ومشاكلها، ومتنفس اجتماعي، ونشاط اقتصادي، وإظهار للوجود أمام الأعداء.

ومع أنه تتوافر إشارات وردت في المراجع التاريخية تفيد بأن موسم النبي موسى قد بدأ في الفترة الأيوبية، إلا أنه لا ينسب لهذه الفترة أية بقايا معمارية، وأقدم ما يوجد يعود إلى عهد السلطان المملوكي بيبرس الذي أمر ببناء المقام في سنة 668هـ/ 1269-1270م. وبيبرس هو من مؤسسي دولة المماليك، كان مجاهدا وإداريا حازما، وله نشاط معماري في القدس وفلسطين وأنحاء أخرى من الدولة المملوكية خاصة في القاهرة.

ومنذ جهود بيبرس وحتى فترة الانتداب البريطاني (1917-1948م) لم تنقطع الترميمات والإضافات والتوسعات (خاصة في العهد العثماني) في المقام، بعضها وصلتنا أسماء من قاموا بها، لكن أغلبها تم على أيدي أهل الخير ممن ترفعوا عن تسجيل أسمائهم. وممن اعتنى بالمقام في العهد العثماني -على سبيل المثال- الأفندي حسام الدين في سنة 1013هـ/ 1604-1605م، والشيخ محمد الخليلي في حدود عام 1139هـ/ 1726-1727م، ومفتي القدس محمد طاهر الحسيني في 1303هـ/ 1885-1886م.

ويعتبر مقام النبي موسى، معماريا، ثاني أكبر مجمع ديني في فلسطين بعد الحرم الشريف، فهو يغطي مساحة تقرب من خمسة دونمات مسورة من الجهات الأربع تضم ثلاثة طوابق. ويدخل للمجمع عن طريق باب فتح في الواجهة الغربية، يؤدي إلى ممر يوصل إلى ساحة مكشوفة مركزية يحتل المسجد ذو البلاطات الخمسة، والمقام، وآبار للمياه وسطها. ويحيط بهذه الساحة مجموعة من الغرف والقاعات المتعددة يربو عددها عن مائة غرفة مختلفة المساحة والأشكال. ويحتوي المجمع على إسطبل في طابق التسوية، وأروقة، ومخازن، وفرنين، ومطبخين، لطهو الطعام في الطابق الأرضي. ويوجد للمجمع مئذنة ارتفاعها متوسط، تتيح لمن يصعد على شرفتها رؤية رائعة تظهر فيها سلسلة جبال الأردن. ويتقدم المجمع من الجهة الغربية ساحة مكشوفة فسيحة تستقطب العروض والفعاليات المتنوعة في فترة نشاط الموسم، وتستخدم كموقف للسيارات في الأيام العادية الأخرى. وتوجد مقبرة واسعة في الجهة الشرقية والشمالية للمجمع لا تزال تستخدم

لدفن الموتى، ممن يوصون أو يتبركون بالمقام حتى يومنا هذا.

وبالإضافة إلى أيام الموسم المحددة، التي يزدحم فيها الناس ازدحاما كثيفا، فإن المجمع يجذب عددا من الزوار المحليين ومجموعات من مسلمي وغير مسلمي الهند وماليزيا، وأقاليم جنوب شرق آسيا وبعض الوفود الأوروبية وذلك على مدار العام.

ي.ن.

4.4 مدينة أريحا

a.4.4 موقع اختياري –قصر خربة المفجر (قصر هشام)

يقع القصر إلى الشمال من مركز مدينة أريحا بحوالي 2 كم.

وتكون الزيارة بين الساعة الثامنة صباحاً والخامسة مساءً، وهناك رسوم للدخول.

كشفت الحفريات الأثرية التي قام بها ريتشارد هاملتون ودميتري برامكي في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين عن قصر كبير يعود في تاريخه إلى العصر الأموي، وقد نسب القصر إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، وإن كان البعض يرى نسبته إلى الوليد بن يزيد لتوافق فخامة القصر وزخرفته مع ميوله في التمتع بالحياة. ومع أن بناء القصر استغرق حوالي 20 عاما، إلا أنه لم يعمر إلا قليلا، حيث ضربه زلزال سنة 129هـ / 747م، بعد أربع سنوات فقط من الفراغ من بنائه.

ويعدّ قصر هشام في أريحا، الأجمل والأعظم في سلسلة القصور والمستقرات الأموية التي بنيت في صحراء الشام، خاصة في القسم

تخييم قرب أريحا، منظر عام، طباعة د. روبرتس (حقوق الطبع، متحف فكتوريا والبرت، لندن).



الجنوبي في بادية الأردن، لما حواه من زخارف جصية جدارية، بعضها معروض في المتحف الأثري الفلسطيني (روكفلر) في القدس، وفسيفسائية أرضيته هي الأجمل والأكمل، من بين ما اكتشف حتى الآن باستثناء قبة الصخرة. وقد كانت هذه المنطقة هي المقر الشتوي المفضل للخليفة، وربما يعود ذلك الى طوبغرافية أريحا ومناخها، وكذلك بسبب توافر المياه من نبع عين الديوك، ووصولها إلى القصر عبر قناة، امتدت 8 كم، والتي حولت المنطقة إلى واحة خضراء.

ونظرا لمكانة قصر هشام في العمارة والفنون الإسلامية، ولأهميته الحيوية في جذب الصناعة السياحية لمحافظة أريحا، فقد حظي القصر بأكثر من مشروع للترميم، كان آخرها سنة 1994، حينما قدمت الحكومة الإيطالية منحة لدائرة الآثار الفلسطينية، فتم الترميم بإشراف منظمة اليونسكو وتعاون بين فريق إيطالي وآخر فلسطيني.

ولقد كشفت الحفريات الأثرية ومشاريع الترميم عن الأقسام التالية للقصر:

المدخل الخارجي حيث شباك التذاكر، يؤدي الى ساحة مكشوفة عرض فيها بعض التحف والبقايا من أثر الزلزال، والى شمال هذه الساحة توجد بركة ماء بلطت أرضيتها برسوم من الفسيفساء، والى الغرب قليلا من البركة والساحة المكشوفة، يقوم مدخل القصر الداخلي، حيث يؤدي إلى ساحة رحبة تتوسطها نافذة مزخرفة، والساحة محاطة بغرف وقاعات، كانت على مستويين في الجهة الجنوبية والغربية، هذا وفي وسط الرواق الجنوبي المحيط في الساحة يوجد مسجد صغير، يجاور قاعدة لمئذنة، وكان هذا المسجد خاصاً بالخليفة. وأما المسجد العام، فهو إلى الشمال من الرواق الشرقي، وتظهر في جداره الجنوبي حنية المحراب التي تشير إلى اتجاه مكة. ويؤدي ممر إلى حمام القصر الفخم ، بحيث تتقدم هذا الحمام بركة ماء، ويليه في الشمال مجموعة من الغرف، قد تكون إحداهن استعملت قاعة استقبال، فيها أرضية فسيفسائية تعدّ من أجمل ما اكتشف في البلاد، وغرفة تسخين الحمام وبيت خلاء.

موسم النبي موسى

د. يوسف النتشة

بدأت في فلسطين في العهد الأيوبي بوادر نشاط ديني واجتماعي، صاحبتها حركة اقتصادية تمثلت بخروج السكان بسائر فئاتهم الحاكمة والمحكومة إلى مقامات دينية متفرقة في أماكن مختلفة في فلسطين. وتعمقت هذه الظاهرة التي أطلق عليها "مواسم" جمع "موسم" في الفترة المملوكية، واستمرت بقوة في العهد العثماني ولغاية يومنا هذا، وإن شابتها نوبات من الفتور والانقطاع في أوقات تميزت بالاضطرابات السياسية. ومن المقامات التي ارتبطت معها مواسم، نذكر مقام علي بن عليم في أرسوف، ومقام النبي روبين جنوب يافا، ومقام النبي صالح في الرملة، ومقام الحسين في عسقلان، ومقام الداروم قرب غزة، ومقام النبي موسى موضوع البحث.

وأعظم هذه المواسم وأكثرها شهرة هو موسم النبي موسى. حيث يبدأ في يوم الجمعة الذي يسبق الجمعة الحزينة لدى الأرثوذكس، أي فيما بين 22 آذار إلى 25 نيسان، ويستمر أسبوعا. وقد وثقت فعاليات الموسم في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن بالصورة التالية:

يستهل الموسم بتجمع أهل القدس والمتولون لوقف النبي موسى في باحة الأقصى، ثم يتوجهون إلى أريحا عبر رأس العامود، بعد أن يمر الموكب في طريق المجاهدين وباب الأسباط. وكان أهل المدن، خاصة مدينة نابلس والخليل ومدن أخرى، يلحقون بهم وهم يسيرون بموكب تعلوه الأعلام والرايات، المزينة بالآيات القرآنية، والكتابات الخطية التي تشير إلى الخلفاء الراشدين وأسماء أقطاب الصوفية. وتصاحب الركب فرق الدبكة والزفة المصحوبة بالموسيقى والرقص. وكان الناس يستخدمون الخيول للوصول إلى المقام. وحينما كانت الجماهير والمشاركون يصلون إلى مشارف المقام، خاصة الفرق الصوفية المتعددة، كانت تشتد الحماسة ويعلو إيقاع الدفوف والطبول وتتنوع حركات الاستعراض من التلويح بالعصي ومنازلة السيوف، في حركات متقنة من الكر والفر والضرب والصد، والتمايل يمينا وشمالا، مختلطة بزغاريد النساء وهتاف النظارة. وحين الدخول إلى المقام كانت تقام الصلوات والأدعية مصحوبة بقراءة القرآن. وكانت أعداد الناس تصل إلى عدة آلاف، مما كان يعني أن الخيام كانت تنصب حول مبنى المقام، وأن القادمين الجدد كان يحلون مكان المغادرين. والواقع أن هذا الموسم كغيره من المواسم، كان فرصة ذهبية للوفاء بالنذور وعقد الختان والحلاقة للأطفال الذكور خاصة لأول مرة. وطبعا كان يلازم كل هذه النشاطات توفير الأكل المجاني لأكبر عدد من الزوار من واقع ريع الوقف السخي الذي خصص لزوار المقام، وكان هناك وفر من البضائع للاستجابة لاحتياجات الزوار، حتى إنه وجد نوع مخصوص من الحلاوة أطلق عليها حلاوة النبي موسى. وهكذا تستمر الاحتفالات لمدة أسبوع، وفي يوم الخميس يبدأ الناس بالعودة مع زفة الأعلام الثلاثة (علم النبي موسى؛ النبي داود؛ علم المسجد الأقصى) حتى يصلوا إلى المسجد الأقصى، ويودعون الأعلام في أماكنها للموسم القادم.

رهبنة الصحراء

د. يوسف النتشة

انتشرت في فلسطين في العصر البيزنطي ظاهرة خروج مجموعة من الرهبان المتنسكين من المدن للإقامة في أماكن منعزلة في صحراء القدس. وقد بدأت هذه الحركة في جنوب مصر، ومن ثم انتقلت إلى فلسطين، بحيث أظهر المسح الأثري ما يقرب من 80 موقعا لها في صحراء القدس، تلك المنطقة التي لا تتجاوز مساحتها 80 كم طولا × 20 كم عرضا. ومن المواقع التي ارتبطت بهذا النوع من التنسك والتوحد، نذكر على سبيل المثال دير مار سابا قرب قرية العبيدية في بيت لحم، ودير وادي القلط (سانت جورج - كذيبا) الواقع على طريق القدس أريحا، ودير حجلة قرب المغطس على نهر الأردن، ودير قرنطل في أريحا. كما ارتبطت هذه الظاهرة في صحراء القدس بثلاث شخصيات كل واحد أثّر بخلفه. الأول الراهب خريطون Chariton الذي أسس أول جماعة رهبانية وتدعى لورا Laura في سنة 330م، ويوثميوس (376-473م) Euthymius، الذي جذب آلاف المنخرطين في هذا المسلك، وسابا (439-532) Sabas المنظم الأعظم لهذه الظاهرة.

وكانت هناك طريقتان لهذا المسلك، الأولى مشتركة تعرف باسم كونبيوم (coenobium) حيث يجتمع ويعيش مجموعة من الرهبان في دير، عيشة مشتركة تعاونية، كل فرد يقوم بعمل محدد إضافة إلى نشاطه الأساسي في العبادة والتأمل والصلاة والقراءة، وعادة ما تكون هناك صلاة مشتركة وأخرى منفردة، لكن الأكل والنشاط الاجتماعي اليومي هما مشتركان وتعاونيان. وهذا النوع استلزم وجود موقع له سور يحيط بمرافق متعددة تتكون من كنيسة، وقاعة للاجتماع والطعام، ومصدر قريب للمياه، وبستان لبعض المزروعات، ووحدات معمارية صغيرة للاختلاء.

والطريقة الثانية تعرف باسم لورا Laura، وهي عيشة منفردة لمجموعة من الرهبان في محيط معين: كل واحد يسكن في الأغلب في مغارة أو خلوة ويأكل ويتعبد وحده لمدة خمسة أيام في الأسبوع، لكنه يجتمع كل سبت وأحد مع زملائه في المكان العام للعبادة المشتركة، ثم يأخذ بعض الزاد ويعود إلى خلوته.

وسواء كان العيش حسب الطريقة المشتركة أو المنفردة، فقد غلبت البساطة الشديدة والتقشف على مسلك هؤلاء الرهبان ومأكلهم، فقد اعتمدوا في الأساس على الخبز وعلى ما تمنحه لهم البيئة القاسية المحيطة بهم من مزروعات وفاكهة، وعمدوا إلى تجفيف بعض منها، وأحيانا كان لهم نشاط اقتصادي بسيط في استصلاح قطع من الأراضي القابلة للزراعة، لكن القمح استورد من الأردن للأديرة الكبيرة، وفي نسج السلال والحبال لتبادل هذه السلع والمنتجات مع أهل المدن أو التجمعات المجاورة لهم. والواقع أن هذا الاختلاء والتفرد والبعد عن صخب المدينة قد أتاح للعديد من الرهبان أن يصقلوا ما لديهم من مواهب في الشعر والأدب واللاهوت، مما أثرى الحياة الثقافية

للديانة المسيحية.
ومن الأمثلة الجيدة التي يمكن زيارتها لتوضيح هذه الظاهرة هو دير وادي القلط، الذي يمكن الوصول إليه إما من القدس، وذلك بالانعطاف شمالا عند مدخل مرقب أريحا أو من أريحا بسلوك اليمين عند أول مفرق بعد الخروج من المدينة، حيث سيتمتع الزائر قبل وصوله للدير بمنظر خلاب للصحراء. ويمكن زيارة الدير بين الساعة التاسعة صباحاً والثالثة بعد الظهر، ولكنه يغلق وقت الظهر. وسيجد الزائر القهوة والماء البارد بانتظاره، للترحيب به بعد عناء النزول إلى الوادي والصعود إلى الدير ومرفقاته الجميلة، وتتبع قناة المياه الرومانية المجددة أكثر من مرة.



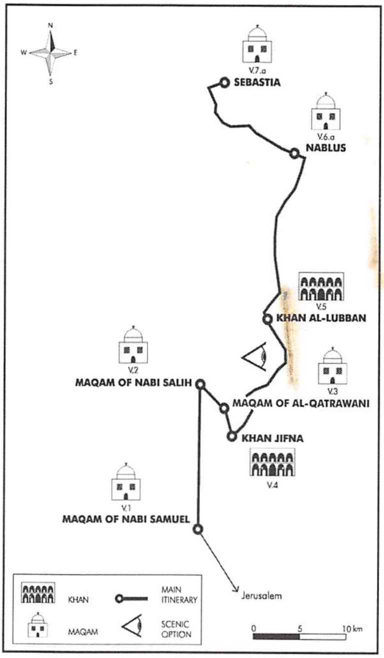
طريق الخانات والصوفية

د. مروان أبو خلف، د. نظمي الجعبة

V.1 مقام النبي صموئيل
V.2 مقام النبي صالح
V.3 مقام القطرواني
V.4 خان جفنا
منظر طبيعي

V.5 خان اللبن
V.6 نابلس
V.6.a قبر يوسف
V.7 سبسطية
V.7.a مقام النبي يحيى

البريد بين دمشق والقاهرة



سهل اللبن، منظر عام.
(الصفحة المقابلة)

لقد ساهم العديد من العوامل في انتشار الخانات (جمع خان) في فلسطين. أولها، موقع فلسطين الجغرافي المتوسط بين القارات، وثانيها، كونها حلقة الاتصال بين مصر من جهة، وسوريا وبلاد الرافدين والجزيرة العربية من جهة أخرى، وآخرها، مرور الطريق الساحلي التقليدي المعروف باسم "طريق البحر" (Via Maris) فيها، والذي كان يستخدم للأغراض التجارية والعسكرية والبريدية.

وتذكر المصادر التاريخية أن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99-101هـ/717-720م) كان أول من أمر بإقامة الخانات للمسافرين. واستمرت الخانات في الظهور حتى منتصف القرن الثالث عشر هجري / التاسع عشر ميلادي. وباستثناء الخان الموجود في قرية أبو غوش (إلى الغرب من القدس) والذي يرجح أنه يعود بتاريخه إلى عصري الخلافة الأموية والعباسية، وتواصل استخدامه في فترة الفرنجة والعهد المملوكي، لم يكشف في فلسطين عن أية بقايا لخانات أخرى تعود لذلك العصر.

وقد انتشرت الخانات في فلسطين إما على الطرق الرئيسة الواصلة بين المدن الكبرى كالقدس وغزة ونابلس والرملة، كخان جلجولية، وجب يوسف، والمنية، وخان يونس، وخان التجار، أو في داخل المدن والقرى. وقد وصل بناء الخانات أوجّه خلال العصر المملوكي الذي يعدّ العصر الذهبي للعمارة الإسلامية في مصر وبلاد الشام، واستمر الأمر بوتيرة متصاعدة خلال الحقبة العثمانية المبكرة.

أما الهدف من بناء هذه الخانات فكان حماية التجار والحجاج من النهب والسرقة، بالإضافة إلى تزويدهم بأماكن للإقامة والتوقف على الطرق. وقد خدمت الخانات، أيضا كمحطات للبريد حتى عهد الظاهر بيبرس، الذي فصل بين طرق البريد وطرق الخانات مما استلزم بناء أبنية لمحطات البريد، مما نتج عنها تنظيم البريد بين القاهرة ودمشق بطريقة أكثر فاعلية.

يتكون الخان من الناحية المعمارية، من بناء مستطيل أو مربع الشكل تتوسطه ساحة مكشوفة، ويتألف من طابقين. الطابق الأول ويشتمل على قسمين: القسم الأول عبارة عن إسطبلات للإبل والخيول، والقسم الثاني عبارة عن محلات تجارية لخزن البضائع وعرضها للبيع. أما الطابق الثاني فهو عبارة عن غرف لنزول المسافرين، وأحيانا كان يضم الخان ديوانا أو مسجدا خاصة في الفترة المملوكية. ويضم مصدرا لتوفير المياه الضرورية للمسافرين. وإذا كان الخان خارج المدن، فإنه كان يحاط بسور منيع. اما إذا كان الخان داخل المدن فقد كان يسمى بالوكالة.

ولقدسية القدس الخاصة خلال العهود الإسلامية المختلفة، فقد استقطبت افواجاً كبيرة من الناس، مما يفسر بناء العديد من الخانات في انحائها كافة. وقد قدمت هذه الخانات خدمات مهمة للحجاج والزوار

ورجال الصوفية الموجودين في فلسطين، وخاصة خلال الاحتفالات الاسلامية المختلفة. اما في الأرياف، فقد اتخذت بيوت الصوفية شكلا مغايرا حيث إنها وجدت في المقامات وقبور الأولياء الصالحين. ولقد احتوت معظم القرى على أكثر من مقام أو ضريح لشيخ صالح حيث يقوم سكان القرية بالتقرب إليه عبر تقديم الأضاحي وإضاءة الشموع والوفاء بالنذور. كما تمتعت بعض هذه المقامات بمواسم ضمت احتفالات شعبية بشتى الألوان وقرعت فيها طبول رجال التصوف والدراويش، وجاءها المتبركون من القرى المحيطة، طلبا للشفاعة وأملا بمستقبل أفضل.

سنتعرف في هذا المسار على ظاهرتي الخانات والمقامات على امتداد الطريق الواصل بين بيت المقدس إلى سبسطية (إلى الشمال الغربي من مدينة نابلس)، مبتدئين بمقام النبي صموئيل الواقع إلى الشمال الغربي من مدينة القدس، لننتهي إلى مقام النبي يحيى في سبسطية. كما سنبحث أيضا طريق البريد الواصل بين عاصمتي المماليك (القاهرة ودمشق) المار في فلسطين.

م.أ.خ

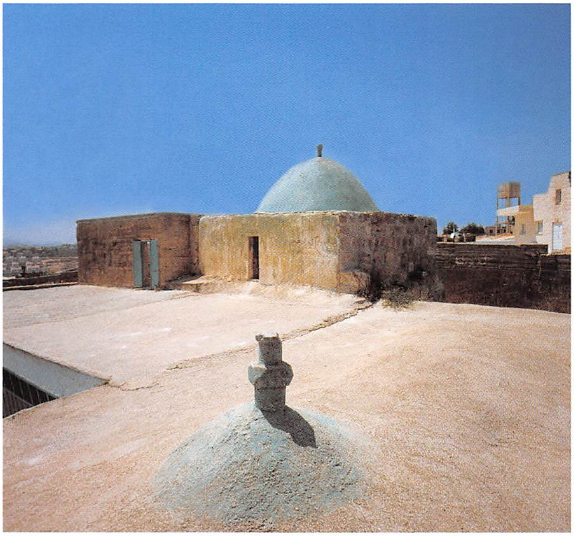
V.1 مقام النبي صموئيل

يتم الوصول إلى المقام بالسيارة أو الحافلة عبر طريق رام الله – القدس، والانعطاف إلى اليسار عند مفترق قرية الرام مرورا بقرى بير نبالا والجيب، ومن ثم الاتجاه جنوبا حيث ينتصب جبل النبي صموئيل وعلى قمته المقام. و الزيارة ممكنة في كل الأوقات، ويديره الآن اليهود الارثودكس.

يقع قبر (مقام) النبي صموئيل على قمة جبل، وعلى بعد 6 كم إلى الشمال الغربي من مدينة القدس، ويقع الجبل على ارتفاع 885م فوق سطح البحر، ويعدّ أعلى جبل في منطقة القدس. ومن سطح المقام المفتوح للزوار يمكن مشاهدة أجزاء واسعة من المدينة المقدسة، ويعود هذا الموقع الديني المهم إلى الفترة البيزنطية، حيث أقام الامبراطور جوستنيان كنيسة على المكان المعتقد بأنه يحتوي رفات النبي صموئيل. لقد أكد الصليبيون على قدسية المكان وأهميته من الناحيتين الدينية والعسكرية، بإنشاء كنيسة ودير، وأسموه "جبل السرور" لأنه كان المكان الذي رأوا منه القدس اول مرة. وقد تم إصلاح الموقع وإعادة تأهيله على يد صلاح الدين الأيوبي،



مقام النبي صموئيل، منظر عام.



مقام النبي صالح، منظر عام.

وتلقى منذ ذلك التاريخ عناية الكثير من الحكام المسلمين. ولم يحرم اليهود من زيارة الموقع والتبرك منه، حيث وضعت شموعهم بجانب شموع الزوار المسلمين.

وقد تم تحويل المقام الصليبي إلى مسجد وإضافة محراب اليه. كما أضيفت الخلوات المختلفة إلى البناء، وجرى توسيعه على عدة فترات بهدف استيعاب الأعداد المتزايدة من الحجاج والزوار، وقلما كان يصل متصوف إلى بيت المقدس إلا ويعرج على مقام النبي صموئيل ويبيت ليلة في ضيافته، التي أشرف عليها آل العلمي من عائلات بيت المقدس العريقة.

ويمكن اليوم مشاهدة الموقع من على بعد عدة كيلو مترات عديدة من الاتجاهات كافة، كما يمكن تشخيص المبنى من الداخل بعمارته الصليبية، حيث بقايا الكوابل والدعامات القوطية، فضلا عن الإضافات المملوكية. أما منارة المسجد الأسطوانية فتعود إلى القرن الثاني عشر هجري / الثامن عشر ميلادي، والتي شيدها عالم القدس الشيخ محمد الخليلي، والذي قام أيضا بإعمار المقام والمسجد المقام عليه. وقد تهدمت أجزاء كبيرة منه خلال الحرب العالمية الاولى، فبادر المجلس الإسلامي الأعلى في نهاية العشرينات من القرن العشرين إلى إعادة بناء ما تهدم وترميم ما بقي منه، كما يتضح من النقش الحجري فوق مدخل المقام.

يشبه المقام في بنائه قلعة حصينة، ويتكون من مدخل في وسطه بوابة كبيرة تؤدي إلى قاعة واسعة جدا يتوسطها ضريح، على شكل الأضرحة الإسلامية الرمزية (مثل أضرحة الحرم الإبراهيمي في الخليل)، ويوجد في وسط الجدار الجنوبي محراب. وعلى امتداد الجدار الشمالي للقاعة، يقود درج ضيق إلى القبو الذي يشبه المغارة الطبيعية حيث الشموع تحيط بالقبر. وبجانب المدخل الرئيس هناك درجات شديدة الارتفاع تقود إلى سطح المقام وإلى المئذنة، حيث يتمكن الزائر ومن زاويته الشرقية الجنوبية من مشاهدة مدينة القدس بكاملها.

وإذا تبقى شيء من الوقت يمكن للزائر زيارة ما كشفت عنه الحفريات الأثرية حول الموقع، والتي تعود الى العهود الرومانية والبيزنطية والصليبية، خاصة خزانات المياه والإسطبلات المنحوتة بالصخر.

ن.ج

V.2 مقام النبي صالح

تبعد قرية النبي صالح حوالي 15 كم الى الشمال الغربي من رام الله. ويتم الوصول اليها من مقام النبي صموئيل، وعلى امتداد السفوح الغربية للجبال وصولا إلى بلدة بيتونيا ومنها إلى مدينة رام الله، ومن ثم إلى بلدة بيرزيت، والزيارة ممكنة في كل الأوقات، ما عدا أوقات الصلاة.

ذكر نبي الله صالح تسع مرات في القرآن الكريم، وقد أرسله الله لهداية قوم ثمود، فقد بنيت في فلسطين، وتكريما لهذا النبي، تسع مقامات انتشرت عبر البلاد، أشهرها وأكبرها مقام النبي صالح في رام الله.

يقع المقام على أنقاض كنيسة بيزنطية في الطرف الجنوبي الشرقي لقرية النبي صالح، وما زالت حنيتها تشاهد إلى جانب الجدار الغربي للمقام، مما يدل على أن الموقع بقي مأنوسا على الأقل منذ المرحلة البيزنطية. وعلى الرغم من أن البناء غير مؤرخ، فمن المرجح أنه يعود إلى المرحلتين المملوكية والعثمانية، حيث تنتشر في محيطه بقايا القرية القديمة، وغرف المجاورين والزوار، والتي تحولت إلى أطلال. لكن المقام بقي مصوناً وبحرص شديد.

يتكون المقام من مبنى مستطيل يتوسط جداره الجنوبي محراب متواضع، وإلى جانب المصلى حجرة واسعة سكنها خادم المقام وزوار نبي الله صالح. وفي الجدار الغربي باب متواضع الأبعاد يقود الى الضريح.

ويوجد في الجهة الغربية للمبنى ساحة ضخمة أعدت للاحتفال بموسم النبي صالح الذي يقام كل عام، وتقام المهرجانات الدينية والشعبية، حيث تذبح النذور وتفرد الموائد للزوار، وتضاء الشموع على الضريح، وتقام الصلوات المتتابعة.

ويستقبل الزوار حتى اليوم بالتهليل والرقص من قبل سكان القرية الذين ينتمون إلى عائلة واحدة هي "التميمي"، والتي تعود جذورها الى مدينة الخليل، وينتمون الى الصحابي الشهير تميم بن اوس الداري، الذي تنتشر ذريته في الخليل خاصة، بالإضافة الى مدينتي القدس ونابلس وبعض قرى منطقة رام الله.

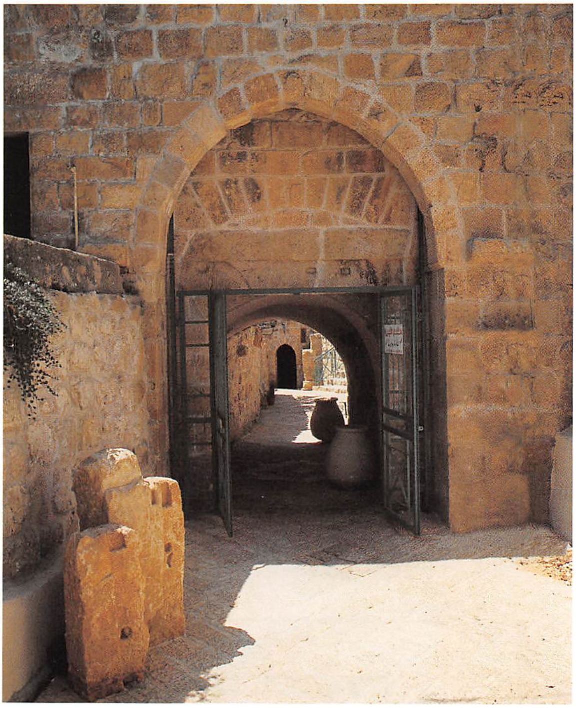
ن.ج

V.3 مقام القطرواني

يتم التوجه من النبي صالح شرقا إلى بلدة

مقام القطرواني، منظر عام.





خان جفنا، المدخل.

بير زيت. ومن وسطها شمالا باتجاه قرية عطارة.

على قمة جبل إلى الجنوب الغربي من قرية عطارة وفي موقع دير الاقبال، يتضح للناظر مقام جليل بمنظر رائع، بقبتين.

في وسط أرض منبسطة وواسعة، مليئة بأشجار البلوط والزعرور، ينتصب بناء مستطيل تعلوه قبتان. حيث يقع الضريح، في داخل المقام المرتفع السقف المحمول عبر الأقواس المتقاطعة بحجارة بيضاء منحوتة بعناية فائقة، والتي ما زالت تشهد آثار الشموع وحرق الزيت واضحة. ومن خلال طراز البناء يسود الاعتقاد بأنه يعود إلى المرحلة المملوكية، بالرغم من أن البحوث الأثرية كشفت عن وجود بقايا كنيسة بيزنطية تحت المقام، يعتقد البعض بأنها كنيسة القديسة كترينا، وحسب الاعتقاد السائد، فإن الاسم (قطرواني) مشتق من كاترين.

وحين تنحبس مياه الأمطار تجتمع جموع الفلاحين من كل المناطق المحيطة حول المقام، وتبتهل إلى العلي القدير مصلية صلاة الاستسقاء، وتقدم القرابين للتبريك من القطرواني، ويقوم الزائرون المسلمون عادة بالصلاة أمام محراب المقام.

وقد عين سكان القرى المجاورة خادماً للمقام يقوم عليه ويعتني به، وبزواره والفقراء طالبي الحاجات، فأقاموا له غرفة إلى الغرب من المبنى. وقد تناثرت بالقرب من المبنى بعض القبور لهؤلاء الذين أوصوا أن يتم دفنهم بجوار القطرواني، آملين أن تحل عليهم البركة والشفاعة.

ن.ج

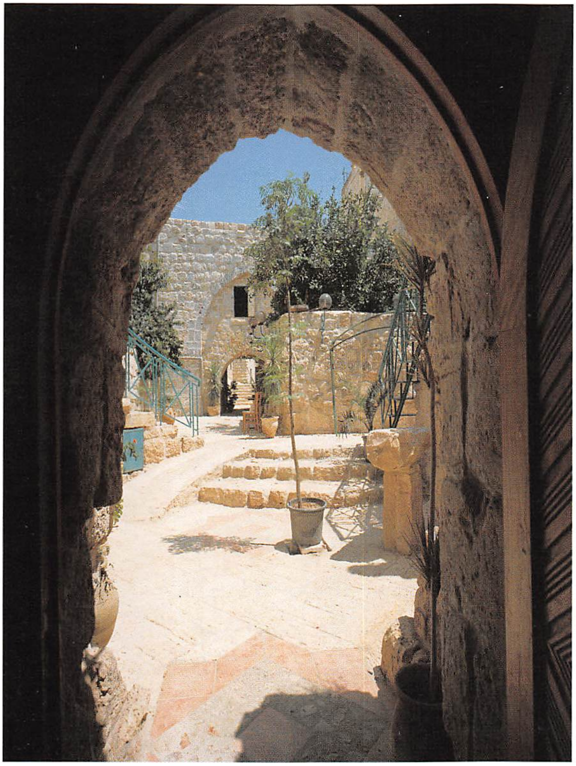
V.4 خان جفنا

يقع الخان على بعد خمسين مترا من دوار البلدة المركزي باتجاه الشمال الغربي. وقد جرى للخان ترميم شامل عام 1998-1999، وأصبح ضمن المرافق العامة لبلدة جفنا، حيث تم استخدام جزء منه كمقر لمجلس البلدة، وجزء آخر كمتنزه ومطعم. والزيارة مفتوحة في كل الأوقات، كما يمكن للزائر تناول الطعام والشراب فيه.

خان جفنا، الساحة الداخلية، منظر للدرج المؤدي للطابق العلوي..

خان جفنا، الساحة الداخلية، منظر عام.





للوصول إلى خان جفنا على الزائر الخروج من النبي صالح باتجاه الشرق والعودة إلى بلدة بيرزيت، ومنها الاستمرار شرقا بين كروم الزيتون والمشمش، وصولا إلى قرية جفنا التي تقع على بعد 2 كم إلى الشرق من بلدة بيرزيت، و23 كم إلى الشمال من مدينة القدس.

تقع جفنا على سفح تلة خضراء تطل على واد مليء بالمزروعات، خاصة اللوزيات والمشمش والزيتون. ومعنى "جفنا" بالعربية هو الكرمة، وسميت بذلك لكثرة كروم العنب في أراضيها خلال فترة الصليبيين، ولا تزال تحمل الاسم نفسه. كما ينسبها البعض الى جفنه جد الغساسنة تلك القبيلة العربية التي حكمت أجزاء واسعة من بلاد الشام باسم الإمبراطورية البيزنطية. وتؤكد آثار جفنا هذا التواصل التاريخي، كما يؤكدها وجود قرية الى الشمال الغربي من النبي صالح، والتي تحمل اسم دير غسانة.

وتعود أهمية جفنا إلى عدة عوامل، لعل أولها أنها ذكرت في الكتاب المقدس، وارتبطت بالسيد المسيح، حيث تواتر أن عائلته (مريم ويوسف) مرت من جفنا واستراحت تحت شجرة تين، ولهذا فقد كانت تقع على طريق الحجاج القادم من عكا إلى القدس عبر الناصرة وسبسطية ونابلس، ومنها إلى القدس وبيت لحم. وبسبب خصب أراضيها ووفرة المياه فيها، فقد اهتم الصليبيون بجفنا وأقاموا فيها، مستفيدين من الإمكانيات المتوافرة فيها، علما بأن الدلائل الأثرية



سهل اللبن، منظر عام.

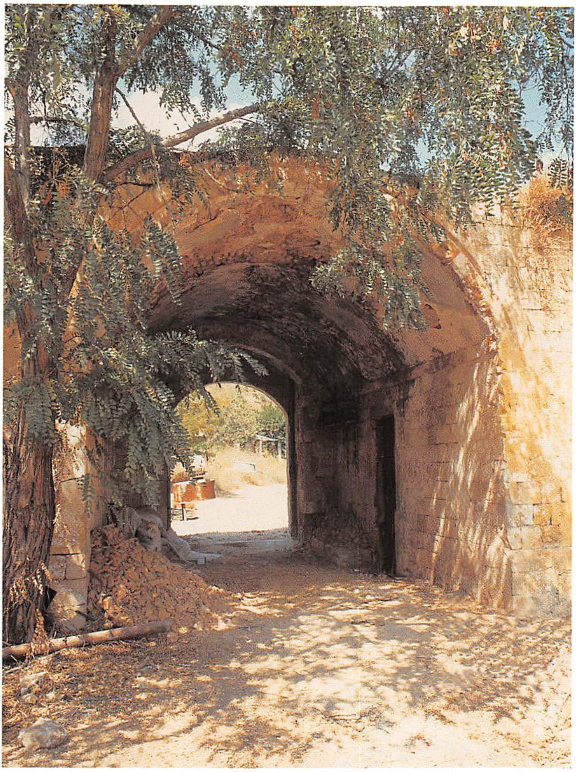
والتاريخية تشير إلى أن الاستيطان في جفنا يعود إلى فترات زمنية أبعد من ذلك، كالحقبة الرومانية وما بعدها، كما استمر دون انقطاع في العهد المملوكي حتى نهاية الحقبة العثمانية، والتي يعود أغلب أجزاء البلدة القديمة إليها.

ويعدّ خان جفنا من أهم معالم هذه البلدة، وهو ذو طابع حربي مهيب محصن، لذلك كان يطلق عليه البرج. أما تأريخ البناء فيرجح أنه يعود في الأساس إما للحقبة الرومانية (63 ق.م-324 م) أو البيزنطية (324-637م)، ثم أعيد ترميمه واستخدامه في فترة الصليبيين في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، واستمرت حتى نهايته. واستخدم كخان في الفترة المملوكية والعثمانية، حيث طرأ عليه الكثير من التعديلات والتغييرات.

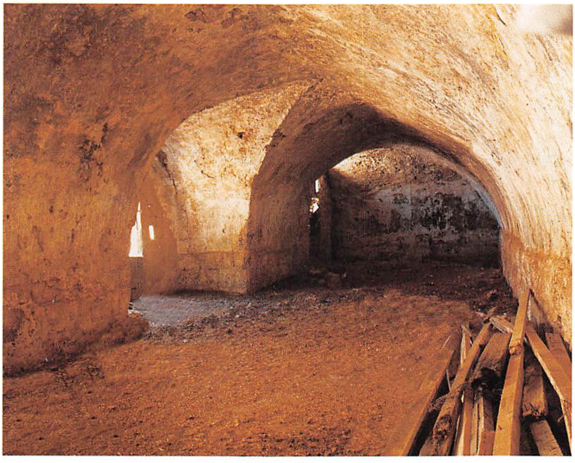
وللخان مخطط مستطيل الشكل، حيث يبلغ طول الجدار الجنوبي 40.60م، أما الجدار الغربي فيبلغ طوله 50م. ويشتمل الخان على غرف وقاعات تقع في الناحية الجنوبية الغربية والشمالية، أما في الناحية الشرقية فكان يوجد الرواق الذي كان يفتح على الساحة الداخلية للخان، وكانت أبواب كل الغرف تفتح على الساحة الداخلية. ولا توجد شبابيك تطل على الخارج في القسم الغربي، كما يحتوي البناء على معصرة زيت وغرفة يعتقد بأنها كانت تستخدم كسجن، بالإضافة إلى السراديب التي تربط بعض أجزائه، وقد يكون هناك مكونات أخرى لم يتم الكشف عنها بعد.

م.أ.خ

خان اللبن، المدخل، منظر داخلي.



خان اللبن، القاعة الرئيسية.



منظر طبيعي: سهل اللبن

يقع هذا السهل على بعد 15 كم شمال مدينة البيرة على الطريق الرئيس الواصل بين القدس ونابلس، حيث يصل الزائر إلى منطقة جبلية مرتفعة إلى الجنوب من قرية اللبن، تطل بهم على سهل واسع ذي منظر جميل وأخاذ هو سهل اللبن.

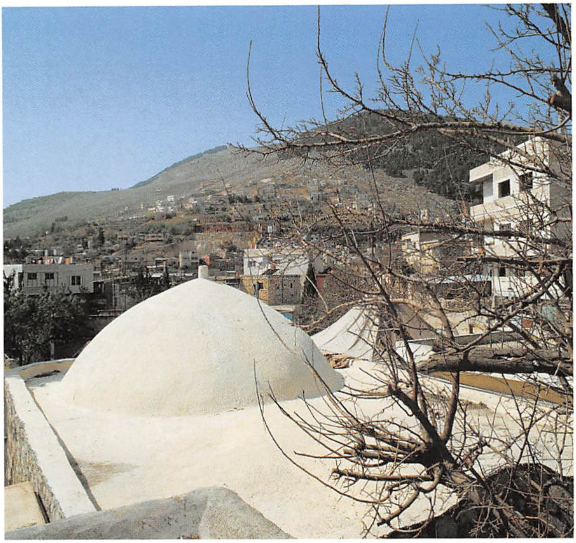
وهو سهل منبسط ذو تربة غرينية تحيط به سفوح الجبال المزروعة بالخضار والحبوب، وعلى طرفه الجنوبي توجد بقايا خان تحيط به أنواع من الأشجار الكبيرة كاللوز والتين والبلح والصنوبر. وتغطي منحدرات الجبال المحيطة أشجار الزيتون واللوز والبلوط.

م.أ.خ

V.5 خان اللبن

يبعد خان اللبن عن مدينة القدس 41 كم، فبعد الانتهاء من زيارة خان جفنا، على الزائر معاودة السير في طريق نابلس. وبعد المرور بالقرب من بلدة سنجل، وعلى بعد حوالي (1كم) من مفرق البلدة، ينبغي ترك الطريق الرئيس الجديد والاتجاه غربا حيث تبدأ الطريق في التعرج والانحدار الشديد، وصولا إلى سهل اللبن. ويقترح أن يقف الزائر عند أحد التعرجات ليستمتع بالمنظر الطبيعي لسهل اللبن، حيث إن نهاية التعرجات تؤدي إلى خان اللبن الذي يقع على يمين الطريق. والزيارة ممكنة طيلة ساعات النهار.

لا يعرف على وجه الدقة تاريخ بناء هذا الخان،



قبر يوسف، نابلس.

ولكن واقعه المعماري يشير إلى أن البناء يعود بتاريخه إلى نهاية الفترة المملوكية أو على الأبعد إلى بداية الفترة العثمانية. ويبدو أن عمليات ترميم وإعادة بناء لجزء كبير منه قد تمت في الجانب الغربي وقسم من الجانب الشمالي خلال الفترة العثمانية، ويمكن تمييز ذلك بوضوح من خلال حجارة البناء من حيث حجمها وطريقة بنائها. وقد استعمل هذا الخان، وبسبب موقعه الاستراتيجي، مقراً للشرطة في كل من فترتي الانتداب البريطاني والحكم الأردني.

والخان عبارة عن بناء كبير، له تخطيط مربع، يبلغ طول ضلعه 23م، وبخلاف باقي الخانات، فهو مكون من طابق واحد فقط. وقد يكون مرد ذلك إلى قربه من مدينتي نابلس والبيرة. ولا يزال جزء كبير من بنائه الأصلي قائما. ويؤدي مدخله إلى ساحة سماوية وقبو. ويوجد على طرفي المدخل غرف الإسطبلات، وحول الساحة في الجهة الشرقية والغربية بنيت غرف يعتقد أنها كانت تستخدم لأمور إدارية، أما الغرف التي على الجهة الشمالية فقد كانت غرف نوم للنزلاء. ولم يتم الاستدلال على غرفة المسجد، المعتقد وجودها في الخان. وفي الآونة الأخيرة جرت بعض الترميمات على البناء، مما جعله أكثر قابلية لاستقبال الزوار.

وبالإضافة الى موقع الخان الهام ، فإن وجود نبع ماء عذب بالمنطقة أدى إلى قيام هذا الخان في هذه النقطة.

م.أ.خ

V.6 مدينة نابلس

v.6.a مقام قبر يوسف

يقع هذا المقام في وسط قرية "بلاطة"، والتي



قبر يوسف، الحجرة الجنازية، نابلس.

تشكل اليوم القسم الشرقي من مدينة نابلس.

تختلف الروايات الشعبية المتناقلة حول موقع قبر سيدنا يوسف بوجود قبرين على الأقل يزاران ويعرفان بقبر يوسف. الأول في الحرم الإبراهيمي في الخليل (أنظر المسار الثامن1. أ) والثاني هو المقام المذكور أعلاه. وتذكر بعض الروايات الموثقة بأن يوسف دفن أولا في نابلس، ومن ثم نقل جثمانه إلى الحرم الإبراهيمي حيث أقيمت عليه قبة. وتشترك الديانات السماوية الثلاث في تقديس الموقع، لما ليوسف من مكانة مميزة في كل منها.

يقع المقام فوق بئر قديمة، ويتكون من غرفة ضريح مربعة بها محراب وتعلوها قبة. وليس في البناء ما يشير إلى أية عناية خاصة أوليت له سابقاً، وقد يكمن السبب في اعتناء السلاطين بقبر يوسف الموجود في الحرم الإبراهيمي. وتتقدم الغرفة المذكورة قاعة مفتوحة، تطل على الساحة المكشوفة، كما توجد حجرة صغيرة في الجدار الغربي، قد تكون لاستعمال خادم المقام والمشرف عليه.

ويشير واقع المبنى على هيئته اليوم إلى الطراز المعماري الشعبي الذي ساد في الفترة العثمانية. وكانت وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المالكة للموقع، قد أودعت العناية به بأيدي عائلة الشيخ فياض عبدالله، والتي تملك وثيقة موقعة باسم السلطان العثماني عبد الحميد، يخولهم شرف خدمة قبر يوسف عليه السلام.

ن.ج



مقام النبي يحيى، الواجهة الشمالية والتي يمكن رؤيتها من داخل الساحة، سبسطية.

V.7 سبسطية

V.7.a مقام النبي يحيى (يوحنا المعمدان)

يقع مقام النبي يحيى عليه السلام في باحة الجامع القائم في وسط بلدة سبسطية.

للوصول إلى مقام النبي يحيى في سبسطية على الزائر أن يمر من مدينة نابلس ثم يتجه غربا إلى أن يصل إلى مفرق طرق يؤدي نحو طولكرم وجنين. وعلى الزائر أن يتجه شمالا مسافة 2.3 كم نحو جنين بعد قطع طريق زراعية يؤدي الى قرية سبسطية. بإمكان الزائر عند خروجه من سبسطية سلوك الطريق الذي يمر عبر شارع الأعمدة الشهير الذي يقع ضمن آثار البلد القديمة. والزيارة متاحة طيلة ساعات النهار.

تقع سبسطية على بعد 15 كم إلى الشمال الغربي من مدينة نابلس، على جبل يقع على ارتفاع 463 م عن سطح البحر. وقد أنشأ

هذه المدينة هيردوس عام 25 ق.م. على أنقاض موقع مدينة السامرة القديمة، وقد جرى التنقيب عن آثارها في عدة حملات في السنوات 1908م،1931م، 1935م، وهي تضم بقايا عصور تاريخية عديدة تبدأ من العصر الحجري وتستمر حتى يومنا هذا.

وحينما أضحت المسيحية في أوائل القرن الرابع ديانة رسمية في الدولة البيزنطية، انقسم سكان سبسطية بين الوثنية والمسيحية، وانتشرت رواية ترسخت وتعمقت مع الزمن، تفيد بأن النبي يحيى (يوحنا المعمدان) الذي أعدمه هيردوس أنتيباس (4 ق.م-39 م)، مدفون في سبسطية. وقد أكد هذه الرواية وجود ثلاثة تماثيل كانت محفوظة بحجرة المقام، أحدها يمثل راقصة تحمل رأس آدمي على طبق، والثاني يمثل هيرودس وهو قابض على لحيته، إشارة إلى الندم، لقتل نبي الله يحيى عليه السلام، وأما الثالث فهو تمثال لنبي الله يحيى وهو مقطوع الرأس. لكن مما يؤسف له أن دائرة الآثار الإسرائيلية- كما أفاد أهالي البلدة- قد انتزعت التماثيل من مكانها عام 1987، ولا يعرف مصيرها حاليا.

ومما يرجح قوة الاعتقاد الشعبي ورسوخه، بأن النبي يحيى مدفون في هذا المكان، نسبة قبر والده وقبر أمه إلى المكان ذاته. وقد تواترت الروايات باعتباره مكان دفن نبي الله زكريا وزوجته، وفيه سجن نبي الله يحيى في آن واحد، علماً بأن هناك رواية تذكر أن قبر يحيى موجود في دمشق، واخرى انه في البقاع شرق لبنان.

وقد بنيت كنيستان بيزنطيتان في البلدة، ويبدو أن مسجد البلدة الوحيد قد بني بالقرب من أنقاض إحداها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث كانت سبسطية، من أوائل المدن التي شيد فيها جامع عرف بالجامع العمري، الذي دمره زلزال في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وبني على أنقاضه كنيسة صليبية. وعندما تمكن صلاح الدين الأيوبي من دحر الصليبيين على إثر معركة حطين في 583هـ/ 1187م قام ببناء مقام لتخليد ذكرى النبي يحيى عليه السلام. وفي عام 1310هـ/ 1892-1893م أضاف السلطان العثماني عبد الحميد الثاني غرفتين إلى بناء المسجد في الجزء الشرقي من المبنى، حيث تقام الصلوات الآن، كما أمر ببناء المئذنة.

لقد شكل الموقع مكان جذب لرجال التصوف والزوار، ويصف عبد الغني النابلسي المقام قائلا: "وقد نزلنا في هذه القرية (أي سبسطية) ودخلنا إلى هذا الجامع الذي أصله دير كبير واسع. فرأيناه مشتملا على أبنية عجيبة انهدم غالبها. ودخلنا فيه إلى مغارة ينزل إليها بدرج، وفي أسفلها طاقة صغيرة، يقال إن يحيى وأباه زكريا داخل هذه الطاقة".

ويتكون المقام من غرفتين، الأولى تعلو القبر ويتوصل إليها عبر ممر يتقدم واجهتها الشمالية، وهي مربعة المسقط تعلوها قبة نصف كروية. أما الغرفة الثانية، فهي ملاصقة للأولى وبها محراب، ويتوصل إليها عبر باب يمر من الغرفة الأولى.

م.أ.خ

البريد بين دمشق والقاهرة

د. مروان أبو خلف

كان طريق البريد بين القاهرة ودمشق من أهم الطرق التي تمر في فلسطين، وذلك لوجود الطريق الساحلي المعروف باسم "Via Maris". وتفيد المصادر التاريخية أن الخانات خدمت كمحطات للبريد على معظم الطرق التجارية التي تصل أطراف العالم الاسلامي. إلا أنه في الفترة المملوكية، وخاصة في عهد الظاهر بيبرس (658-676هـ / 1260-1277م)، تم الفصل في كثير من الأماكن بين طرق البريد وطرق الخانات، وتم إنشاء أبنية جديدة للبريد على طول المسافة الواقعة بين القاهرة ودمشق. ولقد لعب البريد دورا هاما في الدولة الإسلامية، حيث أمن الاتصال بين أجزاء الدولة وكفل سرعة وصول الأخبار والأوامر، مما جعله دوما موضع اهتمام معظم السلاطين خاصة في الفترة الأولى، حيث كانت البلاد ما تزال محط أطماع الصليبيين.

وقد كان مخطط هذه المحطات مستطيل الشكل يضم بعض الوحدات المعمارية الضرورية لإقامة عدد قليل من الرجال مع خيولهم. ويتكون كل منها من غرف صغيرة، ومسجد متواضع، وبئر ماء، وإسطبل للخيول. وقد ظهرت أمثلة لهذه المحطات في فلسطين في يبنا، قاقون، اللجون، وجسر بنات يعقوب.

ومن ضمن مسالك البريد التي كانت تصل بين القاهرة ودمشق، تلك التي وصفها ابن فضل الله العمري في كتابه المشهور "التعريف بالمصطلح الشريف". إن مسلك البريد في فلسطين كان يبدأ من غزة ويتجه باتجاهين: الأول إلى الكرك، والثاني إلى دمشق مارا في بيت دراس، ياصور، اللد، العوجاء، الطيرة، قاقون، الفندقومية، جنين، زرعين، بيسان، المجامع، الزهراء، وإربد.

وفي القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي كان خط البريد يبدأ في العريش، ثم يواصل مسيره عبر خان يونس، غزة، المجدل، يبنا، الرملة، رأس العين، قاقون، اللجون، عيون التجار، المنية، جسر بنات يعقوب، القنيطرة، ومنها إلى دمشق.



نابلس : مدينة الحمامات والصابون

د. مروان أبو خلف ؛ م. نصير عرفات ؛ د. نظمي الجعبة

VI.1 نابلس

VI.1.a مقام غانم

منظر طبيعي

جبل جرزيم (جبل السمرة)

VI.1.b جامع الخضرة (مقام ستنا الخضرة)

VI.1.c مصبنة طوقان

VI.1.d حمام الجديدة (الشفاء)

VI.1.e خان الوكالة الغربية

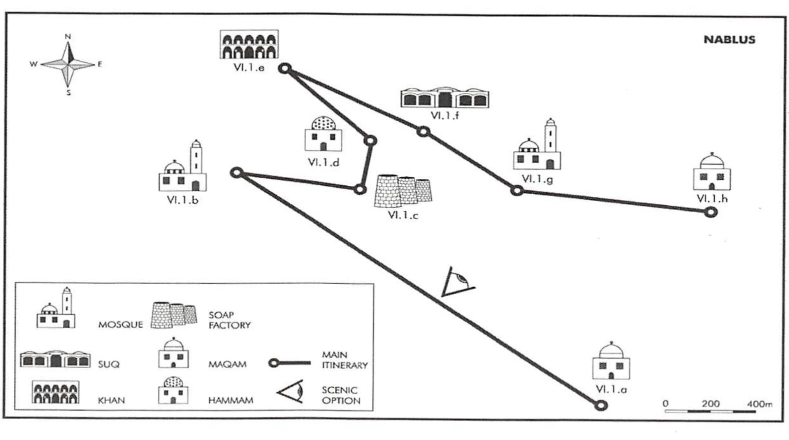
VI.1.f سوق خان التجار والوكالة الفروخية

VI.1.g الجامع الكبير

VI.1.h مقام رجال العامود

صناعة الصابون النابلسي

القصور النابلسية



صبانة طوقان، عملية تجفيف قطع الصابون.

يتناول هذا المسار مدينة نابلس أكبر مدن الضفة الغربية. وهي تقع على بعد 67 كم شمالي مدينة القدس وترتفع حوالي 570 م عن سطح البحر، وتتوسط الوادي الواقع بين الجبلين المعروفين بعيبال وجرزيم. أما سبب تسمية هذا المسار بمدينة الحمامات والصابون فتعود إلى كثرة الحمامات التي كانت فيها، وإلى ازدهار صناعة الصابون واستمرارها التي اشتهرت بها هذه المدينة، حيث ذكرت المصادر أنه مع نهاية القرن 13هـ/19م كان في مدينة نابلس ما لا يقل عن ثلاثين مصبنة نشيطة لصناعة الصابون. وتتميز نابلس بتسلسل الاستيطان البشري فيها منذ الألفية الثانية ق.م، وباحتوائها على نماذج من الأبنية التاريخية والأثرية التي تعود بتاريخها إلى فترات مختلفة منذ المرحلة الرومانية (63 ق.م.-324 م) وحتى نهاية الفترة العثمانية 1336هـ/1917م.

أصبحت نابلس مدينة إسلامية في حوالي سنة 15هـ/636-637م وتم ذكرها في العديد من المصادر التاريخية الخاصة بالحقبة الإسلامية المبكرة. وأهم ذكر لها جاء به المقدسي في القرن 4هـ/10م حيث أطلق عليها "دمشق الصغرى" وذلك لتشابهها مع دمشق، لكثافة شجر الزيتون الذي كان يحيط بها، ولبيوتها التي كانت مبنية من الحجر، ولجداول المياه التي كانت تجري في أنحائها كافة.

احتل الصليبيون مدينة نابلس في 492هـ/1099م، وذلك حينما تمكن الأمير تنكرد من الاستيلاء عليها وجعلها من ضمن أراضي إمارته الخاصة (إمارة الجليل). وسرعان ما عادت نابلس إلى مملكة بيت المقدس اللاتينية وذلك في عهد بلدوين الأول. وقد تم في تلك الفترة بناء العديد من الكنائس والعمائر الدينية.

خضعت نابلس للسيطرة المملوكية على إثر معركة عين جالوت 658هـ/1259-1260م على يد السلطان بيبرس. وقد وصفت المصادر المملوكية المعاصرة نابلس بأنها مدينة غنية بالمياه ومحاطة بالأراضي الخصبة. كما شهدت خلال عهود مختلفة نشاطا علميا وفكريا، حيث أثر العديد من علمائها على الحياة العلمية والفكرية قي العالم الإسلامي. ومن حيث النشاط المعماري فقد أنشئ فيها الكثير من الأبنية التي تحمل طابع العمارة الرسمية والمحلية، وقد ورد ذكر بعض منها في المصادر التاريخية، وقد تنوعت هذه العمائر فشملت المساجد والمقامات والزوايا والأسبلة والطواحين والخانات والأسواق.

ويركز هذا المسار على المدينة القديمة، وعلى العديد من الأماكن التاريخية والأثرية الهامة التي يمكن زيارتها بسهولة، وتم اختيار الأماكن من أنماط متعددة لتغطي وتمثل أنواعا مختلفة من المباني مثل المسجد الكبير، ومصبنة طوقان، وسوق خان التجار، وجامع الخضراء، وخان الوكالة الغربية، وحمام الجديدة، بالإضافة إلى مجموعة من المقامات. كما يتضمن المسار أيضا نافذتين، نافذة عن القصور، وأخرى عن صناعة الصابون، وهناك موقع اختياري هو جبل السمرة (جبل

جرزيم). وتم وضع خط المسار بحيث تكون الزيارة ليوم واحد. وتشتهر مدينة نابلس بالحلويات الشرقية خاصة الكنافة، الجديرة بأن يقوم الزائر بتذوقها، وكذلك بشراء بضع قطع من الصابون النابلسي الشهير الذي لا مثيل له.

م.أ.خ

VI.1 نابلس

VI.1.a مقام غانم

يتم الوصول إلى المقام عبر الطريق التي تقع إلى الجنوب من مدينة نابلس، إذ يتم الصعود إلى جبل جرزيم من سفوحه الجنوبية الغربية حيث ينتصب مقام غانم على قمة الجبل مطلاً على مدينة نابلس.

وزيارة المقام ممكنة في كل الأوقات.

يقع مقام غانم على قمة جبل جرزيم إلى الشمال الشرقي من خرائب القلعة التي بناها القيصر البيزنطي جستنيان وأعيد بناؤها في عهد الصليبيين، والتي تضم أيضاً آثار كنيسة مثمنة الشكل. ينسب المقام إلى الشيخ غانم البوريني (ولد سنة 563هـ/1167م)، وقد سلمه صلاح الدين الأيوبي نظارة القلعة، وإلى هذه العائلة ينسب حي في القدس يحمل اسمهم "حارة الغوانمة". ومن المعتقد أيضا بأن البناء لم يكن سوى معتكف للشيخ غانم المذكور وأبنائه. إن موقع المقام الاستراتيجي يجعل من المرجح أن يكون قد استعمل كبرج مراقبة، لا سيما أن شكل المبنى المربع، والمكون من طابقين، يشبه إلى حد كبير أبراج

مقام غانم، نابلس.



مقام غانم، منظر عام، نابلس.



المراقبة الأخرى في جنوب فلسطين.

يتكون المبنى من غرفتين متلاصقتين، بداخلهما ضريح متواضع. ومن على قمة المبنى تبدو مدينة نابلس بكل تفاصيلها. ويروي سكان نابلس بأن المبنى كان مركزا لإعطاء إشارات الإنذار لسكان المدينة والمناطق المحيطة خلال فترات الغزو الصليبي.

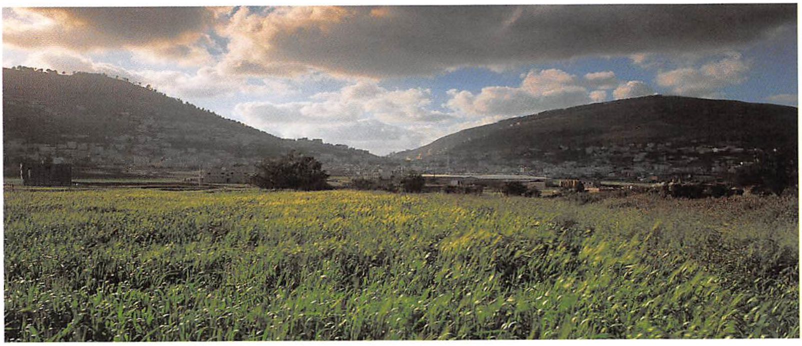
ن.ج

منظر طبيعي

جبل جرزيم (جبل السمرة)

تقع قمة جبل جرزيم (الطور) على ارتفاع 880 م فوق سطح البحر. وهذا الجبل مقدس لدى السمرة الذين يعتقدون أنه جبل مورياه حيث ضحى إبراهيم بولده أسحق، وهو المكان الذي يحجون إليه ويذبحون قرابينهم في عيد الفصح. يعتقد السامريون أنهم من بني إسرائيل، وتعني كلمة "سامري" محافظ، وهم طائفة خرجت على اليهودية. ويعتقدون أنهم البقية الباقية من اليهود الذين لم يخرجوا من فلسطين إلى بابل، ولا يعترفون إلا بنبوة سيدنا موسى، ويعتبرون أنفسهم من نسل هارون، ويحافظون على تقاليد مجتمع مغلق ملتزم بأحكام توراتهم وقوانينها المكونة من أسفار خمسة فقط هي: التكوين والتثنية والعدد والخروج واللاويون. يتوضأ السامريون قبل الصلاة وتغتسل النساء من الجنابة والحيض والنفاس ويصلون في الصباح بركوع وسجود متجهين صوب جبل جرزيم قبلتهم. كما يحرمون العمل يوم السبت ويقضون ليلته بالصلوات والتسبيح. وهم يعيدون في الفصح والحصيد والقربان.

ومن أهم مراسم عيد الفصح اليوم ذبح القرابين في حقل مفتوح محاط بسياج، وفي وسطه بئر عميقة تستعمل مكانا لذبح القرابين وانسياب الدماء، بالإضافة إلى بئرين عميقتين تستعملان كتنورين. وبالقرب من المكان كنيس سامري وسط الحي السكني الجديد لهذه الطائفة. ويؤمن السمرة بالمسيح المنتظر الذي سيهبط إلى جبل جرزيم. وبالرغم من ان



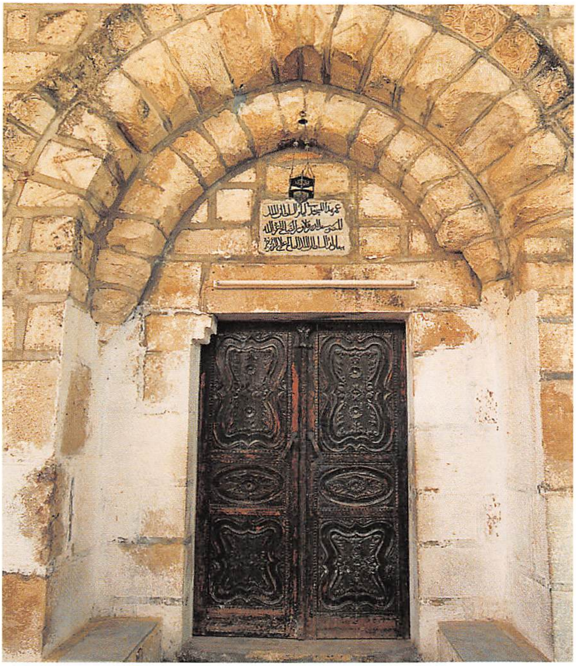
جبل جرزيم، منظر شامل.

السمرة يعتمدون التقويم القمري، إلا أن لهم تقويمين أحدهما يبدأ من يوم "بدء الخليقة"، والثاني من يوم خروجهم من الصحراء.
يعيش السامريون في عزلة تامة عن الطوائف الأخرى، ولا يتزاوجون إلا من أبناء طائفتهم، لذلك تعدّ من أصغر طوائف العالم، إذ يبلغ تعدادهم ما يقارب 450 نسمة، ويسكن غالبيتهم على جبل جرزيم والبقية في حولون، بالقرب من يافا. تستعمل الطائفة اللغة العبرية التوراتية في الصلاة، والعربية في الحياة اليومية.
أقام السمرة في عهد اسكندر المقدوني هيكلا على الجبل واعتبروه مركزهم الديني والروحي، وبالرغم من أن هذا المعبد قد دمر تدميرا كاملا على يد يوحنان هركانوس عام 125 ق.م، إلا أنه يمكن مشاهدة آثاره حتى اليوم على السفح الشرقي للجبل، حيث هناك درج يؤدي إليه. وقد شارك السامريون بعدة ثورات ضد الرومان، كانت نتيجتها تقلص عددهم بشكل مريع، إضافة إلى زيادة عزلتهم وانغلاقهم الداخلي

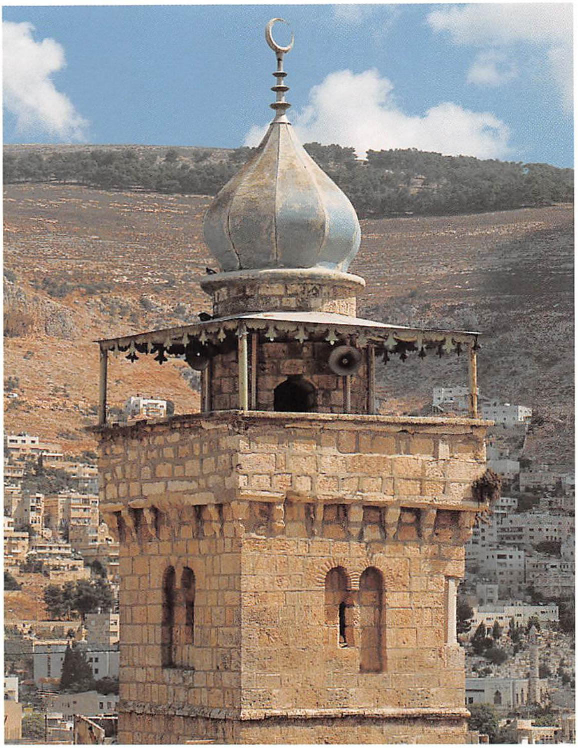
ن.ج

VI.1.b جامع الخضرة (مقام ستنا الخضرة)

يقع جامع الخضرة في منطقة رأس العين في الجهة الغربية من مدينة نابلس بالقرب من عين العسل.
ويمكن زيارة الجامع في ساعات النهار باستثناء أوقات الصلاة.
يفترض، وحسب التراث المحلي النابلسي، بأن الخضرة هي إحدى بنات يعقوب التي رفضت تزويجها إلى شيخ قبيلة وثني، وحين دعت الخضرة ربها أن ينقذها من هذا الزوج مات، فبني المقام لتخليد ذكرى هذا الحدث. ويقال أيضا بأنه المكان الذي حزن فيه يعقوب على ابنه يوسف، حيث توجد بالقرب من الباب الغربي للمقام غرفة صغيرة مظلمة تعرف باسم "حزن يعقوب"، ويعتقد بأن الغرفة مقامة فوق مغارة. ومن الملاحظ بأن عدة الدراويش ما زالت موجودة حول المقام.
تشير التفاصيل المعمارية للجامع إلى أن أصل هذا الجامع كنيسة صليبية بنيت فيما بين سنة



جامع الخضرة، المدخل، نابلس (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان).

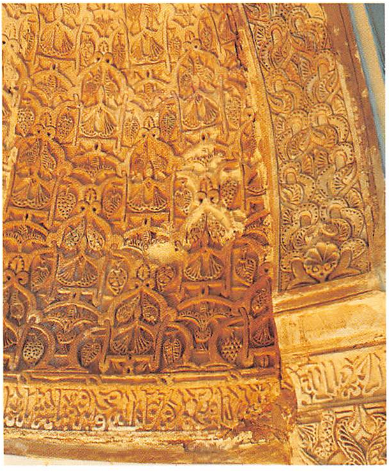


جامع الخضرة، المئذنة، تفاصيل القسم العلوي، نابلس(حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان).

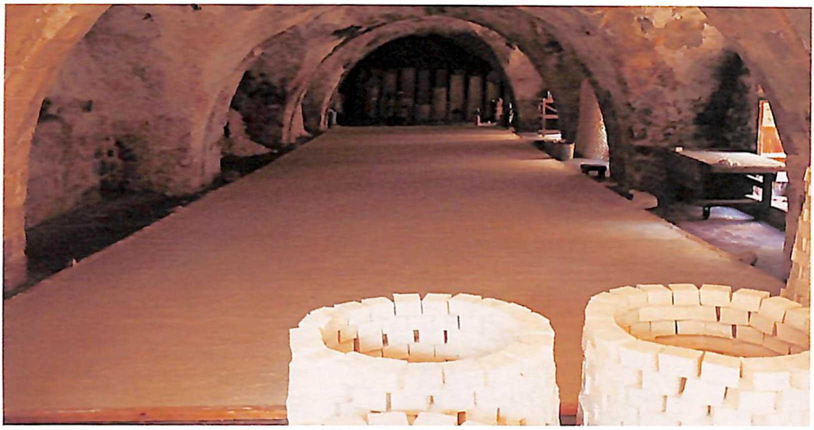
492-583هـ/ 1099-1187م، وقد حول الأيوبيون الكنيسة إلى جامع عند تحريرهم للمدينة عام 583هـ/ 1187-1188م. ويشير نقش كتابي، على لوحة رخامية، تعلو المدخل الأوسط الشمالي، إلا أن الجامع قد عمر وأعيد بناؤه في عهد المنصور سيف الدين قلاوون (678-689هـ/ 1280-1290م) وذلك برعاية ولده، ولي عهد السلطنة، الصالح علاء الدين علي بن قلاوون (679-687هـ/ 1281-1288م) وقد أضيفت المئذنة الحالية للجامع أثناء هذا التعمير. واستمرت العناية بهذا المسجد في العهد العثماني. حيث تم تجديد الأقسام العلوية للجهة الشمالية من بيت الصلاة، وزخرفة طاقية المحراب. ومن المحتمل جدا بأن تكون هذه الأعمال قد جرت في القرن 11هـ/17م لأن الرحالة التركي أوليا جلبي قد زاره سنة 1082هـ/ 1671-1672م دون أن يشير إلى أي خراب أو هدم في الجامع.

يتألف المبنى من ساحة شمالية، وبيت للصلاة، ومئذنة. والساحة الشمالية للجامع مستطيلة الشكل تتوسطها بركة ماء رخامية وشاذوران، وفي زاويتها الشمالية الغربية تقوم وحدة الوضوء، في حين توجد في الزاوية الجنوبية الشرقية مجموعة من القبور الحديثة.

أما بيت الصلاة فهو بناء مستطيل يمتد من الشرق إلى الغرب، يقع جنوب الساحة الشمالية المكشوفة، ويطل عليها بواجهة حجرية فتحت فيها ثلاثة مداخل متناظرة



جامع الخضرة، المحراب، تفاصيل زخرفية، نابلس.


صبانة طوقان، الطابق العلوي حيث يتم نشر مادة الصابون لتجف، منظر عام، نابلس.

البناء والتصميم مزخرفة بإطار حجري على شكل عقد مدبب، عليها زخارف قوامها أفرع نباتية ذات أشكال حلزونية ودائرية، وتشكل في مجموعها دائرة زخرفية واحدة تغطي سطح كل قطعة حجرية. ويتوسط جدار قاعة الصلاة الجنوبي، محراب كبير، قوامه حنية حجرية كبيرة، تعلوها طاقية المحراب المكسوة بزخارف مشكلة من أوراق وأفرع نباتية وكيزان صنوبر، ويدور أسفلها على عرض المحراب شريط كتابي بالخط النسخي يتضمن آية الكرسي. ويجاور هذا المحراب منبر خشبي بديع وحديث الصنعة.

وتقع المئذنة على بعد أمتار قليلة خارج الجدار الشمالي للساحة الشمالية المكشوفة، وتتكون من قاعدة حجرية مربعة الشكل تدعم بدن المئذنة المكون من قسمين من البناء الحجري، الذي يسند بدوره شرفة المئذنة القائمة على مجموعة من الكوابل الحجرية، يتوسطها جوسق حجري صغير دائري الشكل.

م.أ.خ

VI.1.c مصبنة طوقان

تقع مصبنة طوقان على الزاوية الجنوبية الغربية لساحة التوتة في وسط حارة القريون بنابلس.

ويمكن زيارتها بترتيب مسبق مع المالك ما عدا يوم الجمعة. والفرصة متاحة لشراء الصابون النابلسي المصنع من زيت الزيتون الطبيعي.

أسس هذه المصبنة حسن طوقان في نهاية القرن 13هـ/19م. وهي عبارة عن بناء حجري ضخم مستطيل الشكل، يتألف من طابقين، تطل واجهتها الرئيسة على ساحة التوتة. وهذه الواجهة قليلة الزخارف، لها مدخل كبير واسع فتح في وسط الواجهة وذلك لتسهيل إدخال أحمال الزيت وإخراج أحمال الصابون، وقد زودت بباب خشبي. ويعلو المدخل عقد مدبب فتح على جانبيه العديد من النوافذ الصغيرة الحجم، يعلو كل منها عقد مدبب، وغالبا ما تكون هذه النوافذ مغلقة من الداخل. وتشغل الجزء العلوي من الواجهة،



صبانة طوقان، غرفة تستعمل لغلي الصابون، راقود الصابون، نابلس.

على النقيض من القسم السفلي، شبابيك كبيرة الحجم تنتهي بعقود مدببة، لإدخال النور والتهوية للطابق العلوي من المصبنة للمساعدة في جفاف الصابون وتهويته .

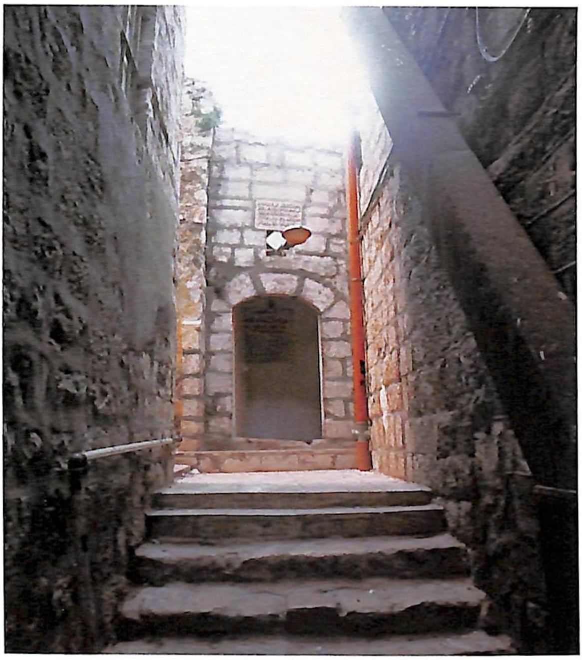
ويؤدي المدخل الكبير إلى الطابق الأرضي من المصبنة وهو مركز النشاط الإداري والإنتاجي، حيث يوجد مكتب الإدارة والمحاسبة. وفي هذا الطابق، الذي هو بمثابة قاعة طويلة عالية السقف ذات عقود متقاطعة ترتكز على دعامات حجرية تتوسطه، تجري عملية صنع الصابون. ويوجد في هذا الطابق ايضاً مكان واسع يسمى "البلاط"، وتوجد فيه الحلة الضخمة أو القدر التي تتم فيها عملية الطبخ. وأمام هذه القدر من الأسفل، يوجد حوض نصف دائري يسمى "المبزل"، وبجواره أحواض أخرى مربعة لوضع ماء الخمير والماء الصافي. ويوجد تحت القدر حجرة صغيرة تحتوي على القميم أو الفرن، حيث تتم فيها عملية الاحتراق لإنضاج الصابون، ينزل إليها من الجهة المقابلة للمبزل بدرج، وتوجد في أعلى القميم مدخنة متصلة بالجدار وتنتهي فوق المصبنة. كما توجد في هذا الطابق بئر الزيت، وهو المكان الذي يتم فيه تخزين الزيت أثناء الموسم.

وهناك درج يقع في الجهة الجنوبية الشرقية للمصبنة يؤدي إلى الطابق العلوي، وهو عبارة عن مساحة كبيرة مستوية تسمى مفرش. والمفرش هو المكان الذي تفرش عليه مادة الصابون اللزجة وتترك حتى تجف، ثم يقطع الصابون المفروش بآلات حديدية حادة قطعا طولية وعرضية، ثم ترتب القطع بحيث يبنون منها بعد أن تجف في جزء آخر من الطابق " تنانير" ، وهي على شكل منارة أسطوانية يتخللها الهواء حتى يتم جفافها تماما وتصبح صالحة للاستعمال. ويتشكل سقف هذا الطابق من قباب ضحلة متتالية

حمام الجديدة، قاعة الاستقبال مع نافورة مركزية، نابلس.



حمام الجديدة، درج المدخل، نابلس.



ترتكز على عقود تستند على دعامات.

ن.ع

VI.1.d حمام الجديدة (الشفاء)

يقع حمام الشفاء في شارع النصر مقابل جامع البيك وسط البلدة القديمة.

الزيارة والاستحمام متاحان طيلة أيام الأسبوع؛ ويوم الثلاثاء مخصص للنساء.

اعتبر النابلسيون الذهاب للاستحمام متعة ونظافة، فكانت النسوة يأخذن للحمامات العامة الفاكهة ليأكلنها، ويرقصن وينشدن الأغاني الخاصة بكل مناسبة اجتماعية أو احتفال يقام داخل أسوار الحمام. لذا فقد ارتبطت الحمامات في المدينة بالحياة الاجتماعية للسكان، فكانت الحمامات مسرحا للاحتفالات الاجتماعية والمناسبات، بما في ذلك الزواج والطهور. وكان يتم حجز حمام خاص للعروس وأهلها، وآخر للعريس وأهله وأصدقائه، وبعد أن يستحم الجميع كان يسير موكب المحتفلين يتقدمه العريس باتجاه بيت العروس، وفي الطريق يكون الغناء وضرب الدفوف. وعلى امتداد سير موكب المحتفلين يقوم أصحاب المحلات بنثر حبات الأرز أو العطور عليهم.

ونظراً لأن هذا الحمام هو أحدث حمامات نابلس، فقد أطلق عليه اسم "حمام الجديدة". وأما الاسم الثاني والحالي له "حمام الشفاء" فقد يكون مشتقا من أبيات الشعر المنقوشة فوق المدخل. وهذا الحمام هو جزء من تجمع لعدد من المباني المتصلة والتي تعود ملكيتها لآل طوقان. وأنشأ هذا الحمام صالح

واحمد ومصطفى، أبناء إبراهيم طوقان، سنة 1149هـ/1736-1737م. ويستدل على هذه المعلومات من واقع نصوص أبيات الشعر المنقوشة على لوح حجري يعلو مدخل الحمام.

للحمام تخطيط متواضع مع أنه يحوي العديد من الأقسام، أولها وبعد المدخل مباشرة، قاعة كبيرة للاستقبال، تعرف باسم "المشلح الصيفي". وتتوسط هذه القاعة نافورة ماء، وتتوزع على جوانبها مصاطب حجرية للانتظار أو لشرب المرطبات أو النرجيلة بعد الاستحمام. وتتميز هذه القاعة عن مثيلاتها في الحمامات الأخرى، أنها محاطة بأعمدة خشبية ذات تشكيل جميل، وبوجود منطقتين مرتفعتين فيهما أثاث خاص. وسقف القاعة تغطيه قبة في وسطها فتحة سماوية. وتلي القاعة الصيفية قاعة أخرى تعرف باسم "المشلح الشتوي"، وهي تؤدي الغرض نفسه للقاعة الصيفية، لكن في فصل الشتاء، لذلك جاء تصميمها بارتفاع أقل ولا توجد فتحة في السقف، ونافورة الماء التي في وسط أرضية القاعة هي أصغر.

وتتم عملية الاستحمام في القاعة الدافئة، وهي قاعة متسعة تتوزع حولها عدة غرف صغيرة (خلوات)، يغطيها قبو نصف برميلي استخدمت في بنائه أوانٍ فخارية، لضمان حفظ الحرارة الداخلية، وفتحت فيه فتحات دائرية غطيت بقطع زجاجية تسمح بنفاذ الضوء، وتمنع وصول مياه الأمطار أو نفاذ الحرارة الداخلية، وهي ذات تشكيل جميل.

وأهم ما يميز هذه القاعة، هو عملية تسخين الماء وتدفئة الأرضية. ويتم ذلك بتمرير الدخان الناتج عن عملية الحرق أسفل البلاط الحجري مما يؤدي إلى تسخينه وتدفئة الحمام، وعليه فإن الاستلقاء على أرضية القاعة يؤدي إلى تعرق الجسم، ويعتقد أن في هذا فائدة صحية عالية. وبهدف حفظ الحرارة الداخلية بين الأقسام المختلفة، تم عمل ممرات ضيقة وقليلة الارتفاع بين أجزاء الحمام، وعلى طرفي كل ممر يوجد بابان لمنع انتقال الحرارة.

ن.ع

VI.1.e خان الوكالة الغربية

يقع في الطرف الغربي من البلدة القديمة عند المدخل الغربي لسوق الحدادين بنابلس.

زيارة الوكالة متاحة طيلة ساعات النهار. وقد تملكت البلدية الموقع مؤخرا حيث يجري الآن ترميمه وتأهيله.

ينم موقع الوكالة الغربية على بعد تنظيمي وتخطيط سليم، حيث فصل بين منطقة الحرف الصناعية والمناطق السكنية، فهو أول ما تصادفه القوافل التجارية القادمة للمدينة. فبعد شراء المواد الخام من السوق كان يتم نقلها مباشرة إلى مركز الحرف الملاصق لمبنى الخان، والذي تخصص بأعمال الحدادة وطرق النحاس، حيث يتم تصنيعها وإنتاج ما يحتاج إليه ومن ثم عرضه للبيع دون الحاجة لنقله على الجمال أو الدواب إلى سوق المفرق.

للوكالة الغربية تصميم جميل وعملي يتميز

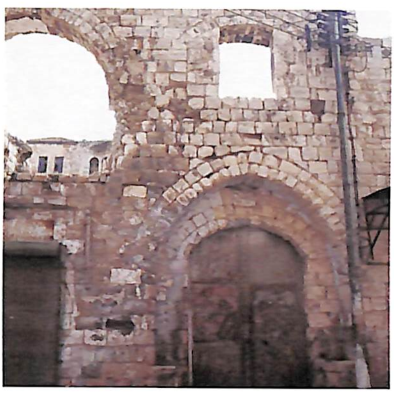
باستجابته وخدمته للغرض الرئيس الذي بنيت من أجله الوكالة. فالباب ضخم يتيح دخول الجمال والدواب، باعتبارها ناقلات المواد المتاجر بها، بسهولة ويسر. وأول ما يستقبل التاجر عند دخوله ساحة رحبة تتوسطها نافورة للماء، وسيحظى المرء بغرفة لخزن البضائع ومكان في الإسطبل لراحة دوابه، في حين سيخلد التاجر للراحة في إحدى غرف الطابق الأول بعد أن يسير عبر درج يوصله لغرفته الخاصة.

وعليه فإن تخطيط هذه الوكالة يتكون من طابقين، مساحة كل طابق تبلغ حوالي ألف متر مربع. ويقع المدخل في الطابق الأرضي الذي يؤدي إلى ساحة سماوية محاطة بالمخازن والإسطبلات، حيث كانت تتم فيها المعاملات التجارية من بيع شراء. وبني حول الساحة رواق، يحمل عقودا نصف دائرية ترتكز على أعمدة حجرية، ويوصل هذا الممر إلى غرف الطابق العلوي. وهذه غرف بسيطة التكوين، لكل واحدة منها باب وشباك يطل على الساحة الداخلية وشباك آخر يطل على الطريق. هذا والجهة الغربية مهدمة إلى حد كبير، ويتضح مما تبقى من هيكلها أن عدد الطوابق في تلك الجهة هو ثلاثة طوابق. ومبنى الوكالة غير مؤرخ، ولكن استنادا إلى نمطه المعماري فهو على الأرجح يعود إلى أواخر العصر المملوكي.

ن.ج



خان الوكالة الغربية، الواجهة الشرقية، نابلس.



خان الوكالة الغربية، الواجهة الجنوبية، نابلس.

VI.1.f سوق خان التجار والوكالة الفروخية

يقع سوق وخان التجار في وسط البلدة القديمة في نابلس، ويزار السوق طيلة ساعات النهار.

كان لموقع مدينة نابلس على امتداد خطوط التجارة التاريخية في فلسطين، أثر واضح في ازدهار النشاط المعماري المعتمد بدخله على

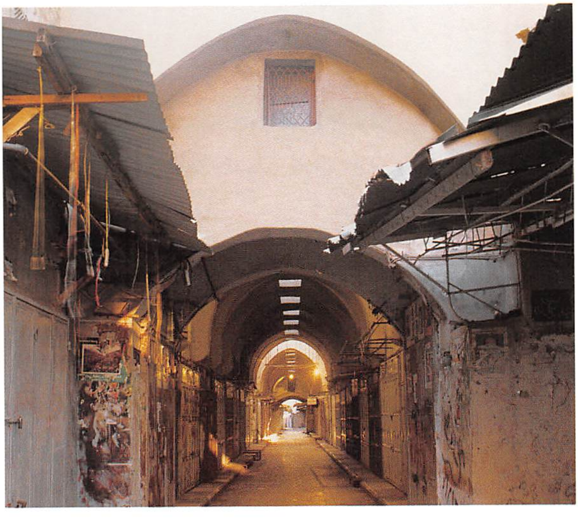
عملية التبادل التجاري، فتم بناء مجموعة من الخانات والوكالات في داخل مدينة نابلس وخارجها في العصور الإسلامية المتعاقبة. ولم يتبق من أغلب هذه العمائر إلا نماذج محدودة، علاوة على بعض الأطلال، وشذرات من تاريخها المدون.

سوق خان التجار

يعدّ سوق وخان التجار أو كما يعرف أيضا باسم السوق السلطاني، وكما يظهر من اسمه، المركز التجاري والاقتصادي لمدينة نابلس. وورد ذكر ووصف لهذا السوق وخانه في سجلات محكمة نابلس الشرعية، وكذلك في كتابات الرحالة التركي أوليا جلبي الذي زار نابلس سنة 1082هـ/1671-1672م.. وقد أنشأ وأوقف هذا السوق والخان الوزير التركي لالا مصطفى باشا والي الشام سنة 975-979هـ/1567-1571م.

يتكون السوق من بناء كبير الحجم بطول 80 م وعرض 4م، ويشتمل على عدد كبير من الحوانيت: صف شمالي يقابله صف أرضيته مفروشة بالبلاط الحجري السلطاني الجميل، ويغطيه سقف معقود عالي الارتفاع ذو أقبية متقاطعة، وبين كل قبو متقاطع وآخر عقد حجري مدبب تتخلله فتحات مستطيلة لإدخال الضوء والهواء للسوق. وتقوم في منتصف السوق قبة عالية الارتفاع ذات رقبة دائرية، فيها فتحات للإضاءة والتهوية. ويقوم أسفل هذه القبة في منتصف الحوانيت الجنوبية درج يؤدي إلى الخارج، ويقابله في منتصف الحوانيت الشمالية مدخل عادي يؤدي إلى طريق يوصل لخان التجار، الذي شبهه أوليا جلبي بقلعة فيها مائة وخمسون غرفة متجاورة.

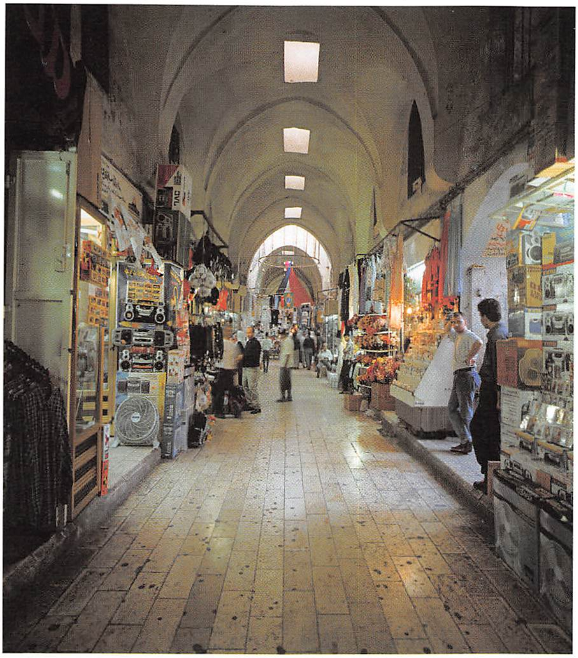
ويتكون الخان من طابقين؛ الطابق الأول يتألف من عدد من الفراغات تفتح على ساحة وسطى كانت في الماضي تستعمل كإسطبلات للدواب، أما الآن فتشغلها محلات تجارية. أما الطابق الثاني، فيتوصل إليه من خلال سلم حجري يقع في الجانب الغربي من الساحة، وهو يتكون من عدد من الغرف المختلفة الحجم والمساحة والتسقيف، والتي كانت تستعمل كمبيت للزوار والتجار. وتتكون هذه الغرف من ثلاثة صفوف من الأقبية تتقدمها ثلاث حجرات علوية في الجهات الغربية والشرقية والجنوبية، وتطل صفوف الغرف هذه على الساحة الوسطى، وهي تشكل اليوم الطريق



سوق خان التجار، المدخل الغربي، نابلس.

سوق خان التجار من الداخل، منظر عام، نابلس.

الجامع الكبير، المدخل الرئيسي، نابلس. (في الأسفل)





العام أو ما يعرف بسوق الصاغة. وتذكر المصادر أنه كانت تقوم على الجانب الغربي من الخان عين ماء ومصلى له قبة من الرصاص انفرد بها هذا الجامع عن بقية جوامع نابلس. لكن لا أثر لهذه المعالم اليوم وذلك بسبب الزلزال الذي تعرضت له مدينة نابلس عام 1345هـ/1927م والذي دمر الخان أيضا. وقد ذكر إحسان النمر، مؤرخ نابلس في العصر الحديث، أن الطابق الثاني من الخان كان يحتوي على مدرسة لتدريس المذاهب الأربعة الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي.

الوكالة الفروخية

وفي آخر سوق التجار من الشمال، يمكن مشاهدة بقايا "الوكالة الفروخية"، نسبة إلى بانيها الأمير فروخ بن عبد الله الشركسي (1030/1620). وكان الأمير فروخ أحد الأمراء المحليين الذين اشتهروا في فلسطين حيث تولى حكم القدس، ونابلس، وإمارة الحج الشامي في مطلع القرن 11/17. ومما يؤسف له، أنه لم يبق من هذه الوكالة، في الوقت الحاضر، سوى بعض الغرف من الطابقين الأول والثاني، والتي تستخدم كمحلات تجارية. وما بقي من هذه الوكالة حتما لا يعطي صورة عن ماضيها العامر حيث كانت تستضيف، -كما ذكر إحسان النمر- قافلة الحج الشامي بعد التقائها مع قافلة الحج المصري في منطقة الجنوب في طريقها إلى الحجاز.

ن.ع

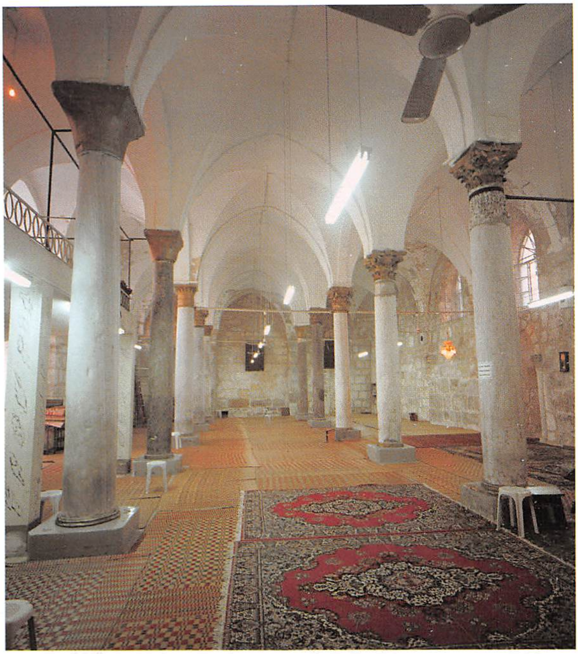
VI.1.g الجامع الكبير

يقع في الجهة الشرقية من البلدة القديمة عند نقطة التقاء شارع النصر (الشمالي) وشارع الخان (الجنوبي).

يمكن الزيارة في ساعات النهار، فيما عدا أوقات الصلاة.

كون هذا الجامع أكبر جوامع المدينة وأهمها كما يظهر من اسمه، فقد كان المركز الذي يعلن فيه مضمون مراسيم الدولة الإدارية والسياسية حيث كانت تكتب وتعلق فيه.

واعتمادا على تحليل العناصر المعمارية والزخرفية، علاوة على بعض الإشارات التاريخية، يظهر أن هذا المبنى كما وصلنا هو نتيجة عدة تطورات معمارية امتدت عدة قرون. وبداية هذه التطورات يمكن عزوها للعصر البيزنطي، حيث كانت تقوم في الموقع كنيسة بيزنطية بنيت في عهد الإمبراطور الروماني جستنيان (527-565م). ويبدو أن جامع المدينة الذي ذكر المقدسي أنه يقع في وسطها، قد بني على أنقاض الكنيسة البيزنطية المذكورة. لكن أثناء خضوع نابلس لحكم الصليبيين، وفي عام 562هـ/ 1167م قاموا بالاستيلاء على مبنى الجامع، وعملوا على إعادة بناء كنيسة لهم، لكن بالعناصر المعمارية البيزنطية للكنيسة القديمة نفسها. وبعد تحرير المدينة من الصليبيين، أمر صلاح الدين الأيوبي عام 583هـ/ 1187-1188م بتحويل الكنيسة إلى جامع عرف باسم الجامع الصلاحي الكبير، وقد تم ترميمه



الجامع الكبير من الداخل، نابلس.



الجامع الكبير، المئذنة، نابلس.

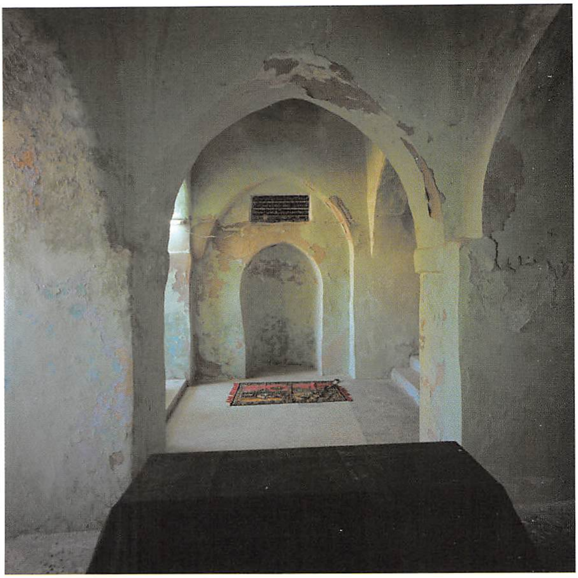
وإعادة تسقيفه في العهد المملوكي، كما خضع لترميمات عديدة في العهد العثماني.
ولم يقتصر استخدام الجامع على الشعائر الدينية، فقد عقدت فيه حلقات العلم والتدريس، خاصة علوم القرآن والفقه والنحو.
والجامع عبارة عن مجمع معماري ضخم مستطيل الشكل تحيط به جدران خارجية وله مدخلان، مدخل شرقي وآخر شمالي، يؤدي كل منهما إلى ساحة مكشوفة يتوصل من خلالها إلى بيت الصلاة. وتخطيط بيت الصلاة مستطيل، يمتد من الشرق إلى الغرب بطول 61 م، ومن الشمال إلى الجنوب بعرض 16،55م. وفتحت في جداره الجنوبي ثلاثة محاريب، غربي و شرقي وأوسط. والمحراب الأوسط أكبرها وهو مقابل للمدخل الشمالي. ويوجد إلى الغرب من المحراب، منبر رخامي ينسب إلى الأمير عز الدين الأميري المملوكي سنة 713هـ/1313م. هذا وينتشر وسط بيت الصلاة صفان من الأعمدة الرخامية والدعامات الحجرية، تقسم بيت الصلاة إلى ثلاثة أروقة، يغطي كلا منها قبو متقاطع.
أما مئذنة الجامع فتقع وسط الجدار الشمالي فوق المدخل الشمالي، وتتكون من قاعدة حجرية مربعة، تدعم بدنا مثمنا، ينتهي في أعلاه بشرفة حجرية محمولة على صفوف من المقرنصات التي يتوسطها جوسق صغير.
م.أ.خ

VI.1.h مقام رجال العمود

يقع المقام عند قاعدة جبل جرزيم في الشطر الغربي الجنوبي من المدينة بالقرب من مركز الشرطة. والزيارة ممكنة في كل الأوقات بعد الاستئذان من شيخ المقام.
يرتبط المقام بالرقم أربعين المشهور، والمرتبط



مقام رجال العامود، منظر عام، نابلس.



مقام رجال العامود، منظر من الداخل، نابلس.

بعقائد وشعائر لدى الديانات السماوية الثلاث، ويمكن إحصاء ما يقارب الخمسين مقاما في فلسطين ارتبطت جميعها بهذا الرقم. وتروى حول هذا المقام القصص المحلية بأشكال وصيغ مختلفة، فضلا عن رواية السامريين، حيث يربطون المقام بالقيصر زينون الذي حاول تنصير السامريين فقتل سبعين رجلا منهم في هذا المكان.

ويذكر الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته عام 1101هـ/1679م : "...ثم توجهنا إلى زيارة موقع الأنبياء الأربعين الذين يسمون رجال العمود. وعندما وصلنا رأينا مدفناً عظيماً رائعاً فيه مغارة بداخلها قبر ولها طاقة هي مغارة الأربعين. وفي هذه المغارة عمود، ولهذا سموا رجال العمود..."

ويمكن استقراء بعض شواهد الأضرحة هناك والاستدلال على أسماء الشيخ محمد عامود النور وولده الشيخ صالح، وكذلك الشيخ سعد الدين. ويعتقد النمر مؤرخ نابلس بأن المقام عبارة عن مقبرة شهداء سقطوا في الحروب ضد الصليبيين. هذا ومن المحتمل أن تكون بداية المقام في العهد الأيوبي (القرن 6هـ/12م)، في حين كانت هناك إضافات وإعادة بناء خلال العهود التالية.

يتكون المقام من ساحة واسعة بمظهر مهيب محاطة بسور خارجي تظهر عبرها تضاريس الجبل الذي يعلو المقام. تحيط بهذه الساحة الغرف التي تعلوها القباب خاصة من جهة الجبل. وتحتوي الغرف على القبور، واستخدم بعضها لنزول زوار المقام وقيّمه، وحولت أخرى لمسجد. وعلى ما يبدو فإن هذه المقبرة قد جذبت آل العامودي (عائلة نابلسية تنسب نفسها إلى أصحاب المقام) لدفن موتاهم إلى جانب أجدادهم، فيما شكلت الأراضي المحيطة بالمقام من الخارج مقبرة لكثير من القرويين.

وقلما نجد في فلسطين مقاما ليس له معنى رمزي، يتوجه الناس إليه سائلين حاجتهم. وقد كان رجال العامود عنوان أهل نابلس والمنطقة المحيطة كلما انحبس المطر وأرادوا إقامة صلوات الاستسقاء. ومن الواضح أن أعمال الترميم قد طالت المقام خلال العقود الأخيرة، خاصة وأنه الجامع الرئيس للحي المحيط.

ن.ج

صناعة الصابون النابلسي

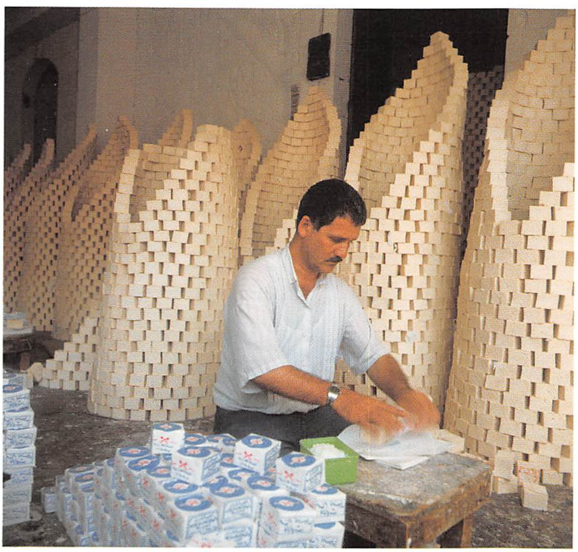
د. مروان أبو خلف

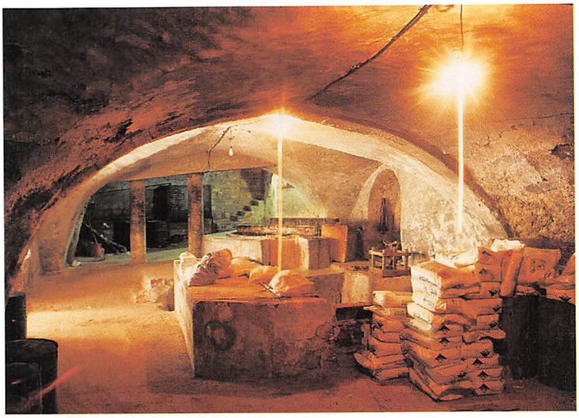
صناعة الصابون في مدينة نابلس صناعة قديمة وهامة، ولا تتوافر معلومات جازمة عن بداية هذه الصناعة في فلسطين، ولكنها تعود إلى فترة بداية الاستخدام الصناعي لمادة زيت الزيتون. إن أول الدلائل التي وردتنا عن هذه الصناعة يمكن عزوها إلى القرن 4هـ/10م، حيث ورد ذكرها عند المقدسي (380هـ/990م) باعتبارها من ضمن صادرات فلسطين. وعلى الرغم من أنه لم يحدد بالضبط مكان صنعه، إلا أن مدينة نابلس مرشحة لتكون من ضمن المدن الفلسطينية التي كانت تنتج الصابون، وذلك لغنى المنطقة بالمادة الخام، وللشهرة التي اكتسبتها المدينة على مر العصور في هذه الصناعة. ففي عهد الصليبيين نالت نابلس شهرة كبيرة لدرجة أن الملك كان مسؤولا عن هذه الصناعة التي كانت بمثابة احتكار ملكي. وقد أشار شيخ الربوة (ت 727هـ/1300م) بشكل واضح إلى صناعة الصابون في نابلس، كما أشار إليها المؤرخ المقدسي مجير الدين الحنبلي (900هـ/1495م) ما يدل على استمرار هذه الصناعة في العصر المملوكي، وعلى أنها كانت صناعة معروفة في مدينة نابلس.

وأصبحت صناعة الصابون من الصناعات التقليدية المهمة في مدينة نابلس في الفترة العثمانية، وتشير الإحصائيات إلى وجود خمس عشرة مصبنة سنة 1257هـ/1842م. وبلغ عدد المصابن في مطلع القرن العشرين حوالي ثلاثين مصبنة. وتنتشر المصابن في مدينة نابلس ضمن أحيائها الستة (الغرب، الياسمينة، القريون، العقبة، القيسارية، الحبلة). وهناك شارع في البلدة القديمة يسمى "خط المصابن" والذي يربط بين حارتي الياسمينة والقريون. وأوجدت صناعة الصابون علاقة اقتصادية وتقاسماً إنتاجياً بين الريف والمدينة في منطقة نابلس، فقام الأول بتأمين مادة زيت الزيتون الخام، والثاني قام بالتصنيع والتسويق. وأجود أنواع الصابون يصنع من زيت الزيتون، وهو على أنواع متدرجة في الجودة، أفضلها وأنقاها يستعمل في صناعة الصابون الأبيض النقي، ثم الصابون المائل إلى الاصفرار، وأما الزيت الناتج عن عصر نوى ثمرة الزيتون (الجفت) فينتج منه الصابون الأخضر.

واستقطبت صناعة الصابون عددا كبيرا من العمال كون هذه الصناعة تعتمد على العمل

مصبنة طوقان، عامل يقوم بتغليف قطع الصابون، نابلس.





مصبنة طوقان، الطابق الأرضي، غرفة طبخ الصابون، نابلس.

اليدوي، وتمر عملية التصنيع بعدة مراحل رئيسة (الطبخ، البسط، التقطيع، والتجفيف وأخيرا التغليف) حتى يصبح صابونا جاهزا.
وكان أصحاب المصابن في مدينة نابلس من الزعماء والأشراف والعلماء وكبار التجار، وقد اهتم هؤلاء بالدعاية لصابونهم، مما أدى إلى انتشاره في الأسواق الخارجية خاصة في الدول العربية كمصر وسوريا. هذا ويتباهى أصحاب مصانع الصابون النابلسي أمام الزوار، بسبب عدم وجود الرائحة الكريهة الناتجة عن فضلات الحيوانات وشحومها كما هي في مصانع الصابون الأخرى.
وتذكر السجلات التجارية، أن الحاج عبد الرحيم أفندي النابلسي قد أرسل إلى لندن نماذج من الصابون النابلسي لعرضها في أسواق بريطانيا. وقد ورد عليه فيما بعد كتابٌ أخبر فيه أن الصابون النابلسي قد حاز القبول هناك، وأن إحدى الشركات طلبت أن يبعث إليها كمية من أجود أنواعه.
ويستعمل الصابون النابلسي، إضافة إلى الغسيل والتنظيف، في الطب الشعبي، ويدخل في تحضير الكثير من الوصفات وخصوصا "اللزقات" التي توضع على أماكن الألم في الجسم. كذلك يدخل في تحضير الحرير لأن أحسن صابون يصلح لتحضير الحرير هو الصابون المصنوع من زيت الزيتون.
وتتشابه معظم المصابن إلى حد كبير في تكوينها المعماري، فهي تتشكل من طابقين: الأول عبارة عن قاعة طويلة عالية السقف قليلة النوافذ تستخدم لطبخ الصابون، والثاني عبارة عن بناء مسقوف واسع ذي نوافذ يستخدم لنشر الصابون وتجفيفه وإعداده. وللمصابن بوابات كبيرة لتسهيل دخول أحمال الزيت وخروج أحمال الصابون. وفي مدخل كل منها غرفة لتكون مكتبا لصاحب المصبنة ، وتوجد في داخل كل مصبنة بئر أو أكثر لخزن الزيت، إضافة إلى تنور للنار وقدر ليطبخ فيها الصابون، إضافة إلى عدة أحواض تملأ بالماء وتستخدم في هذه الصناعة.

القصور النابلسية

نصير عرفات

تعدّ بيوت العائلات في مدينة نابلس، أو ما اصطلح على تسميته "القصور النابلسية" أحد أهم المعالم المعمارية في المدينة. وتم بناء هذه البيوت بطراز معماري مميز ومشابه إلى حد كبير للبيوت الدمشقية. وتميزت القصور النابلسية بصفة عامة بضخامة الحجم، وكانت بعض هذه القصور جزءا من مجمع معماري ضخم يضم مصبنة وحماما خاصا، مثل قصر القاضي عبد الواحد الخماش الواقع في حارة الياسمينة.

ويمكن تصنيف هذه القصور عموما إلى فئتين: الأولى، وتحوي بيوتاً لأصحاب المصابن وكبار التجار، وذلك مثل دار عاشور، وعرفات، وصوفان النابلسي، وكنعان، والخماش وغيرهم. ويتميز هذا النوع من البيوت باتساع مساحات غرفه، وجودة مواد البناء المستخدمة، وبالأثاث الداخلي الفاخر، وأخيرا وجود زخرفة خاصة في المداخل وأعمال حديد، وربما سقف داخلي ملون من الخشب أو الجص. والثانية بيوت أشبه بالقلاع، حيث كان أصحابها حكام المدينة أو ولاتها المحليين زمن العثمانيين، والذين كان من مسؤولياتهم جمع الضرائب، مما زاد في ثرائهم. وأمثلة من هذه القصور تنسب في مدينة نابلس إلى عائلات طوقان، والنمر، وعبد الهادي.

إن تجربة زيارة أحد القصور النابلسية والانتقال بين أقسامه، يصاحبها شعور بالرغبة في استكشاف المجهول الذي يستتر خلف الجدران العالية والسميكة. والدخول -إذا سمح به- يتم عبر باب صغير جدا يعرف باسم "خوخه"، لا يوحي إطلاقا بمكونات القصر، فتح في مقدمة الباب الخشبي الكبير للقصر. والداخل إلى البيت يضطر إلى أن يحني رأسه إجلالا وكأنه يدلف إلى مكان مقدس. حينها يخالط الزائر شعور بالضآلة، يستمر معه طيلة سيره في الممر الضيق، حتى يصل إلى جو ومكان مغاير يتمثل بساحة سماوية. وتتوسط الساحة السماوية نافورة ماء



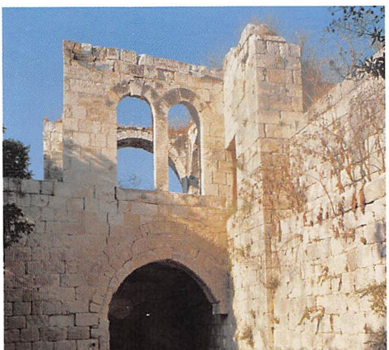
الساحة الداخلية وإيوان أحد القصور، منظر عام، نابلس.



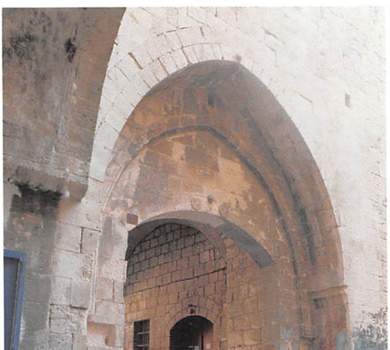
الواجهة الخارجية لأحد القصور، نابلس.



قصر عبد الهادي، منظر جوي للساحة وتظهر مدينة نابلس بالخلفية، (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي، صورة: د. سلفرمان).



المدخل الرئيسي لأحد القصور، منظر من الخارج، نابلس.



الساحة الداخلية لأحد القصور، منظر جزئي، نابلس.

وحديقة غناء فيها الأزاهير والياسمين والشجر المثمر بأنواعه، وخاصة الرمان والليمون الكبير (الطرنج). وتتوزع حول هذه الساحة وحديقتها إسطبلات الخيول، وممرات وأدراج ، تؤدي إلى مستوى معماري مرتفع ومنفصل عن المدخل هو المنطقة الخاصة بالسكن، والمكونة من مجموعة من الغرف والأواوين أقيمت حول فناء توفر الخصوصية لساكني البيت .

وهناك مستوى أعلى (ثالث)، يتوصل إليه عبر ممرات وأدراج اخرى، يتكون من فناء تتوزع حوله غرف للابن وأسرته بعد زواجه. وهذا بمثابة سكن منفصل له، وفي الوقت نفسه متصل مع والديه وأهله، من خلال الفناء والمدخل الرئيس؛ وقد ساعد هذا على المحافظة والإبقاء على ما يعرف بالعائلة الممتدة.

ويعكس تصميم القصر الوظائف الاجتماعية والخاصة للقصر، وكذلك قيم ساكنيه وذوقهم، حيث يبدأ التصميم بالمناطق العامة ومن ثم الخاصة، ويليها مباشرة الاكثر خصوصية. وراعى المعمار في تصميم البيوت النابلسية التعامل مع التضاريس الطبيعية والأحوال المناخية. فالأجواء المناخية في داخل هذه البيوت تكاد تكون متوازنة مع حرارة جسم الإنسان، فهي تمنح الدفء في الشتاء والبرودة في الصيف، وتمكن المشربية الخشبية القديمة الجالس بالداخل من رؤية الخارج، وفي الوقت ذاته توفر خصوصية، حيث لا يستطيع من هم بالخارج رؤيته، أي إن الجالس يراهم من حيث لا يرونه.

وتتجلى أنظار الزائرين عند رؤية الزخارف الهندسية والنباتية التي تزين مداخل البيوت أو تعلو شبابيك الغرف، والتي يتكرر وجودها أو مثيلاتها في الأبواب الخشبية أو الأثاث الداخلي، كذلك الزخارف في شادروان نافورة الماء أو الأسقف الخشبية الملونة.



مدخل أحد القصور،
منظر من الخارج، نابلس.



درب الحج بين الحرمين الشريفين القدس والخليل

د. نظمي الجعبة

VII.1 **بيت لحم**

VII.1.a قبة راحيل

VII.1.b كنيسة المهد

VII.2 **برك سليمان**

VII.2.a برك سليمان

VII.2.b قلعة البرك

VII.3 **حلحول**

VII.3.a مسجد النبي يونس

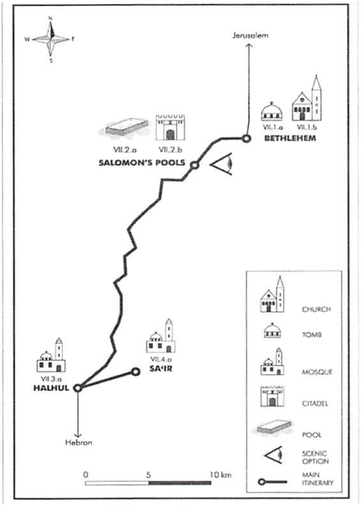
VII.4 **سعير**

VII.4.a مسجد النبي العيص

موقع اختياري

المشهد الفلسطيني الريفي / وادي أرطاس

تزويد بيت المقدس بالمياه



كنيسة المهد، الرواق الأوسط، بيت لحم. (الصفحة المقابلة)

ارتبطت القدس والخليل منذ عصور بعيدة بعضهما ببعض، وذلك نتيجة للتواصل الديني والسياسي والاجتماعي والعلمي بينهما، وقد خضعتا على الأغلب لنظام إداري واحد. وظهرت في العهد الأيوبي وظيفة "ناظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل"؛ لتحاكي بذلك الوظيفة نفسها في مكة المكرمة والمدينة المنورة. وقد تطورت هذه الوظيفة خلال الحقبة المملوكية لتصبح مؤسسة متكاملة ذات مكانة دينية عالية، وكان قرار التعيين لها يأتي من السلطان مباشرة في القاهرة. وأشرفت هذه الوظيفة على إدارة الحرمين والأوقاف المحبوسة عليهما.
سيمر هذا المسار عبر الطريق الجبلية التي تمتد على مسافة 40 كم، وتصل بين مدينتي القدس والخليل، ومرت فيها العديد من قوافل الحجاج والزوار منذ كانت الديانات السماوية، وقد سلك هذه الطريق الخلفاء والسلاطين في زياراتهم المتعددة للاماكن المقدسة. كما استخدمتها قوافل التجار القادمة من الشام إلى مصر أو بالعكس.
في الطريق من القدس إلى الخليل، سنزور مجموعة من المواقع التي لعبت دورا هاما في صياغة التاريخ الإسلامي في فلسطين. كما يمكن للزائر التمتع بالمشهد الطبيعي الخلاب، من السلاسل التي حمت التربة من الانجراف على مر العصور ، إلى أبراج المراقبة المنتشرة على امتداد الطريق. وتشتهر المنطقة بكروم العنب، ونلاحظ ان بعض الطرق لم يختلف كثيرا عما كان الوضع عليه أيام الفتوحات الإسلامية.
سنبدأ المسار بزيارة قبة راحيل المقدسة من قبل المسلمين والمسيحيين واليهود، والتي هي أول موقع مقدس في الطريق من بيت لحم حتى الخليل، وبعدها سنعرج على مدينة بيت لحم، مولد السيد المسيح عليه السلام وأقدس بقاع العالم بالنسبة للمسيحيين، ومن ثم نتوجه جنوبا إلى برك السلطان سليمان، حيث سنشاهد واحدة من أغرب المشاريع المائية في العالم وأكثرها تعقيدا، موفرين أيضا موقعا اختياريا، لواحد من أجمل وديان فلسطين وهو وادي وقرية أرطاس، ويستمر المسار إلى بلدة حلحول لزيارة مسجد نبي الله يونس، ومنها إلى سعير لزيارة مقام العيص عليه السلام، وفي الموقعين الأخيرين نكون قد تتبعنا خطى الآلاف المتصوفة الذين سبقونا إليهما.

VII.1 بيت لحم

تقع بيت لحم على بعد حوالي 10 كم إلى الجنوب من مدينة القدس، وتقع على خط تقسيم المياه لجبال الخليل-القدس نفسه، وعلى خط مدينتي القدس والخليل نفسه. وتعدّ من أقدس مدن العالم للمسيحيين، حيث كانت مهدا للمسيح عليه السلام. وما زال جزءاً هاماً من المدينة القديمة شاهدا للعيان حتى اليوم، حيث جرى ترميم غالبية البيوت احتفالا بقدوم الألفية الثالثة، وبالرغم من عدم توافر المعلومات التي تساعد على تأريخ غالبية العمائر في المدينة (إلا تلك التي تعود

قبة راحيل، المدخل الرئيسي، بيت لحم.



قبة راحيل، منظر داخلي، بيت لحم. (في الأسفل)



إلى القرنين التاسع عشر والعشرين)، إلا أنه وعلى الأرجح، ومن خلال نسيجها المعماري التقليدي، يمكن القول بأن عددا كبيرا من مباني البلد القديمة يعود إلى المرحلتين المملوكية والعثمانية.

VII.1.a قبة راحيل

يتم الوصول إلى القبة قبيل الدخول إلى بيت لحم، حيث تقع على بعد 7 كم جنوب القدس على يمين طريق القدس-الخليل. والزيارة ممكنة أثناء النهار.

راحيل هي زوجة يعقوب وأم يوسف وبنيامين، ماتت راحيل بعد ولادة ابنها الأخير بنيامين (الثاني عشر من أبناء يعقوب)، ويعتقد بأنها قد دفنت في هذا الموقع، الذي يحمل اسم "قبة راحيل". ذكر هذا الموقع في أقدم الرحلات المدونة الى فلسطين عام 333م، وما زال يذكر في كل الرحلات وكتب الجغرافيين سواء المسيحيين منهم أو اليهود علاوة على المسلمين. فقد ذكره الإدريسي (ت 560/1165) بقوله "...وفي وسط الطريق إلى بيت لحم قبر راحيل أم يوسف وبنيامين ولدي يعقوب. وهو قبر عليه اثنا عشر حجرا، وفوقه قبة معقودة في الصخر".

لا نعرف تاريخ البناء المذكور ومن بناه، لكن يرجح بأنه قد بني في صدر الإسلام.

وتجمع مصادر الرحالة بأن القبر قد تشكل من اثني عشر حجرا (مطابقا لعدد أبناء راحيل) وعلى القبر قبة، وأن القبر يزار ومأنوس. أمر حاكم القدس محمد باشا ببناء الموقع

وأبراج دفاعية للموقع، الذي ما زال تحت سيطرة إسرائيلية منذ عام 1967، وتحول الى ثكنة عسكرية.

VII.1.b كنيسة المهد

تعدّ كنيسة المهد أبرز وأهم معالم مدينة بيت لحم، وهي مفتوحة أمام الزوار يوميا من 5:30 صباحا وحتى 18:00– مساء.

إن التوقف عند معلم مسيحي ضمن مسارنا الإسلامي يعود إلى أن مدينة بيت لحم، مهد السيد المسيح، تحتل مكانة مقدسة لدى سائر المسلمين، غير غافلين في الوقت ذاته إلى أنه تمت الإشارة إلى مريم وعيسى في القرآن الكريم، الذي ميز عيسى كآخر الأنبياء قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والذي كان له حضور في معظم مشاهد حياة سيدنا محمد. مثال ذلك:إدراك سيدنا محمد المعنى الرمزي والوحدوي لجميع رسل الله تعالى أثناء رحلة الإسراء والمعراج، والذي كان عيسى واحدا منهم.

وبالمقابل، فقد استفاد مسيحيو بيت لحم وكذلك ممثلوهم في القدس، من المكانة المميزة التي تمتعوا بها خلال العهود الإسلامية، وخاصة في الفترة المملوكية. حيث كان هناك عدد من الفرمانات السلطانية التي منحت لهم وتتضمن إعفاءات ضريبية، وحماية لرجال الدين، وزوار الكنيسة وحجاجها من أي مكروه، وأخرى تمنحهم الحق في ترميم الكنيسة، كلما دعت الضرورة لذلك. ومن الجدير ذكره بأن الكنيسة قد أصبحت جزءا

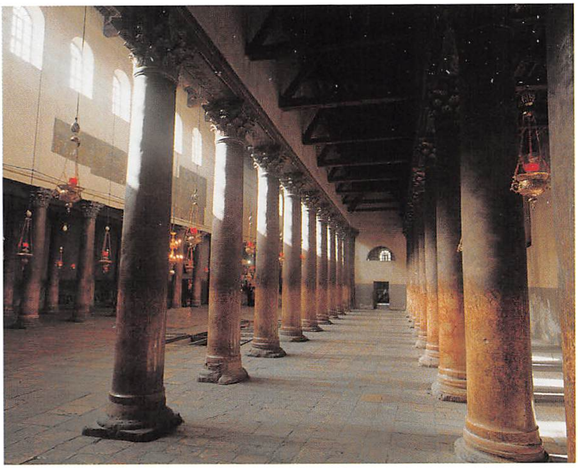


كنسية المهد، المدخل، بيت لحم.

بوضعه الحالي عام 1033هـ/1623م، وتم تجديد البناء وترميمه أيام الحكم المصري كذلك في أوائل القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي. البناء مربع تعلوه قبة، أضيفت إلى الشرق منها غرفة أخرى طولية، ويوجد في الساحة الشرقية محراب بالإضافة الى مجموعة كبيرة من قبور المسلمين الذين دفنوا تبركا براحيل.

في الآونة الأخيرة تم إضافة أسوار عالية

كنسية المهد، الرواق الشمالي، بيت لحم.





كنيسة المهد، نجمة المهد، بيت لحم.

هاما من مكونات كتب السياحة الإسلامية، كما شملتها كتب فضائل بيت المقدس، والتي وصفت بشيء من التفصيل الكنيسة ومكانة المسيح في التراث الاسلامي.

بنيت كنيسة المهد فوق المغارة التي يعتقد أنها موقع ولادة السيد المسيح عليه السلام. وقد أمرت الإمبراطورة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين (308-337م)، بناء على طلبه، بتشييد هذه الكنيسة عام 329م، وذلك بعد الاعتراف بالديانة المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية. لكن كنيسة هيلانة قد أصابها الدمار عام 529م. وبعد ذلك ببضع سنين، أعاد الإمبراطور جوستنيان (527-565م) بناءها. وباستثناء سقفها وأرضيتها اللذين تم استبدالهما عدة مرات، فإن المبنى الأساسي للبسيليكا ما زال قائماً حتى اليوم.

تتكون الكنيسة من ثلاثة أقسام:

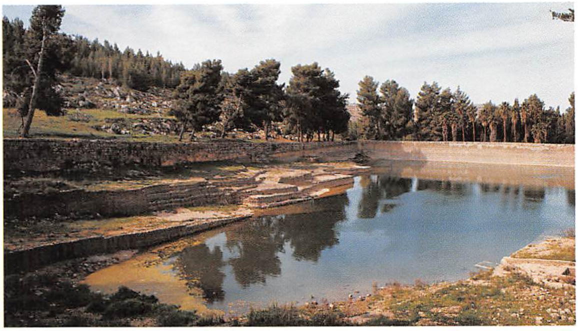
1) صدر الكنيسة المكون من أربعة صفوف من الأعمدة، كل صف فيه 11عمودا بارتفاع 5،7 م، وعلى الجدران بقايا الفسيفساء التي تمثل مشاهد من ميلاد السيد المسيح وحياته، وهناك بقايا من الفسيفساء الأرضية ما تزال ماثلة وتعود إلى فترة قسطنطين.

2) القسم الأمامي ويتكون من جرن المعمودية المثمن وثلاث حنيات، والسقف يستند على ستة أعمدة حجرية ضخمة، وفرشت الأرض بالرخام الأبيض.

3) مغارة المهد وتقع دون مستوى الكنيسة تحت الحنية الوسطى ولها بابان للنزول والخروج، وهي مستطيلة الشكل 12،3×3،5 م وفيها 48 قنديلا، وجدرانها مغطاة بالرخام الأبيض، سوى السقف الذي ما زال صخرا طبيعيا. وهناك لوحتان للفنان



برك سليمان، منظر عام.



برك سليمان، منظر عام (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي).

الإيطالي جون فافليولي رسمهما عام 1885م إحداهما للمجوس والأخرى للرعاة. كما يمكن للزائر مشاهدة ملاحق أخرى للكنيسة.

كما يمكن لزائر بيت لحم مشاهدة عشرات الكنائس والأديرة المنتشرة في محيط كنيسة المهد، وأغلبها كان على أهمية كبيرة خلال العصور الإسلامية، وأهمها: كنيسة مغارة الحليب، كنيسة القديس يوسف، وكنيسة حقل الرعاة.

VII.2 برك سليمان

VII.2.a برك سليمان

تقع البرك على بعد حوالي 3 كم إلى الجنوب الغربي من مدينة بيت لحم، وعلى الطرف الشرقي للطريق الرئيس المؤدي الى مدينة الخليل. والزيارة ممكنة في الأوقات كافة.

تقع هذه البرك الثلاث بين أحراش الصنوبر الخلابة، وفي إطار بيئي جميل على بداية وادي أرطاس، حيث تنتشر الخضرة وأشجار الفواكه، ولا يعرف متى حفرت هذه البرك، لكن على الأغلب أن كلا البركتين العليا والوسطى كانت موجوده خلال فترة حكم الملك هيرودوس (37-4 ق.م). أما البركة الثالثة (السفلى) فقد بناها السلطان المملوكي خشقدم (865-872هـ/ 1460-1467م)، والذي قام بترميم النظام المائي بشكل شامل. أما الإعمار الأهم لهذه البرك فقد تم على يد السلطان العثماني سليمان القانوني سنة 943هـ/ 1536-1537م، حيث بقيت هذه البرك تحمل اسمه حتى اليوم. وقد استكمل هذا السلطان النظام المائي ووصله مع القدس، وأضاف إليه سلسلة من الأسبلة ما زالت منتشرة في القدس القديمة.

وقد استخدمت هذه البرك لتجميع مياه الأمطار والينابيع المنتشرة في المنطقة، ومن ثم نقلها عبر قنوات محمولة على جسور وعبر أنفاق في قلب الجبال وعلى أطرافها؛ لتصل مياهها إلى القدس حتى عام 1922، حيث وضعت أجهزة الضخ الكهربائية. وقد أحضرت بعض مياه البرك من بعد يزيد على 15 كم. كما أن أطول قنوات هذا النظام المائي المعقد تصل إلى 68 كم، وذلك بسبب التعرجات في مسارها على أطراف الجبال، لتحافظ على انسياب طبيعي، علما بأن المسافة بلا تعرجات تبلغ 21 كم فقط. ويمكن للزائر اليوم التمتع بمنظر البرك بشكل كامل، كما يمكنه مشاهدة بقايا القنوات والأنفاق المحيطة بها.

يبلغ طول البركة الأولى 116م وعرضها 70-72 م وعمقها 6-12 م، وسعتها حوالي 85،000م مكعب، أما البركة الوسطى فطولها 129م وعرضها 70-76م وعمقها

حوالي 12م، وسعتها حوالي 90،000م مكعب، وأما البركة السفلى (المملوكية) وهي أكبرها وأكثرها سعة فطولها 177م وعرضها 95-86م، وعمقها حوالي 15م وسعتها حوالي 113،000م مكعب.

VII.2.b قلعة البرك

تقع قلعة البرك على بعد حوالي 3 كم إلى الجنوب الغربي من مدينة بيت لحم، وعلى الطرف الشرقي للطريق الرئيس المؤدي الى مدينة الخليل، مقابل برك سليمان. والزيارة ممكنة في الأوقات كافة.

بنيت هذه القلعة المنيعة، وكما يتضح ذلك من النقش التأسيسي على أعلى قوس في فتحة المدخل، لحماية النظام المائي المعقد والحيوي، عام 1027هـ/1617-1618م على يد السلطان العثماني عثمان الثاني بن أحمد، ورتب عليها أربعين جنديا مزودين بالمدافع والأسلحة والذخائر وعرفت هذه القلعة شعبيا بـ"قلعة البرك" أو "قلعة مراد". وتقع القلعة على بعد بضعة أمتار إلى شمال البركة الأولى وهي بناء مستطيل (70×45 م)، لها مدخل رئيس في منتصف الجدار الغربي، كما أن لها أبراجاً أربعة على زوايا المبنى، وتظهر فتحات السهام في أعلى جدرانها. لقد تكونت القلعة من سلسلة من الغرف على الجدارين الغربي والشرقي. ويوجد في الركن الجنوبي الغربي مصلى صغير، أما في الجهة الجنوبية من القلعة فيوجد نبع ماء يزود سكان القلعة بحاجتهم من الماء. لقد تم ترميم القلعة خلال عام 1998م، وهي تجهز حاليا لتصبح مركزا للحرف اليدوية الفلسطينية ومعارض للتراث الشعبي.



قلعة البرك، الواجهة، برك سليمان.

موقع اختياري

المشهد الفلسطيني الريفي/وادي أرطاس

يتمتع الريف الفلسطيني بشكل عام، والريف الفلسطيني الجبلي بشكل خاص، بتضاريس محيط البحر الأبيض المتوسط بكل مكوناتها، وتظهر عليه علامات الاستغلال البشري المكثف عبر مختلف العصور، والتي توصل



وادي أرطاس، منظر عام.



وادي أرطاس، الدير، منظر عام.

إلى تراث من الانسجام والتكامل مع الطبيعة والبيئة المحيطة بشكل بديع. لهذا فإن من السهل إدراك حب الإنسان لهذه الأرض وحفاظه عليها.

ويعد وادي أرطاس أحد الأمثلة التي يتجلى فيها توافر الظروف الطبيعية وحاجة الإنسان وجهده لقيام مستقر بشري متواصل منذ آلاف السنين. يبدأ الوادي بمجموعة من الينابيع التي تتفجر وتنساب باتجاه الشرق، ويزداد الوادي عمقا كلما ازداد الانحدار باتجاه الشرق، حيث الترسبات التي حولته إلى مكان خصب، نمت على ضفته الشمالية



وادي أرطاس، نقش على الحجر بالنمط المملوكي (نقل من مكانه الأصلي).

قرية أرطاس التاريخية.

لقد اشتهر الوادي بزراعة الخضراوات والبقوليات بأنواعها وأشكالها، بحيث حولت الوادي إلى جنة خضراء خلال مختلف فصول السنة. وبازدياد عدد سكان القرية، تسلق الإنسان طرفي الوادي مستصلحا سفوحه، ومحولا إياها الى مدرجات لمنع انجراف التربة، مستغلا الحجارة المجمعة من الحقول أثناء تنظيفها إلى جدران استنادية متناغمة مع تعرجات وانحناءات الجبل، دون أن تخل باتزانه الطبيعي، زارعا تلك المدرجات بأشجار اللوز والبرقوق والكرز والزيتون، والتي تحول السفوح خلال فصل الربيع بأزهارها الى لوحة سريالية ساحرة، كما تحافظ أشجار الزيتون على خضرة دائمة، متوحدة بذلك مع باقي الريف الجبلي الفلسطيني من الجليل الى الخليل.

ويمكن للناظر إلى الوادي باتجاه الشرق مشاهدة التركيبة الفسيفسائية للحقول بتقسيماتها، التي ازدادت على مر العصور بفعل تفتيت الملكيات، لكنها ما زالت تشكل لوحة فنية جميلة باختلاف المزروعات والمساحات.

VII.3 حلحول

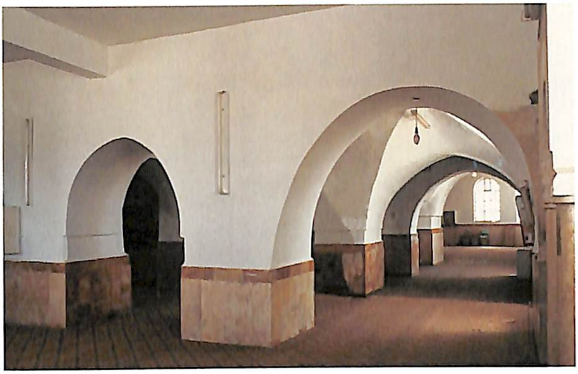
VII.3.a مسجد النبي يونس

تقع بلدة حلحول على بعد حوالي 32 كم جنوبي القدس، وعلى بعد حوالي 5 كم شمالي مدينة الخليل. والزيارة متاحة طيلة ساعات

النهار، ما عدا أوقات الصلاة.

يقع مسجد نبي الله يونس بن متى، والذي هو مقام أيضا، في وسط القرية القديمة لحلحول. وقام ببنائه الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي سنة 623هـ/1226م. واستمر سلاطين المماليك بالاعتناء بهذا المقام وزيارته أثناء قدومهم إلى الخليل، مما أكسبه شهرة لا تضاهى، خاصة بسبب كونه أحد مراكز التصوف منذ العهد الأيوبي. لقد ذكر هذا المقام والجامع المقام عليه في غالبية كتب الرحالة والمتصوفة في طريقهم إلى مدينة خليل الرحمن. فهذا عبد الغني النابلسي يقول عام 1101هـ/1689-1690م "ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى قرية حلحول لزيارة قبر نبي الله يونس ابن متى عليه السلام. فرأينا الجامع ومغارة وزرنا الضريح". ومن الجدير ذكره بأن هناك ثماني مناطق في فلسطين تحوي قبرا أو مقاما للنبي يونس، أشهرها وأكثرها ذكرا مقام حلحول. ويتم الدخول إلى مقام (قبر) النبي يونس عبر المسجد الكبير المكون من طابقين، والذي أقيم حديثا فوق المسجد الأيوبي، ولاستكشاف ما تبقى من البناء القديم، يجب الدخول إلى وسط المسجد باتجاه القبلة.

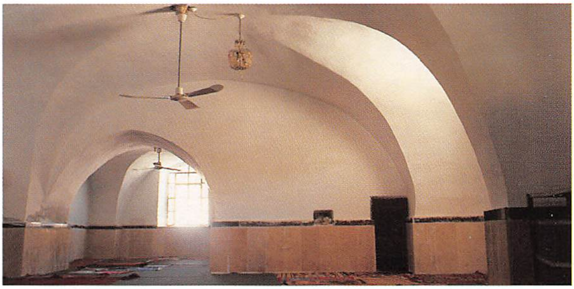
يتكون المقام القديم من بناء مربع محاط من جهاته الثلاث بأروقة ماعدا الجهة الشمالية. ويتشكل كل رواق من ثلاث دعامات كبيرة، تحمل عقودا متقاطعة بشكل جميل ومتقن. وتوجد تحت الأروقة شبابيك لطيفة تطل على غرفة الضريح التذكارية المربعة



مسجد النبي يونس من الداخل، منظر عام، حلحول.

الشكل، والتي يعلوها عقد برميلي الشكل. والضريح مغطى بالقماش الأخضر على عادة الأضرحة الإسلامية. وفوق الشباك الغربي لغرفة الضريح هناك لوحة منسوجة بخيوط الحرير توضح اسم صاحب القبر، وهي من الطراز العثماني المتأخر (قد تكون من فترة السلطان عبد الحميد الثاني)، وهي تشبه مثيلاتها في الحرم الإبراهيمي. والقبر نفسه عبارة عن شكل تذكاري، في حين تقع حجرة الدفن أسفله في مغارة تحت المسجد لا يمكن زيارتها ولا الوصول إليها. ولا يتجه القبر باتجاه القبلة على عادة القبور في الإسلام، بل ينحرف بزاوية حادة باتجاه الجنوب الغربي. وقد يكون تفسير ذلك أن تراث هذا المكان يعود إلى فترات ما قبل الإسلام، ويدل على ذلك اكتشاف سلسلة من القبور القديمة أثناء أعمال توسيع المسجد. وينسب سكان البلدة إلى هذا المقام الكرامات والنذور، ويشكل مركزا للتراث الديني والفلكلوري للبلدة.

إذا تبقى للزائر وقت في حلحول فبإمكانه التوجه، وعلى مسافة حوالي مائة متر جنوبي



مسجد النبي العيص، منظر داخلي، سعير.

المسجد ليصل إلى ما تبقى من النواة التاريخية للقرية، حيث تتجمع البيوت المهجورة متراصة بشكل بديع، والتي تعكس العمارة التقليدية القروية في أجمل صورها.

VII.4 سعير

VII.4.a مسجد النبي العيص

تقع سعير إلى الشمال الشرقي من الخليل على بعد حوالي 7 كم. والزيارة متاحة طيلة ساعات النهار، ما عدا أوقات الصلاة.

تقوم بلدة سعير اليوم على مساحة شاسعة، وللوصول إلى مسجدها المملوكي يجب المرور عبر الأجزاء الحديثة من القرية باتجاه المركز، حيث يقع مسجد (مقام) النبي العيص بن إسحاق بن يعقوب بن إبراهيم عليهم السلام. تتحدث المصادر التاريخية عن مسجد مملوكي شيد لتخليد ذكرى هذا النبي ذي المكانة الهامة في التراث الخليلي المحلي. لقد دفن الجيل الأول والثاني من أبناء سيدنا إبراهيم في الخليل، وأما الحفيد من الجيل الثالث فقد دفن في سعير. ولا يعرف متى بني هذا المقام، لكن من شبه الأكيد بأن هذا هو موقع أول مسجد في سعير، وقد يعود إلى فترة صدر الإسلام. ولقد جرى تشييد مسجد كبير حديث، ليتسع للمصلين من أهل سعير، وذلك فوق المقام المملوكي. ولم يتبق من البناء المملوكي، المحلي الطراز، سوى الواجهتين الجنوبية والغربية، واللتين لا توحيان بأي بناء مملوكي على درجة عالية من الإتقان، بل بالعكس تماما. فقد جرى بناؤهما بطريقة العمارة المحلية الشعبية، حيث الحجارة غير متقنة التشذيب، وتخلو من الحجارة الملونة، كما لم نعثر على أي زخرفة أو نقش. أما غرفة الضريح وما يحيطها فقد تم الحفاظ عليها.

ويتم الوصول إلى المقام من الجهة الغربية عبر باب صغير في الطابق الثاني من المسجد، وقبل الوصول إلى غرفة الضريح، يتم الدخول عبر قاعة مستطيلة (حوالي 20م طولا و 7م عرضا)، تتكون من رواق ذي ثلاثة عقود متقاطعة مفتوحة تحد غرفة الضريح من الجهة الشمالية، وبها محراب متواضع وصغير، وهو على الأغلب أصلي. والجزء الغربي من هذه القاعة مغلق بعض الشيء ويوفر العزلة للمتصوفين.

وتتم في هذه القاعة إقامة الصلوات وتلاوة القرآن والأدعية، بينما يتم إلقاء النظر على الضريح عبر شباك، كما أن بالإمكان النظر إلى الضريح عبر المسجد المحاذي للقبر من الجهة الشرقية. أما غرفة الضريح ، فيعلوها عقد برميلي مفلطح بعض الشيء طوله حوالي 10م ويتوسطه شكل القبر، المغطى أيضا بقماش أخضر اللون.

تزويد بيت المقدس بالمياه

د. نظمي الجعبة

مدينة القدس فقيرة جدا بمصادر المياه الطبيعية، فهي لا تحتوي إلا على نبع مياه صغير جدا. وقد اعتاد سكانها عبر العصور الاعتماد على جمع مياه الأمطار في آبار حفروها في بيوتهم أو برك تجميع لمياه الأمطار أقيمت في أماكن متفرقة من المدينة، وبالرغم من كل هذه الجهود، كان هناك دائما نقص في المياه بفعل التنامي السكاني، وتزايد أعداد السياح والحجاج القادمين للقدس.

ويبدو أن الأزمة قد تفاقمت خلال الفترة الرومانية، حيث بذلت كثير من الجهود لحل هذه المشكلة. وقد شكلت منطقة برك سليمان (أنظر برك سليمان) مكانا طبيعيا لتجميع المياه، وذلك لكثافة الينابيع والارتفاع النسبي عن منطقة القدس، بحيث يمكن إسالة المياه بفعل الجاذبية.

وتشكل المشروع الضخم من عشرات القنوات التي تجمع المياه، إما من الأمطار أو الينابيع المحيطة (أبعدها يقع على بعد حوالي 15كم إلى الجنوب). ومن موقع البرك تنساب المياه عبر القنوات التي بنيت بمستويات واتجاهات مختلفة على سفوح الجبال، وقد كانت القنوات أحيانا - مغطاة أو مفتوحة، محفورة عبر الجبال وفي باطنها على شكل أنفاق أو تمتد على سفوحها- تحمل أحيانا عبر الجسور إلى أن تصل القدس، لتصب في أسبلتها وبركها وحرمها وحاراتها، بعد أن تكون قد قطعت مسافة تبلغ في بعض الأحيان أكثر من 65 كم. لقد اهتمت الدول المتعاقبة بتلك القنوات وبرك تجميع المياه، بدءا بالدولة الرومانية وانتهاء بالدولة العثمانية، حيث جرى آخر ترميم لها عام 1901م.

وبالإضافة إلى البرك الثلاث، وعشرات القنوات المحيطة، يمكن للزائر تتبع جزء من القناة العثمانية على سفوح الجبال بين القدس وبيت لحم.



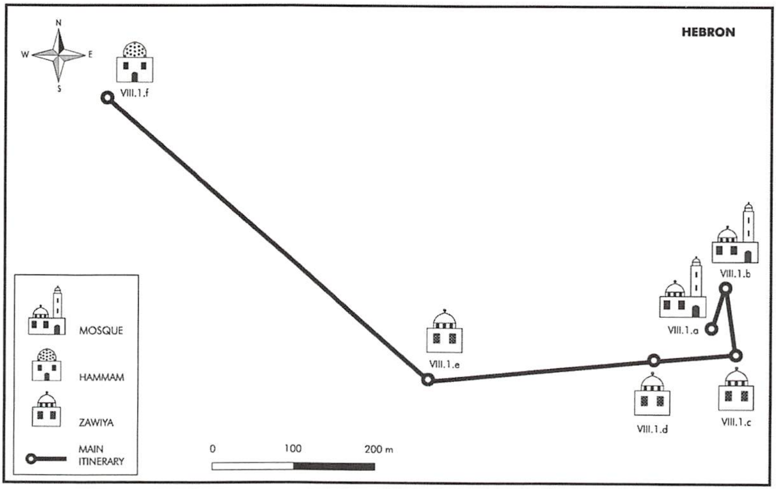
مدينة إبراهيم الخليل

د. نظمي الجعبة

VIII.1 مدينة الخليل

VIII.1.a الحرم الإبراهيمي
VIII.1.b المسجد الجاولي
VIII.1.c زاوية الجعابرة
VIII.1.d زاوية المغاربة ومشهد يوسف النجار
VIII.1.e زاوية الشيخ علي البكاء
VIII.1.f حمام الخليل (متحف الخليل)

حارات الخليل
صناعة الزجاج



زاوية الشيخ البكاء، المدخل الرئيسي والمئذنة، الخليل. (الصفحة المقابلة)

تقع الخليل على الحافة الجنوبية لجبال فلسطين الوسطى على ارتفاع 950-900 م عن سطح البحر، وتبعد 30 كم إلى الجنوب من مدينة القدس، وترتبط بها بطريق سريع يسير على امتداد قمم الجبال مارا إلى الغرب من مدينة بيت لحم. تستغرق الطريق المباشرة من القدس إلى الخليل حوالي 40 دقيقة، وهناك مواصلات عامة منظمة وسريعة تربط المدينتين.

تعدّ الخليل واحدة من أقدم المدن التي استمر فيها الاستيطان البشري دون انقطاع منذ حوالي 3500 سنة. وتقع الخليل القديمة (والتي تعود إلى العهد البرونزي الوسيط، حوالي 1500-2000 ق.م.) إلى الغرب من موقع المدينة الحالي على قمة جبل الرميدة، حيث تم اكتشاف اسوار المدينة وبواباتها القديمة، بالإضافة إلى موجودات أثرية وبقايا معمارية تعود إلى مختلف العصور حتى العصر الأموي (41-132هـ/ 661-750م).

تحمل التسمية العربية للمدينة لقب سيدنا إبراهيم "الخليل"، حيث يقع قبره– بالإضافة إلى قبور زوجته وأبنائه وزوجاتهم– في وسط المدينة. لقد جعل قبر سيدنا إبراهيم –لمكانته الخاصة في الإسلام– من مدينة الخليل رابع أهم مدينة إسلامية بعد مكة والمدينة وبيت المقدس، وأصبحت عنوانا هاما للحجاج والزوار والرحالة على مدى العصور الإسلامية المتعاقبة. وقد تنامت أهمية الخليل خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، حين ربطت مع القدس عبر مركز إداري مرموق "ناظر الحرمين الشريفين"، الذي أشرف على الأملاك الوقفية لهما. وازدادت حركة البناء المملوكية في المدينة بما يتناسب ومكانتها في الإسلام، فكانت الحصيلة عشرات المباني التي تركزت في الزوايا، حيث وجدت الحركة الصوفية بطرقها المختلفة في ظلال قبر سيدنا إبراهيم جوا مناسبا لها، فتناثرت زوايا الصوفية في أنحاء المدينة وأصبحت علامة مميزة لها.

وعلى ما يبدو فإن التراث الإبراهيمي، المتمثل بحسن الضيافة، قد أثر في التراث الإسلامي في الخليل، فظهر منذ السيطرة على المدينة ما دعي بـ" سماط سيدنا إبراهيم " الذي رحب بزوار خليل الله، وقدم لهم المأكل والمشرب تيمنا بعادة صاحب القبر بالضيافة. هذا التراث اشتد وتنامى خلال الفترة المملوكية، وما زال حتى اليوم مستمرا منذ صدر الإسلام، ولم ينقطع إلا خلال فترة سيطرة الصليبيين على المدينة.

وكعادة المماليك فقد كانوا يتخلصون من خصومهم عبر نفيهم إلى الأماكن النائية عن عاصمة القرار السياسي، وهنا اشتركت الخليل مع شقيقتها القدس في استضافة أمراء المماليك البطالين (المنفيين) من القاهرة، ليستقروا فيها وينعموا بالحركة العلمية والدينية والصوفية وينخرطوا فيها، موقفين الأوقاف عليها.

تشكل مدينة الخليل اليوم– والتي ما زال الجزء المملوكي منها مهيمنا على عمارتها–



الخليل، منظر عام، طباعة د. روبرتس (حقوق الطبع، متحف فكتوريا والبرت، لندن).

واحدة من المدن الإسلامية القليلة التي استطاعت الحفاظ على هيكلها الإسلامي الأصيل دون تغييرات تذكر. فالحارات والنسيج المدني والعمائر والأسواق والحياة الشعبية تعكس الروح الأصيلة للمدينة الإسلامية. وقد تكللت أخيرا الجهود الخيرة في إطلاق حملة وطنية واسعة لترميم مبانيها وإعادة تأهيل المدينة، مما يضفي عليها رونقا جديدا وبعدا هاما للتراث المعماري الإسلامي في فلسطين.

يشتمل هذا المسار على زيارة الحرم الإبراهيمي، والذي يعدّ أقدم بناء في فلسطين ما زال مستخدما بلا توقف، بالرغم من التغييرات الدينية التي حدثت خلال الألفيتين السابقتين، حيث قبور الأنبياء، وسبب وجود المدينة ككل. ولشدة نشاط الحركة الصوفية التي تجمعت في جوار قبر سيدنا إبراهيم، فقد انتشرت زوايا الصوفية في سائر أرجاء المدينة، وانتشرت قبور الصالحين والأولياء في حاراتها، لذلك سيشتمل المسار على زيارة لثلاث زوايا. بالإضافة إلى حمام المدينة الرئيس الذي يضم الآن متحف المدينة التاريخي والتراثي. كما سنلقي نظرة من خلال نافذة على حارات المدينة وتاريخها ومكوناتها الدينية والعرقية ومميزاتها المعمارية. أما النافذة الثانية فستطل بنا على صناعة الزجاج التقليدية المشهورة. وخلال تنقلنا بين المواقع المختلفة ستتاح للزائر الفرصة بالمرور في أسواق المدينة القديمة وقصبتها والاطلاع على نسيجها المعماري، وبعض من سماتها الاقتصادية والاجتماعية.



الحرم الإبراهيمي، منظر جوي (قبور الأنبياء)، الخليل (حقوق الطبع، صور سونيا هاليداي).

VIII.1 مدينة الخليل

VIII.1.a الحرم الإبراهيمي

يقع الحرم الإبراهيمي بالقرب من الحافة الجنوبية الغربية للبلدة القديمة. ويمكن زيارة الحرم بين الساعة الثامنة صباحاً والساعة الثالثة بعد الظهر، ولا يمكن زيارته أثناء صلاة الظهر وأيام الجمعة. الدخول مجاني، حيث تتوافر مواقف واسعة للحافلات والسيارات بالقرب منه، لكن يسبقه تفتيش أمني دقيق، ويفترض بالزائر أن يكون محتشم الثياب.

يبدأ هذا المسار بالحرم الإبراهيمي الشريف، ويمكن مشاهدة الحرم من مواقع مختلفة، حيث يسيطر شكله الضخم بمئذنتيه على المدينة. وللبناء تاريخ طويل يمتد من الفترة الرومانية (حوالي 20 ق.م.) حتى نهاية الفترة العثمانية 1336هـ / 1917م.

يعدّ الحرم الإبراهيمي رابع مقدسات الإسلام، وثاني مقدسات فلسطين بعد المسجد الأقصى. لقد تواصلت قدسية المكان عبر الزيارات، للتبرك من قبور الأنبياء من صدر الإسلام حتى اليوم. ويتكون البناء من جدار خارجي مبني بحجارة جميلة التشذيب ضخمة، يصل طول بعضها إلى أكثر من عشرة أمتار، مشكلة حيراً ضخما بني خلال الفترة الرومانية لتمييز قبور الأنبياء وحمايتها. وعلى ما يبدو فقد أقام بنو أمية في أوائل القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي مسجدا جامعا داخل هذا الحير، لكن لم يبق

منه شيء بعد أن قام الصليبيون بتدميره عام 492هـ/1099م، وأقاموا بدلا منه كنيسة على الطراز الرومانيسكي/القوطي، والتي ما زالت في هيكلها العام قائمة حتى اليوم. وعند قيام صلاح الدين الأيوبي باسترداد مدينة الخليل عام 583هـ/1187م حول المبنى الى مسجد، بعد أن أضاف إليه المحراب الذي ما زال قائما حتى اليوم. وأما المنبر الخشبي القائم اليوم إلى يمين المحراب فيعود إلى الفترة الفاطمية، والذي أمر ببنائه أمير الجيوش الفاطمية بدر الجمالي عام 484هـ/1091-1092م، وقد أحضره أيضا صلاح الدين من عسقلان إلى الحرم الإبراهيمي. ويعدّ هذا المنبر من أقدم المنابر الخشبية الإسلامية التي ما زالت مستعملة، وهو بحالة جيدة، ويعدّ آية في الجمال ودقة الصنعة.

لقد قام المماليك بمجموعة من النشاطات المعمارية في هذا المبنى مبتدأين بترميمات شاملة عام 667هـ/1268م. كما قام الأمير تنكز، نائب السلطنة في الشام، (أنظر المسار الثالث) بسلسلة من التعميرات، وأمر بتكسية جدران المسجد بالرخام الملون، حسب الطريقة المملوكية التقليدية، وذلك عام 733هـ/1332-1333م. وأما الناصر حسن (والذي حكم مرتين) فقد قام بتعمير القلعة التي على الجدار الغربي للحرم، وتحويلها إلى مدرسة تحمل اسمه، والتي دمرت أثناء حملة إبراهيم باشا على فلسطين 1247-1256هـ/1831-1840م، حيث لم يتبق منها إلا الجدار والبرج الشمالي.



الحرم الإبراهيمي، منظر عام، الخليل.



الحرم الإبراهيمي، المحراب، الخليل.

ويذكر بأن السلطان برقوق (784-801هـ/1381-1399م) قد قام ببناء محراب المالكية الواقع إلى يمين مدخل المغطى، وأضاف شهاب الدين اليغموري سنة 796هـ/1393-1394م رواقا على امتداد الجدار الغربي للمغطى والذي يسمى الآن جامع النساء. ومن أجمل الإضافات في هذه الفترة دكة المبلغ الواقعة إلى شمالي المغطى،



الحرم الإبراهيمي، المئذنة، الخليل.

بمحاذاة المحراب، والتي بنيت عام 732هـ/ 1331-1332م والمكونة من أعمدة وتيجان رخامية تحمل ألواحا من الرخام أيضا. وقد أضاف المماليك أضرحة للقبور التذكارية الستة، لتمثل الفن المملوكي من حيث دقة الصنع والمهارة وجمال أعمال الحديد.

وإلى الشمال من باحة المسجد توجد مجموعة من غرف المسجد، والتي بنيت أيضا خلال الفترة المملوكية، وتستعمل إحدى حجراتها كمكتبة تحتوي على مجموعة من المخطوطات، بعضها يعود إلى عهد المماليك. ومن الممكن للزائر مشاهدة جمال الخط المملوكي المذهب على امتداد الجدار الشرقي للمسجد من الخارج. كما تعود مداخل المسجد المزخرفة بالحجارة متبادلة الألوان بأبلقها إلى ذلك العهد. وعلى الزاوية الجنوبية-الشرقية والشمالية-الغربية للحيز، يمكن مشاهدة منارتين ترتفعان حوالي 15م، وهما مربعتا الشكل على الطراز المملوكي.

VIII.1.b المسجد الجاولي

يمكن زيارة المسجد خلال ساعات النهار حتى موعد صلاة العصر (حوالي الساعة الثالثة)، ولا يمكن زيارته أثناء صلاة الظهر وأيام الجمعة، والدخول مجاني، لكن يسبقه تفتيش أمني دقيق، ويفترض بالزائر أن يكون محتشم الثياب.

يشترك المسجد الجاولي مع الحرم الإبراهيمي بممر يقود إلى داخل الحرم، ليصبح من مكوناته وكأنه قطعة أصيلة منه. وتجدر الملاحظة إلى أن هذا المسجد لا يمكن فصله عن الحرم الإبراهيمي، ولا يمكن تمييز جدرانه من الخارج. فالجدار الغربي له هو الجدار الشرقي نفسه لحير الحرم، وأما الجدار الشرقي فمقطوع من الصخر ولا يمكن مشاهدته من الخارج. وكذلك الأمر بالنسبة للجدار الشمالي والجنوبي، حيث قطع من الصخر. بني هذا المسجد عام 720هـ/ 1320-1321م على يد الأمير علم الدين سنجر الجاولي، ناظر الحرمين الشريفين (القدس والخليل). ويمكن الوصول إلى المسجد الجاولي، عبر البوابة الجنوبية الشرقية للحرم، حيث يؤدي ذلك

المسجد الجاولي، القبة، الخليل.



المسجد الجاولي، المحراب، الخليل.



إلى ردهة بين بابين من الرخام الصقيل، يعلو الباب الثاني نقش رخامي يحمل اسم المؤسس وتاريخ الإنشاء. وهذا الباب يقود إلى المسجد الجاولي كما يقود عبر ممر إلى الحرم الإبراهيمي، وتوجد في تلك الزاوية أشرطة كتابية على واجهتي الباب مكتوبة على لوحات رخامية، وهي عبارة عن آيات قرآنية. كما يمكن الوصول إلى المسجد عبر الباب الواقع في الزاوية الشمالية الغربية للحرم الإبراهيمي.

ويتكون المسجد من ثلاثة أروقة معقودة بعقود متقاطعة محمولة على دعامات حجرية ضخمة، وتتوسط المسجد قبة حجرية رشيقة في زواياها مقرنصات ركنية، وفتح في رقبة القبة سلسلة من النوافذ. وفي جهة القبلة، محراب منحوت بالصخر كسي بالرخام الملون. والمسجد يرتفع على شكل مصطبة عن الممر المؤدي إلى الحرم الإبراهيمي، خاصة من الجهة الشرقية. وفي سبيل عزل المصليات من النساء، فقد جرى رفع الجزء الشمالي (المؤخرة) من المسجد بارتفاع ثلاث درجات.

VIII.1.c زاوية الجعابرة

تقع زاوية الجعابرة على بعد 20 م من الزاوية الجنوبية الشرقية للحرم الإبراهيمي. ويمكن زيارة داخل الزاوية بترتيب مسبق مع شيخها.

تشكل زاوية الجعابرة حلقة من سلسلة طويلة من الزوايا التي أقيمت في مدينة الخليل أثناء



زاوية الجعابرة، الواجهة الرئيسية، الخليل.

عهد المماليك. ويعود أصل عائلة الجعبري إلى قلعة جعبر على الفرات في سوريا. وقد حضر مؤسس العائلة إبراهيم بن عمر الجعبري (ت 732هـ / 1331-1332م) إلى مدينة الخليل في نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي، بعد أن عين "شيخا على الحرم الإبراهيمي". وقد أنجبت هذه العائلة العشرات من الفقهاء ورجالات الدين الذين تبوءوا المناصب الإدارية والدينية، تم ذكر بعضهم في المصادر التاريخية.

لقد لعبت هذه الزاوية دورا حيويا في الحياة الصوفية لمدينة الخليل، حيث قاد الجعابرة طريقة منها، وقد كانت الزاوية إلى وقت قريب نشطة بالمتصوفة، وما زالت تحتوي على أعلام الدراويش وأدواتهم من كؤوس وطبول كانت تستخدم في المهرجانات وحلقات الذكر والدروشة. وبالرغم من عدم امتلاكنا معلومات حول تاريخ تأسيس هذه الزاوية ومن هو بانيها، إلا أننا نستطيع تأريخها، من خلال الطراز المعماري، بنهاية الفترة المملوكية.

ويتكون البناء من طابق عال جدا حصر في منطقة ضيقة، وذلك لعدم توافر الأرض بالقرب من الحرم الإبراهيمي. وتتكون الواجهة الواقعة على الشارع باتجاه الغرب من مكونات الواجهات المملوكية نفسها. فهي ترتفع بارتفاع كل المبنى، ومبنية من حجارة صقيلة باللونين الأصفر (كريم) والأحمر، وبشكل متبادل، ويعلو الواجهة مقرنص ضحل متراجع على شاكلة مقرنصات الفترة المملوكية المتأخرة والعثمانية المبكرة، ويقوم فوق المدخل نقش كتابي، لكنه مطموس المعالم.

ويتم الدخول إلى المبنى عبر بوابة تقود إلى ردهة صغيرة مربعة، ثم إلى بوابة ثانية تفتح باتجاه الحائط الجنوبي للزاوية. يتألف المبنى من قاعة مستطيلة الشكل تنقسم إلى قاعتين إحداهما غربية والأخرى شرقية، يفصلهما عقد مدبب، أما القاعة الغربية فمسقوفة بعقد متقاطع تتوسطه قبة ضحلة مزينة بزخارف هندسية ونباتية. وأما القاعة الشرقية فيصعد إليها بدرجتين من القاعة السابقة ومغطاة بقبو متقاطع، وأرضيات

الزاوية مفروشة ببلاط حجري قد يعود إلى فترة التأسيس.

VIII.1.d زاوية المغاربة ومشهد يوسف النجار

تقع هذه الزاوية إلى الغرب من الحرم الإبراهيمي.

الزيارة ممكنة عبر تنسيق مسبق مع دائرة الأوقاف الإسلامية.

تقع هذه الزاوية، والتي تعرف أيضا بزاوية الأشراف على يسار البوابة الرئيسة التي تقود من الحرم إلى داخل البلدة القديمة وأسواقها. ومن المعتقد بأنها تأسست عام 652هـ/1254-1255م في مطلع الفترة المملوكية، كما يشير التاريخ على أحد القبور، لكننا لا نعرف من هو مؤسسها على وجه اليقين.

ومن الجدير ذكره بأن المغاربة (سكان شمال أفريقيا والأندلس) شكلوا ومنذ القرن السادس الهجري/الثالث عشر الميلادي جزءا من سكان الخليل، ويبدو أن الزاوية قد بنيت لاستقبال الزوار المغاربة القادمين إلى الخليل بهدف زيارة قبور الأنبياء فيها. وقام على الأغلب الشيخ محمد بن عبد الله الحسيني السقواتي (ت652هـ/1254م) ببناء هذه الزاوية، كما قام المغاربة سنة 795هـ/1392-1393م ببناء زاوية أخرى في الخليل وهي زاوية عمر المجرد وسميت باسمه. ومن المعتقد بأن عائلة الشريف التي تسكن الخليل حتى اليوم هم أبناء الشيخ عمر المجرد.

ويتم الدخول إلى زاوية المغاربة من البوابة الواقعة في الجدار الشرقي، وهو جدار قد أعيد بناؤه في العصر الحديث، طامسا المعالم التاريخية للواجهة القديمة، والتي لا يتوافر أي توثيق عن مظهرها الأصلي. ويقود المدخل عبر درجات إلى صحن مكشوف يؤدي إلى مكونات الزاوية التي تقع إلى الجهة الجنوبية، وكذلك إلى المشهد الواقع في الجهة الغربية من الصحن.

وتتألف الزاوية من مصلى وغرفة ضريح مربعة الشكل وواسعة ، يعلوها قبو متقاطع. وتزدحم الغرفة بعدد من القبور التي تعود إلى عائلة الشريف، ومن المعتقد بأن المدفونين فيها هم من اتباع الطريقة الخلواتية الرحمانية، التي قادتها عائلة الشريف واجتذبت عددا كبيرا من الأتباع في الخليل. ويذكر بأن هذه

زاوية المغاربة، المدخل، الخليل.





زاوية الشيخ علي البكاء، المدخل الرئيسي والمئذنة، الخليل.

الطريقة ما زالت تمارس طقوسها الصوفية في الموقع التاريخي للزاوية. إن اكتظاظ الغرفة بهذا العدد من القبور يدل على أهمية الدفن إلى جانب المؤسس، الشيخ عبد الله السقواتي. وأما المصلى فهو عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل يغطيها قبو متقاطع، ويتوسط جدار القبلة محراب متواضع يخلو من الزخارف. وتجتمع الطريقة الصوفية في هذه الغرفة، كما تستخدمها عائلة الشريف للاجتماعات العائلية.

وأما مشهد يوسف النجار، فيقع دون مستوى الصحن، حيث يتم النزول إليه عن طريق درجات تقود إلى قبو برميلي، يقوم في جهته الجنوبية قبر يوسف النجار، ولا ندري من هو صاحب هذا القبر، أو إذا ما كان قبراً أم مقاماً لذكرى يوسف النجار، ويعتقد اليهود بأنه قبر أفنير بن نير.

VIII.1.e زاوية الشيخ علي البكّاء

تقع الزاوية في حارة علي البكاء في الشمال الغربي من المدينة. وزيارتها ممكنة في سائر الأوقات، ما عدا أوقات الصلاة.

وقد استقطبت هذه الزاوية، والتي كانت تقع في ظاهر البلد من الجهة الشمالية الغربية، السكان في الفترة المملوكية، لطبيعة الخدمات التي تقدمها، ونظرا لسكنى مريدي الشيخ وطريقته في المنطقة المحيطة. لذا فقد نشأت بالتدريج حارة جديدة تحمل اسم مؤسس الزاوية "حارة الشيخ علي البكاء". وتم اختصار الاسم لاحقا إلى "حارة الشيخ"، والتي أصبحت منذ الفترة المملوكية تشكل جزءا هاما من النسيج المعماري للمدينة. وتعدّ هذه الزاوية من أشهر زوايا مدينة الخليل وأكثرها دورا في تاريخ الحركة الصوفية، ولقد تولى مشيخة هذه الزاوية الغنية بالأوقاف عدد من مشايخ الخليل، كان أغلبهم من عائلة الجعبري الذين ارتبطوا بالشيخ البكّاء بالنسب.

تنسب هذه الزاوية إلى الصوفي المشهور الشيخ علي البكّاء، الذي حضر إلى الخليل من العراق واشتهر فيها بذكره الصاخب، وكثرة

بكائه أثناء الذكر، فلقب "بالبكّاء". ونظراً لاهتمام المماليك بالحركة الصوفية فقد أمر السلطان الظاهر بيبرس ببناء زاوية لهذا الشيخ الجليل. وبالفعل فقد تم بناء مجمع كامل سنة 668هـ/1269م يحمل اسم زاوية الشيخ علي البكّاء، مكون من مسجد، ومشهد، ومقبرة، وحديقة، وثلاث دور، وثلاث مغارات، وفرن، ودكان، وقاعتين.

وجرت في القرن العشرين تغييرات كبيرة على الزاوية أفقدتها غالبية مكوناتها المعمارية الأصلية، إلا أنها ما زالت تحتفظ بأجمل مئذنة مملوكية في المدينة، والتي بناها الأمير سيف الدين سلار بأمر من السلطان محمد بن قلاوون عام 702هـ/1302-1303م. وتقوم المئذنة على قاعدة مربعة الشكل يتخللها باب يقود إلى باحة الزاوية الداخلية، ثم يعلو القاعدة جسم المئذنة المسدس. وفي أعلى المدخل المشار إليه أعلاه تتدلى المقرنصات بشكل بديع، وفوق المدخل يوجد النقش التذكاري الذي يحيط بجسم القاعدة. وفي سقف المدخل نجد توقيع المعمار "سليمان". وتحمل المئذنة الرشيقة سائر عناصر الفن المعماري والزخرفي المملوكي من مقرنصات، وأبلق، وحجارة متبادلة الألوان، وأطر مزخرفة، وكتابات، وزخارف حجرية، وأطباق نجمية، إلخ....

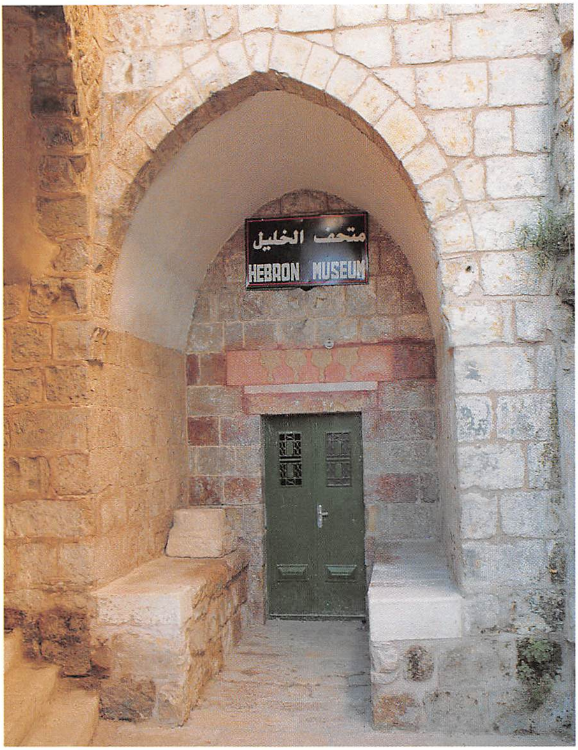
وفي عام 1978 تم بناء المسجد الحديث على أنقاض المسجد المملوكي بعد إزالته كليا، كما أعيد بناء غرفة ضريح الشيخ علي البكاء، وأضيفت إليها دار لتعليم الحديث.

VIII.1.f حمام الخليل (متحف الخليل)

يقع حمام الخليل في حارة الدارية أقدم حارات المدينة. فبعد مغادرة ساحة الحرم، يتم الدخول إلى سوق البلدة القديمة من البوابة الواقعة في مقابلة الحرم الإبراهيمي، وبعد السير مسافة 250 م يتم الانعطاف نحو اليمين حيث نصل الحمام. ويكون وقت الزيارة بين الساعة الثامنة صباحاً والثانية بعد الظهر.

زاوية الشيخ علي البكاء، المدخل الرئيسي، الخليل.





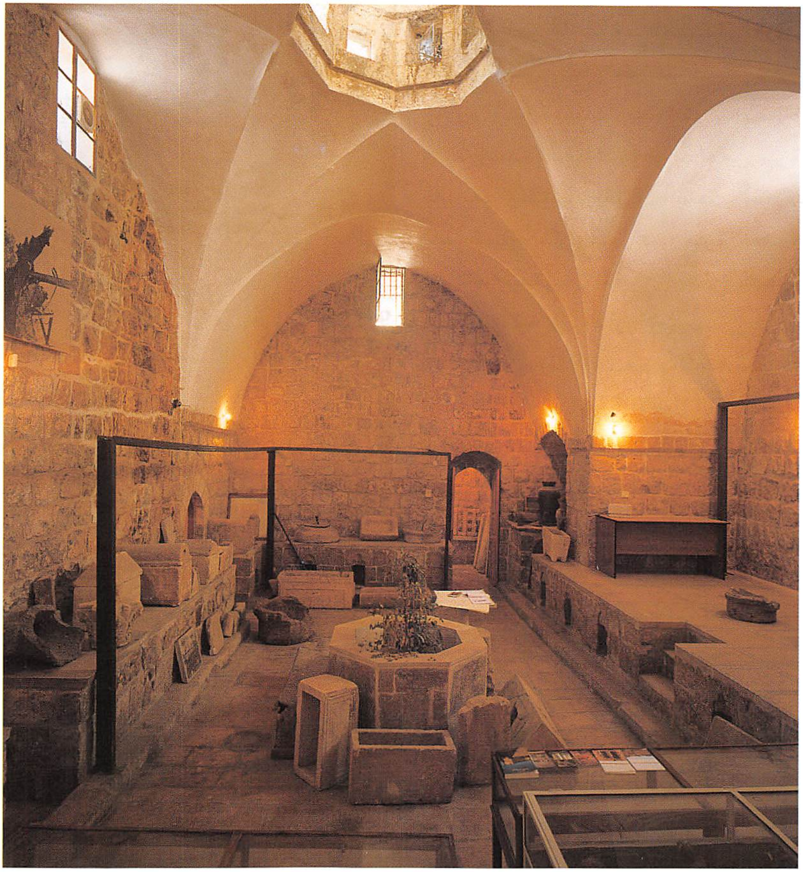
حمام الخليل، المدخل، الخليل.

ويتم الوصول إلى الحمام عبر طريق ضيقة ومعقدة مغطاة بأقبية تشكل السوق القائم في حارة الدارية، التي يعتقد بأنها بنيت في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، عندما بدأت المدينة تتركز حول قبور الأنبياء، تاركة موقعها التقليدي على جبل الرميدة ومشكلة فكرة مدينة الحرم. ويبتعد الحمام عن السوق حوالي 150م شمال غربي الحرم الإبراهيمي.

بالرغم من عدم معرفتنا بتاريخ إنشاء الحمام أو بانيه، إلا أنه يعود على الأغلب إلى نهاية الفترة المملوكية، وذلك اعتمادا على الطراز المعماري. ويستخدم الحمام حاليا كمتحف عام للمدينة، حيث تتمثل في معروضاته الفترات التاريخية المختلفة التي مرت فيها مدينة الخليل عبر التاريخ، والقطع معروضة بطريقة بسيطة. ومن ضمن موجودات المتحف نقوش حجرية وقطع معدنية وزجاجية، ووثائق كتابية، وزخارف حجرية ورخامية تعود إلى العهود المختلفة وأهمها العهد المملوكي.

وتعكس واجهة الحمام طرازه المعماري، وتتكون من واجهة صغيرة نسبيا لعدم توافر متسع لها، ويتوسطها مدخل مستطيل الشكل، يوجد على جانبيه مكسلتان. وحجارة الواجهة مكونة من مداميك متبادلة الألوان الأصفر الفاتح والأحمر والأسود، وهي واجهة بسيطة التشكيل تخلو من الزخارف والنقوش.

ويتكون الحمام من قاعتين أساسيتين، القاعة الخارجية "غرفة المشلح"، وهي عبارة عن قاعة مربعة الشكل يغطيها قبو مروحي، وتتوسطه قبة صغيرة مضلعة توجد في جوانبها الأربعة أربع حنايا مجوفة متسعة معقودة بعقود مدببة، مما يضفي تناسقا وتناغما جميلا على جو القاعة والأبعاد المستخدمة. وكغيره من الحمامات تدور مسطبة عريضة حول جدران القاعة، مفسحة مجالا لوضع الفرش عليها، حيث تستخدم للراحة والحفلات، ولاحتساء الشاي، وتدخين النرجيلة وتبادل أطراف الحديث بين زوار الحمام. وتتوسط هذه القاعة نافورة ماء رخامية لطيفة.

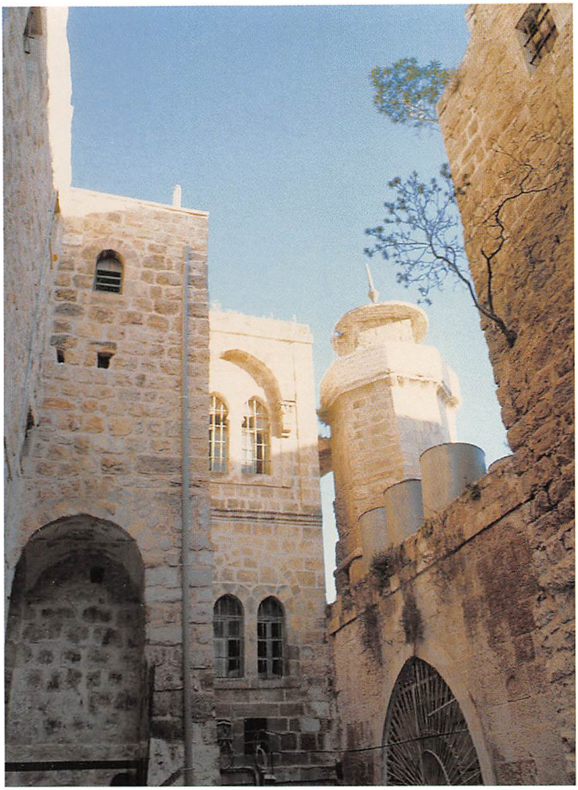


حمام الخليل، قاعة الاستقبال وتتضمن نافورة مركزية، الخليل.

ويتم الولوج الى القاعة الداخلية "الساخنة" عبر ممر ضيق ومنخفض وهي عبارة عن قاعة ثمانية الشكل، مغطاة بقبة ضحلة فيها فتحات مستديرة مغطاة بزجاج ملون يسمح بنفاذ الضوء ويؤمن التهوية اللازمة للمكان. وتستند القبة على مقرنصات مثلثة تقوم في الأركان، ويقوم في جوانبها بشكل متقاطع أربع حنايا مجوفة معقودة بعقود مدببة، تستخدم كحجرات للاستحمام. ويتوسط هذه الحجرات البلاطات الساخنة، حيث مجرى المياه الساخنة وحيث البخار الكثيف.كما يشتمل البناء على مرافق مختلفة للخدمات.

حارات الخليل

د. نظمي الجعبة



البلد القديمة، مسجد ابن عثمان، الخليل.

قد تكون حارات الخليل من الحارات القلائل في العالم الإسلامي التي تحمل روح الفترة المملوكية، وإن كانت بعض الحارات قد تأسست في الفترة الصليبية والأيوبية، إلا أن مجمل هذه الحارات قد نمت وتطورت خلال الفترة المملوكية. ويمكن القول بأن النسيج المعماري لمدينة الخليل هو نسيج مملوكي ذو خصائص محلية، فالوصف الذي وصلنا من نهاية الفترة المملوكية يعكس إلى أبعد الحدود الواقع كما هو عليه اليوم .

هناك ثلاث مجموعات من الحارات، تعكس الوظيفة التي قامت على أساسها، الأولى، حارات احتوت على طوائف دينية: حارة اليهود وحارة النصارى (انتهت الأخيرة في القرن السادس عشر وهي جزء من حارة الدارية) والثانية، حارات ضمت أصولا اثنية معينة: حارة الأكراد، وحارة جعابرة (من قلعة جعبر على الفرات)، حارة الشيخ، وحارة التميمية أو الدارية (من أصول عربية وهي أقدم حارات المدينة)؛ والثالثة: حارات مهنية: حارة القزازين (الأصل الزجاجين)، وحارة العقابة (صانعي الجلود).

وبسبب هذا التقسيم اندلعت الصراعات الأهلية بين المجموعات السكانية المختلفة للسيطرة على المناصب السياسية والدينية، كما حدث خلال الفترة المملوكية بين الدارية وحلفائهم من العرب والبدو، وبين الأكراد من حرب طاحنة، فرضت على سلطان القاهرة القدوم إلى المدينة لإنهاء هذه الحرب.

لقد تطلب موقع المدينة على حدود البداوة (من الجنوب والشرق) أن تقوم بتحصين نفسها أمام الهجمات المتكررة للبدو، وبسبب عدم وجود سور للمدينة، فقد اصطفت بيوتها على ارتفاع طابقين أو أكثر على امتداد حدودها الخارجية بشكل متراص، وقلت الفتحات الخارجية، إلا من شبابيك عالية (على الأغلب في الطابق الثاني) وفتحات البوابات الخارجية المحكمة والمسيطر عليها. وعلى الأغلب فقد كان لكل حارة بوابة تربطها مباشرة بالعالم الخارجي، دون الحاجة إلى المرور بالحارات الأخرى، كما كان لها بوابات تربطها بداخل

المدينة.
كما تحصنت الحارات داخليا في مواجهة الصراعات الداخلية، فلكل حارة مداخلها الخاصة وبواباتها المحكمة التي كانت تغلق ليلا، واستمر هذا حتى مطلع القرن العشرين، ويمكن مشاهدة هذه التفاصيل حتى اليوم. وبالرغم من الانسجام الداخلي النسبي للحارة الواحدة (من حيث التركيبة السكانية)، إلا أن الحارة مقسمة إلى مجموعة من الوحدات المعمارية المستقلة، التي تتوافق والتركيبة العائلية (الممتدة) للحارة. فقد تتشكل الحارة من مجموعة من العائلات المتضامنة، لكن تحتل كل عائلة منطقة محصنة من الحارة، حيث تقوم بإحكامها لأسباب أمنية واجتماعية. وفي هذه الوحدة نجد الساحات الداخلية المستقلة لكل عائلة لتستخدمها في أفراحها وأتراحها، وتسمى الوحدة المعمارية للعائلة الواحدة "الحوش"، وهو عبارة عن مجمع معماري متكامل يحتوي على عدد كبير من الوحدات المعمارية الصغيرة (شقق) ليضم أبناء العائلة، وينمو هذا المجمع بنمو العائلة. وقد يكون للعائلة الواحدة أكثر من حوش ليضم أفخاذ العائلة المختلفة.
إن السير في أي حارة من حارت الخليل القديمة يعطي الزائر فكرة واضحة عن هذا النظام، وبالرغم من التغير الاجتماعي الذي طرأ على المدينة، إلا أن التركيبة المعمارية بقيت كما كانت عليه خلال العهدين المملوكي والعثماني.

صناعة الزجاج

د. نظمي الجعبة

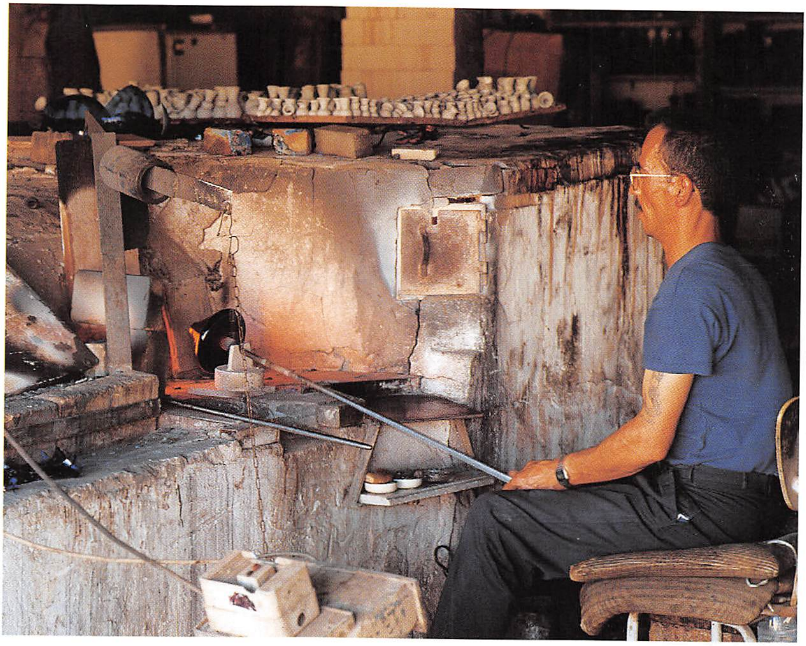
ينصح بزيارة مصنع الزجاج الواقع على مدخل المدينة على الشارع الواصل بين الخليل وحلحول، وذلك قبل زيارة المدينة، والمصانع مفتوحة من الثامنة صباحا وحتى العاشرة مساء. يخبرنا الرحّالة خلال الفترة المملوكية أن القوافل المحملة بالزجاج الخليلي كانت تشاهد على امتداد الطريق الواصلة بين الخليل والقاهرة، كما تم مشاهدة قوافل مماثلة تتجه إلى شرق الأردن. لا نعرف على وجه التحديد مصدر صناعة الزجاج بالنفخ ومن أين وكيف وصلت الفكرة إلى الخليل. لكننا نعرف أنه ومنذ القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، اعتمدت المدينة في اقتصادها المحلي وإلى حد كبير على صناعة الزجاج، إضافة إلى العنب الخليلي الشهير. لقد صدر الإنتاج إلى مصر وبلاد الشام عامة وشرقي الأردن خاصة، وأقام تجار الخليل مراكز تجارية لهم في القاهرة المملوكية، وفي الكرك (شرقي الأردن) لتسويق الزجاج المنتج بكميات كبيرة. وبالرغم من عدم وجود إحصائيات مملوكية عن عدد مصانع الزجاج في الخليل وكميات الإنتاج، إلا أننا نتصور بأن العدد كبير والإنتاج هائل. فعلى سبيل المثال، وصل عدد المصانع عام 1222هـ/1808م، أثناء فترة الكساد الاقتصادي الذي أصاب المنطقة، إلى 26 مصنعا أنتجت أشكالا مختلفة من الآنية للاستعمال المنزلي، وكميات كبيرة من الحلي الزجاجية من أساور وخواتم وأقراط اشتهرت في كل المنطقة.

لم يبق من مصانع الزجاج في الخليل اليوم إلا ثلاثة مصانع ما زالت تنتج الزجاج بطريقة النفخ التقليدية نفسها، مستعملة أدوات العمل نفسها. فالفرن المبني من الفخار والطين، وأدوات النفخ والقطع لم تتغير، في حين تغير الوقود من الحطب إلى النفط، كما تغيرت المواد الخام التي كانت في الماضي تحضر من الرمل ومكونات أخرى تستحضر من تربة النقب الفلسطيني (في جنوب فلسطين)، وأضحت تعتمد صناعة الزجاج الحالية على إعادة صهر الزجاج المستعمل.

أما من ناحية أشكال المنتجات في وقتنا الحاضر، فقد تراجع إنتاج الحلي وتوسع إنتاج الأدوات المنزلية والتحف التذكارية بأشكالها المختلفة. ومن الملفت للنظر الألوان الجميلة للزجاج خاصة الأزرق الداكن، والتركواز، والبني، والأزرق الفاتح، والعسلي، والأخضر، وهي ألوان تتوافق مع ما وصلنا من قطع من العهد المملوكي، والتي ما زالت تعرض في المتاحف. وقد طور الإنتاج أخيرا ليصبح الزجاج مذهبا بماء الذهب وبالمينا، بالضبط كما كان الحال عليه خلال الفترة المملوكية.

وهنا لا بد من الإشارة إلى صناعة أخرى تترافق حاليا مع صناعة الزجاج وفي المكان نفسه، وهي صناعة الخزف (الفخار المزجج)، وبالرغم من أن هذا التقليد لم يعرف في فلسطين إلا حديثا (في القرن التاسع عشر)، إلا أنه أخذ بعدا كبيرا في الصناعة السياحية، ويتم إنتاجه على الطريقة الأرمنية، في حين إن موضوعات الزخرفة عليه، فلسطينية تذكارية، تمثل الأماكن والقصص الدينية والزخارف المستعملة في المناطق الأثرية.

صناعة الزجاج، عامل يقوم باستعمال الفرن.



صناعة الزجاج، نفخ الزجاج.





غزة -بوابة أفريقيا

د. معين صادق

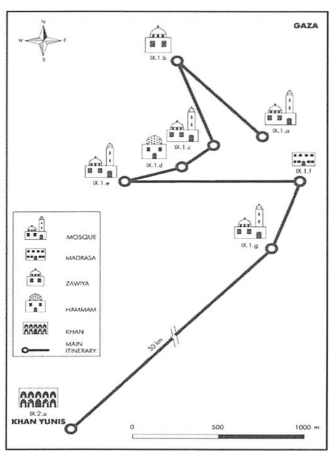
X.1 مدينة غزة

X.1.a مسجد علي بن مروان
X.1.b الزاوية الأحمدية
X.1.c الجامع العمري الكبير
X.1.d حمام السمرة
X.1.e مسجد كاتب الولاية
X.1.f مدرسة الأمير بردبك (جامع المحكمة)
X.1.g مسجد شهاب الدين بن عثمان

X.2 مدينة خان يونس

X.2.a خان الأمير يونس النوروزي

صناعة الفخار في غزة
صناعة النسيج في غزة



مدرسة الأمير بردبك، المئذنة، تفاصيل الجذع، غزة.



غزة، ١٨٤٣، تصوير د. روبرتس (حقوق الطبع، الارشيف الفني).

IX.1 مدينة غزة

اكتسبت غزة منذ القدم موقعاً جغرافيا هاما، فقد كانت واقعة على أبرز الطرق التجارية والعسكرية في العالم القديم، واصلةً مصر بالشام. وقد تطلع إلى فتحها والسيطرة عليها وعلى طرقها التجارية الكثير من ملوك مصر، وحشد فيها الغزاة، كالآشوريين والبابليين، قواهم قبل الزحف على مصر. ولا غرو في ذلك فهي حقا أضحت بوابة إفريقيا ومدخلها من آسيا.

ورغم أن مدينة غزة كانت بعيدة عن عواصم الدول الإسلامية خلال العصور المتعاقبة، إلا أن موقعها الهام جعلها مركزا للدراسات الإسلامية، وفيها ولد الإمام الشافعي (150-204هـ / 767-820م)، القطب الإسلامي الكبير وصاحب المذهب الشافعي.

وقد أشار الجغرافيون والمؤرخون العرب إلى الدور المستمر الذي لعبته غزة كمركز للزراعة والتجارة خلال العصر الفاطمي (358-492هـ / 969-1099م). ووصف الكثير من الجغرافيين غزة كمدينة هامة تمتد حتى الصحراء، ففيها جامعها الكبير المتقن البناء، وتبعد عن البحر بحوالي ميل واحد، وهي محاطة بالبساتين وكروم العنب. كذلك ذكروا ميناءها ميماس Maioumas، وهو الميناء الروماني القديم الذي ظلّ مزدهرا حتى العصر البيزنطي.

تمكن الصليبيون من احتلال غزة بعد نصف قرن من حكمهم لبيت المقدس، فأعادوا بناء ما تهدم بفعل الحرب. لقد أدت هزيمة الصليبيين في موقعة حطين على يد جيش صلاح الدين الأيوبي عام 583هـ / 1187-1188م إلى نهاية السيطرة الصليبية اللاتينية على فلسطين، بما في ذلك غزة. وفي عام 691هـ / 1291م قام السلطان الملك الأشرف بجعل غزة نيابة مستقلة لها نائبها.

أصبحت غزة خلال العصر المملوكي (648-922هـ / 1250-1517م) المدينة الرئيسة في المنطقة وتمتعت بفترة هدوء وسلام، ونشأت فيها مبانٍ عامة، كالمساجد والمدارس والزوايا والبيمارستانات والخانات والأسواق، ولا

زال بعضها قائما حتى اليوم.

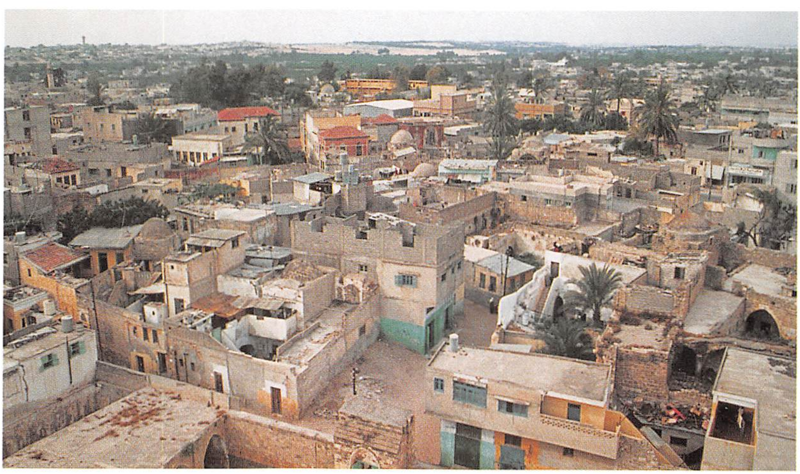
يهدف هذا المسار إلى اطلاع الزائر على جزء من هذه العمائر مع لمحة موجزة عن تاريخها ودورها خلال العصور الإسلامية المتعاقبة. ويتألف هذا المسار من ثمانية مواقع ونافذتين. الأولى عن صناعة الفخار في غزة، والثانية عن صناعة النسيج في غزة. وتضمنت مواقع المسار أربعة مساجد، هي: مسجد علي بن مروان، والجامع العمري الكبير، ومسجد كاتب الولاية، ومسجد شهاب الدين بن عثمان، وزاوية للصوفية هي الزاوية الأحمدية، وحمام السمرة، ومدرسة الأمير بردبك الدوادار (جامع المحكمة)، وأخيرا خان للأمير يونس النوروزي.

IX.1.a مسجد علي بن مروان

يقع هذا المسجد في حي التفاح، على شارع يافا مباشرة، قبيل الوصول إلى البلدة القديمة. والزيارة متاحة طيلة ساعات النهار عدا أوقات الصلاة.

ينسب هذا المسجد إلى الشيخ علي بن مروان، أحد أقطاب المسلمين في غزة في العصر المملوكي. وقد توفي الشيخ علي عام 715هـ / 1315-1316م، ودفن في غرفة تغطيها قبة بجوار المسجد، وهي تشكل اليوم جزءا من المقبرة التاريخية المجاورة، التي يطلق عليها اسم "مقبرة بن مروان" نسبة إليه.

إن تاريخ بناء المسجد غير معروف، لكن من المرجح أنه كان موجودا في بداية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، حيث تشير أقدم النصوص التاريخية إلى قيام محمد بن بكتمر عام 772هـ / 1370-1371م بتجديده وتوسيعه، حيث قام بتوسيع إيوانات قاعة الصلاة وتجديد عمارة المئذنة، وإنشاء ستة مخازن، ليكون عائدها المالي للمؤذن والإمام،



غزة، منظر جوي من مئذنة الجامع الكبير (حقوق الطبع M هاملتون بيرغوين).



جامع علي بن مروان، المحراب والمئذنة، غزة.

وما بقي من ذلك يكون للعناية بالضريح (ضريح بن مروان). وقام الأمير يحيى حاكم غزة عام 1217هـ/1802-1803م، بترميم أجزاء من المسجد، وفتح مدخلاً في الجدار الغربي لقاعة الصلاة.

ويتكون المسجد من قاعة كبيرة للصلاة، مساحتها 200م مربع، مقسمة بوساطة أعمدة رخامية، ذات تيجان كورنثية (معاد استخدامه) إلى ثلاثة أساكيب تضم تسع بلاطات، كل منها مغطاة بقبة ضحلة. وعلى يمين المحراب يقوم منبر رخامي من إنشاء الأمير شمسي سفر، الذي كان يعمل حاجبا في القرن 8هـ/14م. هذا المنبر هو أجمل المنابر المملوكية في المدينة، ويتميز بغنائه بالعناصر الزخرفية الهندسية والأرابسك. وتمثل قبة هذا المنبر نموذجا نادرا من القباب المملوكية المزخرفة من الخارج بوحدات زخرفية هندسية ونباتية. أما مئذنة المسجد فقد رممت في 772هـ/1370-1371م وتحتل قاعدتها المربعة النهاية الجنوبية لواجهة المسجد.

وهي ترتفع عن الأرض بحوالي 11.60م، ولها بدن ثماني الأضلاع، تتخلله دخلات لها عقود متعددة الأنواع، ومزخرفة بعناصر نباتية وهندسية محفورة في الحجر. وشرفة المئذنة ثمانية الأضلاع أيضا، وتعتمد على كوابل حجرية.

وعلى بعد حوالي 10م جنوب غربيّ المبنى الحالي للمسجد، يوجد ضريح الشيخ علي بن مروان، وهو عبارة عن غرفة مربعة مغطاة بقبة، في زاويتها الجنوبية الشرقية يوجد قبر الشيخ علي، عليه تركيبة رخامية لا تحتوي على شاهد قبر. وقد أضفت المثلثات الكروية الموجودة في زوايا غرفة الضريح شكلا كرويا لهذه الغرفة المربعة التخطيط.

IX.1.b الزاوية الأحمدية

تقع في حي الدرج في شارع الوحدة الى الغرب من قصر الباشا.

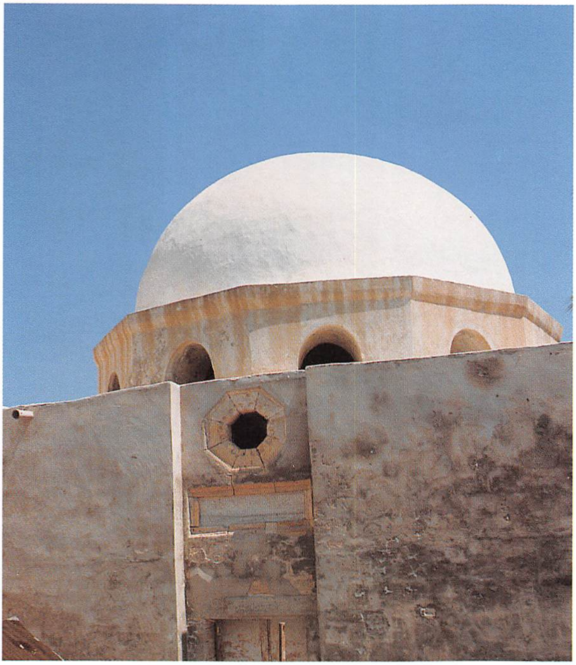
والزيارة متاحة طيلة ساعات النهار عدا أوقات الصلاة، بعد الاستئذان من المسؤولين في الزاوية.

تنسب هذه الزاوية إلى الشيخ أحمد بن إبراهيم بن محمد بن بكر، الملقب بالبدوي (توفي 675هـ/1276-1277م)، والذي كان من أشهر رجال التصوف، وقد عاش في

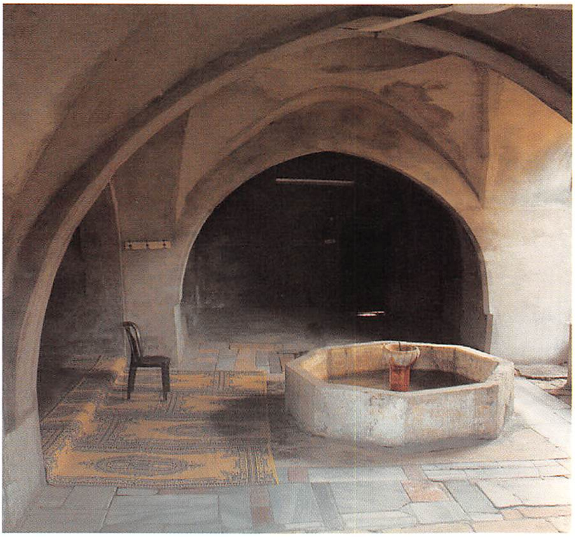


جامع علي بن مروان، النقش التاسيسي، غزة.

الزاوية الأحمدية، الواجهة الرئيسية، غزة.



الزاوية الأحمدية من الداخل، غزة.



مدينة طنطا المصرية، وله الكثير من الأتباع داخل مصر وخارجها. واستنادا إلى نقش كتابي تأسيسي وضع فوق مدخلها فإن باني الزاوية هو الأمير طرنطاي الجوكندار، الذي كان واليا على غزة عام 731هـ/1330-1331م، وذلك في عهد نيابة الأمير تنكز الناصري.

تتكون الزاوية الأحمدية من قسمين رئيسين: قاعة الصلاة، وجناح الإقامة. وتشكل قاعة الصلاة الطرف الجنوبي للبناء. وهذه القاعة مربعة التخطيط، طول ضلعها 8،5م، وهي مغطاة بقبة حجرية تستند على رقبة مضلعة الشكل مزودة بشبابيك للتهوية والإضاءة. ومحراب قاعة الصلاة على نمط المحاريب المملوكية. أما القسم الثاني من الزاوية الأحمدية، وهو جناح الإقامة، فهو يتكون من صحن داخلي كبير مربع التخطيط يغطيه قبو متقاطع. يتوسط الصحن نافورة مثمنة كان يأتيها الماء من ساقية الزاوية الأحمدية القريبة منها. وكانت مياه النافورة تستخدم للوضوء، إلى جانب تلطيف جو هذا الجناح. تشرف القاعة غربا على الساحة الأمامية من خلال عقدين مدببين. ويحيط بها ثلاثة إيوانات مستطيلة الشكل مغطاة بأقبية متقاطعة، ويشرف كل إيوان منها على الساحة الخارجية للمبنى بشباك مقبب مزدوج.

IX.1.c الجامع العمري الكبير

يقع هذا الجامع في حي الدرج وسط البلدة القديمة. والزيارة متاحة طيلة ساعات النهار



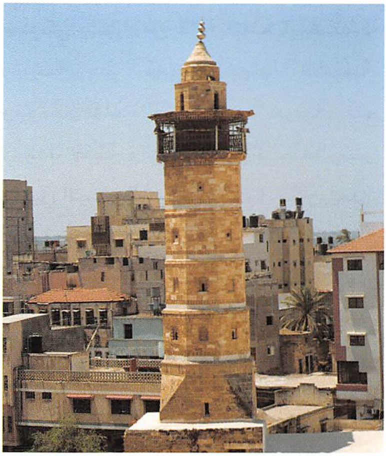
الجامع العمري الكبير، منظر عام للساحة، غزة.

عدا أوقات الصلاة.

الجامع العمري الكبير طوله (66،5 م وعرضه 65،5 م)، وهو حصيلة تطورات معمارية خلال عهود تاريخية متعاقبة، أهمها المرحلة المملوكية. وقد تعرض هذا الجامع خلال الحرب العالمية الثانية إلى تدمير كبير، مع ان المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى قام بترميمه عام 1342هـ / 1924م.

ويعود تاريخ بناء أقدم جزء في هذا الجامع –وهو البناء ذو التخطيط البازيليكي– إلى فترة الصليبيين، حيث كان كاتدرائية للقديس يوحنا المعمدان تم إنشاؤها في موقع "المسجد الجامع"، الذي كان يتوسط المدينة خلال العصور الإسلامية الأولى. ويتكون هذا الجزء من ثلاثة أروقة مغطاة بأقبية متقاطعة؛ الرواق الأوسط هو أوسعها وأعلاها. يتوسط جداره الغربي المدخل الرئيس، وفوقه في الجزء الأعلى من الجدار نافذة دائرية. وهذا المدخل بأعمدته وتيجانه وعقده صمم على نظام المداخل في العمارة القوطية. وعلى جانبي الرواق الأوسط صفان من الدعامات، مدمج على جوانبها الأربعة أعمدة رخامية بيزنطية لها تيجان كورنثية الطراز (إعادة استخدام).

وبعد رحيل الصليبيين عن المدينة عام 583هـ / 1187-1188م، تحول هذا المبنى إلى مسجد جامع، ليحمل الاسم القديم "الجامع العمري". وفي العصر المملوكي، قام السلطان المنصور حسام الدين لاجين (696-698هـ / 1297-1299م) بإضافة رئيسة للجامع، حيث أنشأ البوابة الشرقية للجامع، لتؤدي مباشرة إلى الرواق الأوسط في المبنى الداخلي القديم (البازيليكا)، وأنشأ كذلك مئذنة فوقها، سقطت على أثر زلزال، ثم أعيد بناؤها قبل الحرب العالمية الأولى. وقام بالإشراف على هذه الأعمال الأمير سنقر العلائي، نائب غزة عام 697هـ / 1297-1298م. وساهم الأمير سنقر أيضا في تطوير الجامع بأن أمر بفتح شباك وباب في الجدار الشمالي لمبنى البازيليكا. وأشرف الأمير تنكز الناصري، نائب الشام في عام 730هـ / 1329-1330م، على الإضافة الرئيسة الثانية للجامع، المتمثلة في إزالة الجدار الجنوبي لمبنى البازيليكا وإنشاء رواق إضافي على نمط أروقة الفترة الصليبية. وتم إنشاء مدخل للجامع في الجدار الجنوبي لهذا



الجامع العمري الكبير، المئذنة، غزة.

الرواق يؤدي إلى القيسارية (سوق الذهب)، وكذلك إلى خان الزيت قبل اندثاره.

ويوجد صحن إلى الشمال من المبنى القديم، تحيط به أروقة من الجهات الشرقية والغربية والجنوبية، أنشئ الرواق الجنوبي منها في القرن 11هـ/17م، وهو يشرف على الصحن ببائكة ذات ثلاثة عقود، وتغطيه ثلاثة أقبية متقاطعة، عليها قباب ضحلة. أما الرواقان الشرقي والغربي، فقد تم إنشاؤهما في نهاية القرن 12هـ/18م. ويوجد في الرواق الجنوبي منبر ومحراب مملوكي الطراز، نقلا من جامع السلطان قايتباي. وبني في نهاية القرن 13هـ/19م المدخل الغربي وعدد من الأروقة خلفه.

IX.1.d حمام السمرة

يقع هذا الحمام في حي الزيتون من البلدة القديمة. والزيارة والاستحمام متاحان للرجال كل يوم حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً، وللنساء بعد ذلك.

وهو أحد ستة حمامات أثرية كانت قائمة لخدمة سكان المنطقة وزوار المدينة. ويشير النقش الكتابي للحمام إلى أنه يعود إلى العصر المملوكي، وهو مشيد بالحجر النحيت، وتنخفض أرضيته بحوالي 3م عن أرضية الشارع. وكما هو الحال في الحمامات، لم يقتصر استعماله على الاستحمام بل أيضا للمناسبات الاجتماعية.

يتكون الحمام من ثلاثة أقسام رئيسة: هي جناح الاستقبال، قاعة الاستحمام، ومرافق للخدمات. ويتوصل إلى الحمام عبر مدخل الحمام الذي يقع في الجدار الشمالي، أي باتجاه وسط المدينة، وهو يؤدي من خلال دهليز مقبى إلى صالة استقبال مربعة، مرصوفة بقطع رخامية ملونة موضوعة بشكل هندسي. وتتوسط الصالة نافورة مياه ثمانية الأضلاع، وتغطيها قبة. ويحيط بصالة الاستقبال من الجهة الجنوبية والشرقية،



حمام السمرة، قاعة الاستقبال، غزة.



مسجد كاتب الولاية، المئذنة، غزة.

إيوانان معقودان للجلوس وتغيير الملابس. وتؤدي صالة الاستقبال شمالا من خلال قاعة وسطى إلى غرفة الحمام الساخن المرصوفة ببلاطات من الرخام الملون، ويتم تسخينها بواسطة الهواء الساخن المار تحتها قادما من بيت النار.

IX.1.e مسجد كاتب الولاية

يقع هذا المسجد في شارع رأس الطالع في حي الزيتون من البلدة القديمة في غزة. والزيارة متاحة في ساعات النهار، باستثناء أوقات الصلاة، بعد الاستئذان من مسؤولي الجامع.

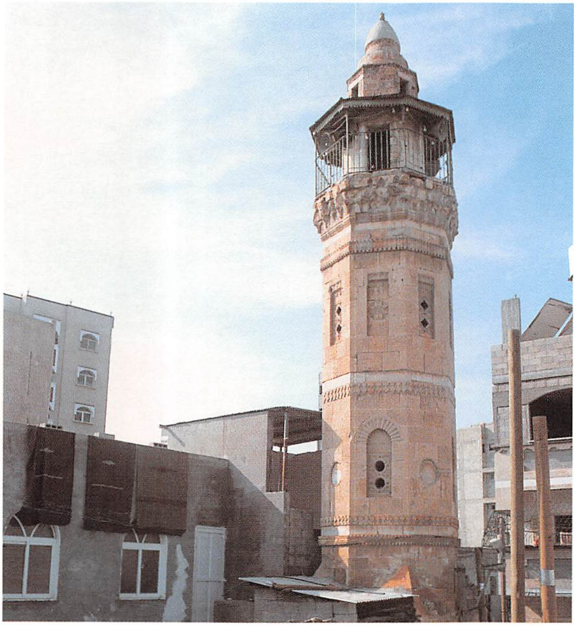
رغم أن المسجد يعود إلى العهد المملوكي إلا أنه ينسب إلى الأمير أحمد بيك كاتب الولاية، الذي قام بعمل إضافات للمسجد خلال العصر العثماني. وينقسم هذا المسجد تاريخيا، ومعماريا، إلى قسمين رئيسين. القسم الأول، مملوكي يتكون من قاعة الصلاة المستطيلة والمئذنة التي فوق واجهتها الشرقية. ويتوصل لقاعة الصلاة اليوم عبر باب فتح في جدار القبلة، ومن المعتقد أن مدخله الرئيس كان في الجدار الشمالي، وذلك في مكان إحدى الخزانتين الجداريتين الموجودتين اليوم في هذا الجدار. ولقاعة الصلاة مسقط مستطيل الشكل مقسم إلى ست بلاطات بوساطة صف من أعمدة رخامية بيزنطية الطراز، تعلوها تيجان كورنثية (إعادة استخدام)، تحمل عقودا مدببة، تسند أقبية متقاطعة تغطي هذه القاعة. ويتوسط جدار القبلة محراب المسجد، وهو نصف دائري. إلى جانبه يوجد منبر رخامي، جاءت بعض حجارته ورخامه وزخارفه من مبنى مملوكي آخر.

وقد أنشأ الأمير إينال العلائي، نائب غزة، المئذنة عام 835هـ/ 1431-1432م، وهذا الأمير أصبح سلطانا مملوكيا في (857-865هـ/ 1453-1461م). ويتوسط النقش التأسيسي شعار (رنك) الأمير إينال، وهو دائري يتكون من ثلاثة أقسام أفقية: القسم العلوي نقش فيه دواة، رمزا لمن تولى وظيفة الدوادارية (الكاتب). والقسم الأوسط فيه نقش لكأس يرمز إلى وظيفة "الساقي". أما القسم الثالث السفلي فنقش فيه ورقة زنبق



مسجد كاتب الولاية، النقش التأسيسي، غزة.

ثلاثية، وهي رمز للوظيفة الأقدم التي تولاها الأمير إينال، والتي ربما تكون عسكرية.
وللمئذنة قاعدة مربعة، تسند بدنا مثمن الأضلاع يتوجه شرفة المؤذن المثمنة التي تستند على كوابل حجرية. ويبلغ ارتفاع المئذنة 17،55م. وقد تعرضت إلى تدمير جزئي أثناء الحرب العالمية الأولى، وأعيد بناؤها لاحقا ولكن مع زيادة إضافية في ارتفاعها.
ويقع القسم الثاني من المسجد إلى الغرب من قاعة الصلاة، وقام ببنائه الأمير أحمد بيك، كاتب الولاية، عام 995هـ / 1586-1587م. وهو يتكون من رواق مغطى بقبتين، يشرف على الساحة شمالا بعقدين مدببين، يستندان على ثلاث دعائم حجرية مربعة، الجانبية منها عليها جزء من نقش كتابي بالخط النسخي منقول من مسجد آخر مندثر.



مدرسة الأمير بردبك، المئذنة، غزة.

IX.1.f مدرسة الأمير بردبك (جامع المحكمة)

تقع هذه المدرسة في شارع بغداد في حي الشجاعية التاريخي، وذلك بالقرب من مدخلها الرئيس الغربي.
والزيارة متاحة طيلة ساعات النهار.
يذكر النقش التأسيسي فوق مدخلها أنها من إنشاء الأمير بردبك الدوادار عام 859هـ / 1454-1455م. وكان الدور الأساس لهذه المدرسة هو القيام بالدور التعليمي والإرشادي، إلى جانب إقامة الصلوات، ومنها صلاة الجمعة، وهذا ينسجم مع الدور الوظيفي لمدارس العصر المملوكي، ومن هنا نجد أنها مزودة بمئذنة، ومحراب، ومنبر. وفي العصر العثماني، تم استخدام مبنى المدرسة (المسجد حاليا) كمقر للمحكمة الشرعية، ومن هنا جاء اسمها الحالي "جامع المحكمة". أما خلال فترة الانتداب البريطاني، فقد كان المبنى مقرا لمدرسة الشجاعية الأميرية للأولاد.



مدرسة الأمير بردبك، النقش التأسيسي، غزة.



مدرسة الأمير بردبك، محراب الجامع، غزة.

تقع البوابة الرئيسة للمدرسة في واجهتها الشمالية، يعلوها عقد مدبب محاط بزخارف نباتية. تتكون المدرسة بشكل عام من صحن أوسط مكشوف ينخفض عن أرضية الشارع بحوالي 1،20م. يحد الصحن من الجهة الجنوبية الغربية إيوان القبلة، وهو أكبر أجزاء المدرسة المعمارية، وينقسم داخليا إلى ثلاثة أقسام: الأوسط، وهو الرئيس، فيه المحراب والمنبر، يغطيه قبو متقاطع مروحي. وأما القسمان الجانبيان لهذا الإيوان فهما مغطيان بأقبية برميلية، تشرف على القسم الأوسط من خلال عقود مدببة. وكان يقابل إيوان القبلة في الجهة الشمالية الغربية إيوان أصغر حجما، إلا أنه غير قائم حاليا. أما الجانبان الآخران للصحن، وهما الشمالي والجنوبي، فقد كانا في الأصل مشغولين بغرف صغيرة للشيوخ والطلاب، وكذلك غرف أخرى للخدمات. ولم يبق من المدرسة إلى يومنا هذا إلا الجانب الشمالي، وهو يتكون من أربع غرف صغيرة مستطيلة مقببة، طول الواحدة 3،77م وعرضها 3،69م؛ وتشكل غرفة المدخل واحدة منها. ومن حيث التخطيط، تعدّ المدرسة الوحيدة على هذا النمط التي لازالت قائمة في قطاع غزة.

وتقع مئذنة المدرسة في زاويتها الشمالية الغربية. وتتكون المئذنة من قاعدة مربعة تتخلل واجهتيها الغربية والشمالية دخلات جدارية، من مهامها كسر جمود الواجهات في المباني. وبدن المئذنة مثمن التخطيط يتكون من طبقتين، تتخللهما فتحات لإنارة السلم الحلزوني الصاعد داخل البدن وتهويته. وتحيط بهذه الفتحات زخارف نباتية وهندسية، ويعلو بدن المئذنة شرفتها (شرفة المؤذن)، وهي مثمنة أيضا، تستند على مقرنصات.

IX.1.g مسجد شهاب الدين بن عثمان

يقع هذا المسجد في الشجاعية في شارع السوق الواقع في حي التركمان. والزيارة ممكنة في النهار، ما عدا أوقات الصلاة.

ينسب هذا المسجد إلى الشيخ أحمد بن محمد بن عثمان بن عمر بن عبد الله النابلسي المقدسي (المعروف بالخليلي)، الذي قام بإنشاء البناء الأول لهذا المسجد. توفي الشيخ أحمد في مكة

عام 805هـ/1402-1403م. وهذا المسجد هو ثاني أكبر المساجد الأثرية في قطاع غزة، حيث يبلغ طوله 45م وعرضه 36،5م. ويتفق تخطيطه ونظام المساجد التقليدية التي تتكون من صحن أوسط، تحيط به أروقة من جميع الجهات. ويعدّ المبنى الحالي ثمرة تطورات وجهود بذلت لإنشائه على ثلاث مراحل خلال العصر المملوكي، وذلك كما يتبين من الرقم الكتابية التي تؤرخ لمراحله المعمارية، وللطابع المعماري الذي يتميز به.

وتشمل المرحلة البنائية الأولى أقدم الأقسام المعمارية للمسجد، وهي تضم الواجهة الغربية بمدخليها، والمئذنة فوقها، والغرف التي خلفها. وهي من أعمال الأمير آقبغا الطولوتمري عام 802هـ/1499-1400م.

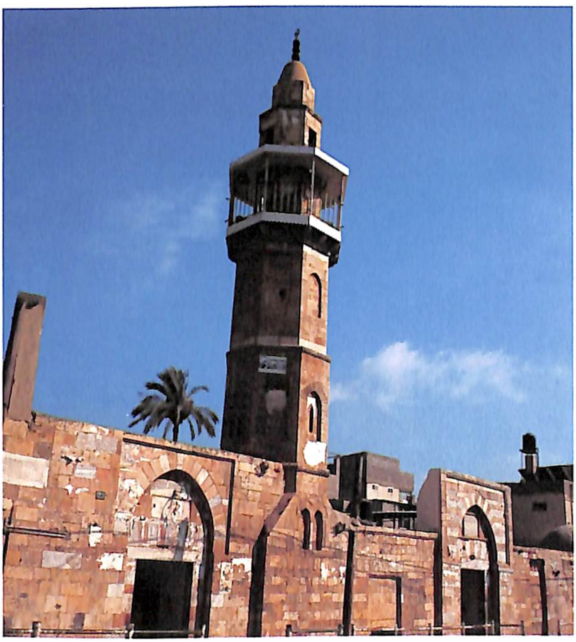
يتخلل الواجهة الغربية للمسجد بوابتان، فتح في وسط كل منها مدخل، يعلوه رقم كتابي. المدخل الجنوبي فيه نقش الأمير آقبغا، أما المدخل الشمالي فمسجل فيه العقارات التي أوقفها الأمير أرزمك على المسجد عام 797هـ/1394-1395م.

وبنيت مئذنة المسجد في أعلى الواجهة الغربية بين المدخلين، أما الكتل المعمارية الواقعة خلف واجهة المسجد، فتتشكل من ثلاث غرف، إحداها تحتوي على قبر الأمير سعد الدين يلخجا، نائب غزة عام 849هـ/1445-1446م. ويبدو أن الأمير سعد قد أوصى قبل وفاته عام 850هـ/1446-1447م بأن يدفن في هذا المسجد. أما باقي الغرف فهي لاستخدامات المسجد المختلفة.

ويمثل صحن المسجد (يبلغ طوله 30،80م وعرضه 27،90م)، ورواق القبلة المرحلة البنائية الثانية للمسجد. وهو صحن أوسط مكشوف، وقد أعيد بناء رواق القبلة الحالي بأمر من السلطان المؤيد شيخ عام 821هـ/1418-1419م، وبإشراف الأمير أبو بكر اليغموري حاجب الحجاب بمدينة غزة. والمحراب الرئيس في هذا المسجد هو نموذج نادر في غزة، وهو عبارة عن حنية نصف دائرية مبطنة بحشوات رخامية. هذا المحراب والقبة التي تتقدمه هما عمل علم الدين سنجر، وذلك عام 834هـ/1430-1431م. أما منبر المسجد فهو من الرخام.

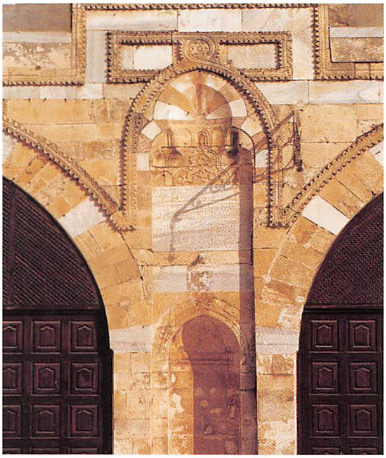
وتتمثل المرحلة البنائية الأخيرة في بناء

مسجد شهاب الدين بن عثمان، المدخل والمئذنة، غزة.





مسجد شهاب الدين بن عثمان، المحراب والمنبر، غزة.



مسجد شهاب الدين بن عثمان، محراب الساحة، غزة.

الرواقين الشمالي والجنوبي اللذين بنيا بعد عام 821هـ/1418-1419م في وقت غير محدد. ويشرف هذان الرواقان على صحن المسجد بعقود مدببة، تستند على دعامات مربعة. وينقسم كل رواق منهما من خلال دعامات حجرية مربعة إلى اسكوبين مقسمين إلى بلاطات مربعة مغطاة بأقبية متقاطعة.

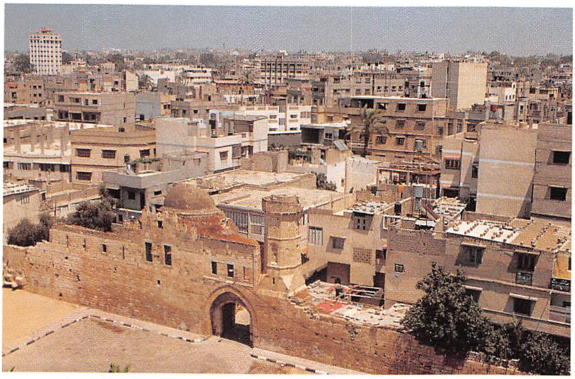
IX.2 خان يونس

IX.2.a خان الأمير يونس النوروزي

يقع في مركز مدينة خان يونس. والزيارة ممكنة في ساعات النهار كافة.

شكل خان الأمير يونس النوروزي، نواة مدينة خان يونس ومركزها العمراني، حيث يقع على الطريق القديم الواصل بين مصر في الجنوب، وفلسطين والشام وبلاد ما بين النهرين في الشمال. ولقد تم اختيار مكان هذا الخان لأسباب متعددة: أولها لموقعه الجغرافي الإستراتيجي؛ ولخصوبة التربة في المنطقة؛ ولتوافر المياه الجوفية فيها وحولها؛ وكذلك لتوافر عدد من المحاجر إلى الشرق منه.

وقد تم بناء هذا الخان الحصين ليكون محطة تجارية للقوافل، ومركز تبادل تجاري في المنطقة، وكذلك محطة للبريد ومركزا لاستخدامات الجيش بين القاهرة، عاصمة المماليك، ودمشق في الشمال حيث مركز نائب السلطنة المملوكية. استمر هذا الخان في تأدية دوره خاصة على الصعيد التجاري، إلى أن ضعفت حركة التجارة بين مصر



خان الأمير يونس النورزي، منظر عام، غزة.



خان الأمير يونس النورزي، المئذنة، تفاصيل الجذع، غزة.

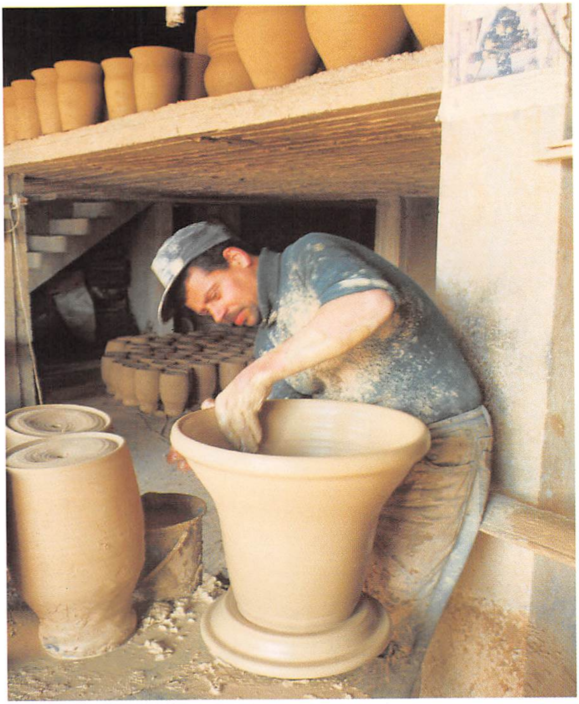
والشام في نهاية العصر المملوكي، فاستخدمه العثمانيون بعد ذلك كثكنة عسكرية لتأمين الطريق البري المار بالمنطقة. ومنذ ذلك الحين، بدأ اسم "قلعة" يغلب على هذا المبنى.

واستنادا إلى الرقم الكتابية الثلاثة، بنى الأمير يونس هذا الخان في 789هـ/1387م في عهد السلطان المملوكي الظاهر برقوق. وأطول هذه النقوش يمتد على جانبي عقد البوابة، ويعلوه شعار(رنك) الأمير يونس، ويتكون من كأس، وكأس أكبر ، ودواة حبر وقلمين، وهذه الأشكال والرسوم تشير الى الوظائف التي شغلها الأمير يونس خلال سيرته العملية. هذا الشعار (الرنك) مكرر على الواجهة، وبين كل رنكين توجد لوحة لوزية الشكل، تنقسم إلى ثلاثة أقسام تحتوي على دعاء للسلطان برقوق.

ولم يبق من هذا الخان إلا واجهته الغربية وبقايا غرف خلفه، وبقايا مئذنة وقبة المسجد، حيث بدأ اندثاره التدريجي أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم بدأت الإنشاءات الحديثة فيه في عهد الانتداب البريطاني، والإدارة المصرية، وكذلك في عهد الاحتلال الإسرائيلي. واعتمادا على بقايا هذا الخان وعلى ما توافر من معلومات تاريخية فانه أمكن الاستدلال على مكونات الخان الأساسية. كان لهذا الخان مخطط مربع (ضلعه 75.50م)، يتكون من طابقين، وتتوسطه ساحة سماوية. الطابق السفلي كان لتخزين البضائع، أما العلوي فقد كان لمبيت التجار والمترددين على الخان. واشتمل هذا الطابق كذلك على مسجد عبارة عن قاعة مربعة مغطاة بقبة لازالت بقاياها قائمة، أما محراب هذا المسجد ومنبره فقد اندثرا، وكان لمسجد الخان مئذنة فوق الواجهة لازالت بقاياها قائمة. أما الساحة الوسطى السماوية للخان فقد استغلت لمرافق الخدمات، وكذلك لمبيت الدواب المستخدمة في السفر والنقل. ونظرا لوجود الخان على الطريق البري قبل إنشاء مدينة هناك، فقد كان من الضروري تزويد الخان بعدد من الوسائل الدفاعية كالأبراج على الزوايا الخارجية للمبنى، ومزاغل للسهام لصد المهاجمين، وكذلك فتحات فوق المدخل لصب الزيوت الحارة على الأعداء، هذا إلى جانب الجدران الخارجية السميكة لحمايته.

صناعة الفخار في غزة

د. معين صادق



صناعة الفخار، عامل يقوم بتشكيل وعاء بمخرطة يدوية.

تشير الأدلة الى ان مدينة غزة قد عرفت صناعة الفخار منذ الألف الخامسة قبل الميلاد. وربما يعود ذلك إلى قربها من مصر، المنطقة الأقدم في هذه الصناعة وتأثرها بها، أو من خلال اتصالها بحضارات الشمال والجنوب عبر الطريق الدولي المار بها. وشجع على قيام هذه الصناعة وازدهارها على مر العصور توافر الطين الملائم لها في وادي غزة والمناطق المحيطة بالمدينة. واستمرت صناعة الفخار في التطور والازدهار بدءا بالعصر الحديدي حتى العصور الإسلامية. وقد تمكنت غزة من تصدير منتجاتها الفخارية التي تتميز بلونها الأسمر في معظمه، وكذلك الوردي، إلى الأقاليم المجاورة، وكذلك إلى مدن البحر الأبيض المتوسط من خلال مينائها القديم "أنثيدون". وتقع أطلال هذا الميناء اليوم على الشاطئ الشمالي الغربي لمدينة غزة.

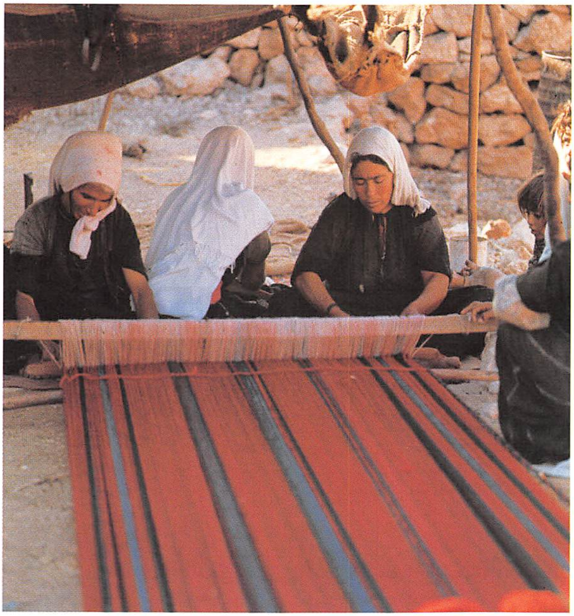
أنتجت مصانع الفخار الغزية الجرار الطويلة ذات الطينة الحمراء والتي استخدمت، خاصة خلال العصر الروماني والبيزنطي، لتصدير النبيذ والزيوت والمنتجات الأخرى إلى مدن البحر الأبيض المتوسط. وعرفت هذه الجرار باسم "الجرار الغزية"، وقد وصلت أعداد كبيرة منها إلى فرنسا وبريطانيا واليونان وإيطاليا ودول شمال افريقيا وغيرها. وواصلت غزة في العصر الإسلامي تطويرها لصناعة الفخار، خاصة في البلدة القديمة. وقد كان "حي الفخاري" في البلدة القديمة مركز الإنتاج ولقرون طويلة لهذه الصناعة المتميزة.

ولم تقتصر صناعة الفخار على تصنيع الأواني الفخارية المتعددة الأشكال والأنواع والأحجام فقط، بل امتد ذلك إلى تصنيع تمديدات من الفخار للمياه، والري، والصرف الصحي، وكذلك تصنيع أنابيب فخارية لاستخدامها في البناء، وخاصة في القباب، وارضيات المنازل، وفي الجدران.

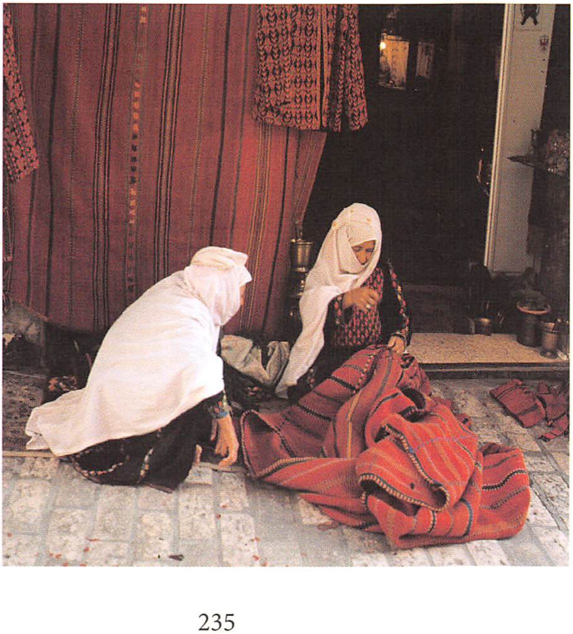
ولا زالت أعداد كبيرة من سكان القطاع تستخدم الأواني الفخارية لأغراض متعددة، خاصة الأباريق، والجرار، والقدور، وكأحواض لغرس نباتات الزينة. هذا إلى جانب تصنيع المنتجات الفخارية المتعددة المنقوشة، والمطلية، والمزخرفة بأشكال وألوان متعددة، لاستخدامها كتحف في البيوت والمكاتب، للمواطن والزائر على حد سواء.

صناعة النسيج في غزة

د. معين صادق



اشتهرت غزة منذ القدم بصناعة المنسوجات التقليدية، وخاصة البسط أو "الكليم"، والمنسوجات الحريرية والصوفية باستخدام أنوال يدوية. ولا يزال عدد من سكان المدينة، خاصة في منطقة الشجاعية، يستخدمون أنوالا خشبية يدوية لإنتاج هذه الأنواع من المنسوجات بأشكال وأحجام مختلفة باستخدام وبر الجمال والأغنام، التي يتم تنظيفها وصباغتها بألوان مختلفة قبل نسجها، حيث تعكس الأحجام والتصاوير والألوان البيئة المحلية والتراث الفلسطيني، وكذلك الذوق الشخصي للفنان. ورغم التناقص الذي حدث في هذه الصناعة خلال العقود الماضية، إلا أن هناك اليوم تشجيعا مستمرا لهذه الصناعة للحفاظ عليها من الانقراض. ومن المحاولات الهامة في هذا الاتجاه، قيام بلدية غزة بالمساهمة في إيجاد السبل المختلفة لتسويق منتجات الأنوال اليدوية من الكليم، ومساعدة هذه الصناعة في الدخول إلى مجال التسويق السياحي، كما يحدث حاليا في "قرية الحرف والفنون" في مدينة غزة، حيث يتم فيها عرض منتجات من الصناعات النسيجية التقليدية المحلية بهدف تسويقها، والحفاظ على ديمومتها كواحدة من أهم مقومات تراث المدينة.



صناعة النسيج، نساء يقمن بنسج الكلم بواسطة النول اليدوي. (في الأعلى)

صناعة النسيج، نساء يقمن بنسج الكلم. (في الأسفل)

المصطلحات

أبلق	تتابع مداميك الحجارة الملونة (الأسود والأبيض) في البناء. وهي كلمة مشتقة من اللغة التركية
إجازة	تصريح هو مثابة شهادة بمصطلح اليوم يمنحه الشيخ المدرس لتلميذه ليروي عنه بعضا أو كلا من علمه.
أروقة	جمع رواق وهي مجموعة من البلاطات المتتالية، مفتوحة من ثلاث جهات ومسقوفة بأقبية متقاطعة تستند على سلسلة من العقود القائمة على دعامات من جهة، وعلى جدار من جهة أخرى.
الأرابسك	فن الزخرفة العربي الذي انتشر في العصور الإسلامية، وعناصره كانت من الوحدات الهندسية أو النباتية المحورة.
الحير	مساحة مكشوفة محاطة بأسوار، وفي الخليل يقصد بها مكان قبور سيدنا إبراهيم وذريته.
الزخارف الميمية	زخرفة ممتدة بارزة ومنحوتة في الحجر على شكل إطار تتكون من خطين متوازيين يتشابكان على مسافات منتظمة.
السماع خانه	مكان الذكر والإنشاد، وانظر قاعة الذكر.
العلية	غرفة صغيرة في أعلى البيت تقع بين السطح ومرفقات البناء الأخرى.
الوقف	تخصيص ريع هبات عينية أو عقارية لخدمة أهداف خيرية محددة ضمن شروط.
إيوان	مساحة مربعة أو مستطيلة الشكل مغلقة من ثلاث جهات، وأما الجهة الرابعة فتكون مفتوحة بعقد.

بحري	ذات علاقة بنهر النيل. وقد اكتسب المماليك البحرية هذه التسمية لأن مراكزهم كانت تقع في جزيرة الروضة على نهر النيل.
برج	وهو عبارة عن حصن يحاط أحيانا بجدار خارجي.
برجي	وتنسب الى "برج" وقد اكتسب المماليك البرجية هذه التسمية لوجودهم في أبراج قلعة القاهرة.
بسيليكا	أحد طرز الكنائس في العصر البيزنطي يتميز بوجود عدة أروقة أوسطها يكون أكبرها وأعلاها، والاسم والشكل اتخذا من قاعة الاجتماعات في العصر الروماني.
بطّال	مصطلح أطلق على من تقاعد من أمراء المماليك وأرسل للعيش في مدن بعيدة عن العاصمة.
بيمارستان	دار المرضى " المستشفى".
تعليق	نوع من الخطوط الفارسية. تطور في القرن الرابع عشر، واستعمل خصيصا في مراسلات القضاة والقناصل.
تكية	مشتقة من الكلمة التركية "تك". وهي مركز اجتماع الدراويش وصلاتهم وسكنهم، وهي رمز معماري استحدثه العثمانيون. ويقابله " مكان تقديم الطعام والشراب مجانا".
تنانير	أشكال أسطوانية تتنظم فيها قطع الصابون بعضها فوق بعض حتى تجف.
جوسق	قبة صغيرة فوق المنابر أو المآذن.

حبوس — وهو اهداء عقار وبشروط محددة لصالح بناء مسجد أو أي مؤسسة دينية أخرى، مثل المدرسة أو الخانقاه، أو لصالح مؤسسة مدنية مثل السبيل أو حتى بيت.

حجارة الأميال — إشارات حجرية أموية وضعت على الطرق لبيان المسافات خاصة في الطرق المؤدية للقدس.

حرام — وهو العمل المحرم والشائن من وجهة النظر الإسلامية.

حمام — مبنى مؤلف من المشلح (قاعة استقبال ذات مساطب)، وثلاث غرف متدرجة في الحرارة (الباردة، الفاترة، والساخنة)، علاوة على المرحاض، المستوقد، وأحواض مائية. وقد يكون خاصاً أو عاماً.

حنبلي — أحد المذاهب السنية الأربعة في الإسلام.

حنفي — أحد المذاهب السنية الأربعة في الإسلام. وقد بدأ هذا المذهب أبو حنيفة النعمان (79-149هـ/ 699-767)، وقد كان المذهب المتبع لدى العثمانيين ونقلوه لمقاطعاتهم.

خان — مبنى خصص لنزول التجار وبضائعهم ودوابهم ويكون داخل المدن وخارجها

خانقاه — نزل لمسافري الصوفية والدراويش.

خلوة — وهي حجرة صغيرة قليلة الشبابيك وأحيانا من دون شبابيك لاختلاء الصوفي فيها بمفرده، وفي بيت المقدس هي وحدة معمارية مستقلة.

دركاة — ممر موزع يلي المدخل مباشرة.

دكة المبلغ	مسطبة مرتفعة داخل المساجد الجامعة، يقوم عليها شخص ليردد بصوت عال تكبيرات الإمام وصلواته.
دوادار	وظيفة هامة في الدولة المملوكية كان صاحبها يتولى الإشراف على مراسلات السلطان. وهو يقابل منصب وزير الدولة.
ديواني	نوع من الخطوط الرائجة جدا، يشبه الخط الفارسي، استعمله القضاة العثمانيون في مراسلاتهم.
رباط	مبنى معماري لإيواء زوار بيت المقدس ولإقامة الفقراء والصوفية.
رنك	شعار الأمير أو السلطان في العصر الأيوبي والمملوكي، كان يوضع على الممتلكات الشخصية.
زاوية	مبنى مؤلف من عدة وحدات معمارية خصص لإقامة الصوفية.
زلّج	قطع صغيرة من البلاط الخزفي المصقول تستعمل لتزيين المباني من الداخل والخارج.
ساقي	أحد الوظائف الهامة في العصر المملوكي، وكان مسؤولا عن أشربة السلطان.
سبوليا	وهي كلمة يونانية وتعني الحجارة المأخوذة من نصب تذكارية سابقة.
سبيل	وحدة معمارية توفر المياه للشرب والوضوء مجانا رغبة في نيل الثواب.
سماط إبراهيم	الأكل المجاني الذي عرف باسم الدشيشة، والذي كان موقوفا على زوار مدينة الخليل وسكانها في العهود الإسلامية خاصة العصر المملوكي.

سنجق	كلمة تركية، وهي التقسيم الإقليمي القديم لملكية الباشا في تركيا.
شافعي	أحد المذاهب السنية الأربعة في الإسلام.
قيسارية	سوق مغطى.
كلم	مصطلح عام يطلق على السجاجيد المنسوجة وليست المعقودة (المحاكة).
كوابل	مجموعة من الأحجار مثبتة في الجدران مشكلة من ثلاثة صفوف، العلوية منها تبرز عن السفلية لتحمل شرفات.
كونبيوم	نظام من العيش المشترك في دير لمجموعة من الرهبان المتنسكين.
لورا	نظام في رهبنة الصحراء اعتمد على العيش المنفرد للمتنسك، ولقاء مشترك في فترات متباعدة.
مالكي	أحد المذاهب السنية الأربعة في الإسلام. أنشأه الإمام مالك (49-178 / 713-795)، وانتشر في العالم الإسلامي الغربي بما في ذلك الأندلس.
مجاور	من ترك مدينته واستقر في أحد المدن الإسلامية المقدسة الثلاث (مكة، المدينة، والقدس).
مشربية	حلية من الخشب الخرط توضع على النوافذ والشرفات تحجب الرؤية من الخارج وتسمح بها من الداخل.
مقام	مبنى مؤلف من وحدة معمارية أو أكثر، فيه قبر لشخصية دينية هامة، تكون عليه قبة، يقصد للزيارة من قبل العامة.

مقرنصات	حلية معمارية تتكون من قطع من الحجر أو الخشب على شكل محاريب أو عقود صغيرة.
مكتب	مكان تدريس الأطفال الأيتام لمبادئ القراءة والكتابة ولحفظ القرآن.
نزل	فندق على طرق السفر الرئيسة لتسكين المسافرين وحماية ممتلكاتهم.
نستعلق	كتابة عربية ذات أحرف متصلة وضعها الخطاطون الفرس في نهاية القرن الرابع عشر. وكانت تستعمل وبشكل خاص في كتابة الشعر والنثر. وتتميز هذه الكتابة بأشكالها المستديرة ووضوحها وصفائها الهندسي.
وكالة	تشبه الخان لكنها أكبر حجما، وهي مخازن تجارية كبيرة تباع فيها البضائع.

الأعلام

إبراهيم باشا (1204-1264 / 1789-1848)
قام وبأوامر من والده، محمد علي، باحتلال فلسطين وسوريا وقضى على الجيوش العثمانية. ثم حكم هاتين الولايتين لمدة قرنين من الزمان. تميز عصره بالازدهار الثقافي العربي وكذلك بإنشاء العديد من مراكز الفنون والمدارس.

ابن عربي، محي الدين (ت 560-638 / 1165-1240)
صوفي أندلسي له أكثر من أربعمائة مؤلف بالفلسفة وعلوم ما وراء الطبيعة. وقد كان لهذا العالم الجليل تأثير كبير على أنصاره ومعارضيه على حد سواء، حيث عمد جميع المفكرين المسلمين المتعاقبين إلى ذكر مفرداته المبدعة والتي تجاوزت الصوفية الإسلامية. وكمتخصص ومنظر في علم الوجود، هز مذهبه الحالم عالم الفكر الصوفي والإسلامي عموما. كما استمر في وضع خواطر فلسفية حول الطبيعة والغيب.

ابن عربي، محمد بن عبد الله (ت 543 / 1148)
ارتحل هذا الخطيب والفقيه الأندلسي إلى القدس، حيث نشر آراءه حول المسموح والممنوع على المسلمين فعله خارج المناطق الإسلامية، وقد استقبلت آراؤه بالاحترام والإنصات. فهو على سبيل المثال، أوصى بالهجرة إلى الأندلس والبقاء في الجزيرة الايبيرية. كما أوصى بالعيش بإيمان وصبر في ظل ظروف السيطرة الخطيرة فيما يتعلق بصحته وشخصه وأملاكه وعلاقاته القريبة.

ابن نمر، عبد المحسن
معماري مقدسي عاش في أواخر القرن العاشر / السادس عشر.

أبو الوفاء، شمس الدين
قاضي غزة عام 852 / 1448، ومؤسس قيسارية فيها.

أحمد بن عثمان (الشيخ) (ت 805 / 1402)
قام بإنشاء البناء الأول لمسجد نسب إليه في غزة.

أحمد بن رضوان (باشا) (ت 1015 / 1606)
حاكم غزة لمدة ثلاثة عقود.

الإدريسي، أبو عبد الله (493-560 / 1100-1165)
رحالة وجغرافي ومؤلف مغربي . عاش في بلاط الملك روجر الثاني في صقليا، وكتب له وصف شامل عن العالم (كتاب روجر) عام 549 / 1154.

الاسكندر المقدوني (356-323 ق.م.)
وهو خليفة ملك مقدونيا، فيليب (336-323 ق.م) ومن أشهر الفاتحين، اجتاح إمبراطورية الفرس.

الداري، تميم بن اوس
كان من أول ساكني فلسطين ممن اعتنقوا الإسلام، وأول الحاصلين على تقاليد الوقف في الأراضي المقدسة. منح الرسول الداري وأولاده وسلفه، وقبل إنشاء فلسطين الإسلامية بفترة طويلة، إقطاع كبير في منطقة الخليل "حتى يوم الحساب" مؤكدا بهذا أيضا على الأحقية الشرعية للإسلام على أملاك فلسطين.

الأفغاني، عبد الكريم
شيخ الزاوية القادرية الحالي في القدس.

أقبغا الطولوتمري
أمير مملوكي في غزة ساهم عام 802 / 1400 ببناء مسجد ابن عثمان.

السامريون
طائفة انبثقت من اليهودية، وترى في جبل جرزيم في نابلس جبل الهيكل.

الغساسنة
سلالة عربية استوطنت في سوريا وعملت مع البيزنطيين لحماية الحدود.

الأوزاعي، الإمام (88-157 / 707-774)
من أئمة الإسلام، اشتهر بمذهب عرف باسمه.

أيدمر، عز الدين

أمير مملوكي بنى سنة 668 / 1269 زاوية للشيخ علي البكاء في الخليل.

بدر الجمالي (404-486 / 1014-1094)

هو أرميني الأصل وأول حاكم فاطمي لعكا، حيث ساهم بعدها في توطيد أركان الدولة الفاطمية بالاستجابة لطلب الخليفة المستنصر (427-486 / 1063-1094) لإعادة النظام في مصر. فقاد إليها جيوشه من سوريا في 466 / 1074. وعندما نشر الاستقرار في المنطقة، سمي بالقائد الأعلى للجيش.

(البدوي) أحمد بن إبراهيم بن محمد بن بكر (598-675 / 1199-1276)

صوفي مشهور عاش في مدينة طنطا المصرية، وقد تميز منذ صغره بالتزامه وروحيانيته. واتته رؤية عام 1236 / 634 تحثه على زيارة قبور الصوفية في العراق. وعند عودته الى القاهرة، جمع حوله مجموعة من الأتباع في طنطا، معلنا ولادة ما يسمى بالأخوة البدوية. وانتشر صيت القداسة وقدرات ما فوق الطبيعة للمؤسس الذي نسبت إليه العديد من المعجزات.

بردبك، الدوادار

أمير مملوكي أنشأ مدرسة في غزة عام 859 / 1455.

(برقوق) الظاهر سيف الدين (784-801 / 1382-1399)

سمي بهذا الاسم لأن لديه عينين بارزتين، وقد وصل الى الحكم عام 1382 / 784. وهو أول المماليك البرجيين او "برجيي مصر" وبقي فيها حتى مماته.

برسباي (825-841 / 1422-1438)

تميزت فترة السلطان المملوكي بارسباي بالاستقرار امتدت خلالها السيطرة المصرية الى مناطق بعيدة من حوض المتوسط. وامتدت من ميناء جدة حتى موانئ البحر الأحمر. وقد استأنف سياسة الاحتكار على الصادرات والواردات التجارية، وأعاد تسيير قنال الاسكندرية بهدف تسهيل الملاحة النهرية وتحسين الاتصالات بين المدن المختلفة. وبالرغم من أن سياسة الاحتكار هذه كانت مجحفة بمصالح الشعب المصري، إلا أنها أكسبت السلطان الموارد المالية الضرورية للدفع للحرس المملوكي المرتزق، وكذلك تجهيز أكاديمية عسكرية من أجل الدفاع عن البلاد.

البكاء، الشيخ علي (ت 670 / 1271)
صوفي ، دفن في الخليل اشتهر بكثرة بكائه أثناء الذكر.

بيبرس الظاهر ركن الدين البندقداري (658-676 / 1260-1277).
يعدّ المؤسس الفعلي للدولة المملوكية، قام برعاية العديد من المباني والترميمات، وتميز عهده بالحملات العسكرية الظافرة. كما قام بإنشاء الخلافة العباسية في مصر وبقي في السلطة لمدة 17 عاماً. وهو أول من أرسل المحمل الى مكة ليثبت أنه حامي الخلافة.

بيرم جاويش
أمير وراعي عمارة في القدس في القرن السادس عشر.

تنكز الناصري (الأمير) (712-740 / 1312-1340)
هو مؤسس المدرسة التنكزية في القدس. بدأ حياته، وكغيره من أمراء المماليك، عبداً قبل أن يصبح من أكثر الرموز العسكرية والإدارية شهرة في سوريا في فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون. كان سخيا مول عددا كبيرا من المشاريع العمرانية (الأنظمة الهيدروليكية، المدارس، النزل والحمامات) في دمشق والقدس وفلسطين. تقلد وظيفة الساقي والتي كانت محطة حساسة للغاية في الهرمية المملوكية.

الثوري، سفيان أبو عبد الله (ت 97-161 / 715-778)
هو إمام عراقي من أصل كوفي، يعدّ من أهم العلماء في زمنه، وكاتب العديد من التعليقات الشرعية التي أثرت على عدد من العلماء الآخرين. هو زاهد ومتعمق في الدين ذو ذكاء متميز.

الجاولي، علم الدين سنجر
تقلد عدة مناصب في مصر وولايات أخرى خلال عهد السلطان المملوكي المنصور قلاوون، وكذلك في عهد ولده محمد. وقد عين مندوبا للسلطان محمد وحاكما للقدس، ونابلس، والجليل وغزة حيث بنى العديد من المساجد. كما بنى في الخليل العديد من المباني والتي نسبت إليه عام 720 / 1320، وكان كذلك ناظر الحرمين (القدس والخليل).

جستين الأول (482-565)
امبراطور بيزنطي قام باختيار القادة الأكثر قوة وقدرة، من الذين قاتلوا الونداليين والفرس، وأعاد احتلال إفريقيا وايطاليا. وقد نشر ملخصاً للقانون الروماني ويطلق عليه " الملخص" وأتبعه ب "المؤسسات"، و"القصة القصيرة"، و " المدونة". كما قام ببناء النصب التذكارية الجميلة.

الجعبري، إبراهيم بن عمر (ت 732 / 1332)
هو شيخ الحرم الإبراهيمي ومؤسس عائلة الجعبري في مدينة الخليل.

جلال الدين الرومي (604-672 / 1207-1273)
شاعر فارسي صوفي، ولد في خراسان في إيران. قضى عدة سنوات للدراسة في حلب ودمشق والتقى ابن العربي، حيث قام بتعليم فلسفة التشريع وقانون الكنيسة. وقد خلف أبوه الذي كان عالماً لاهوتياً مشهوراً دعاه السلطان سلجق لإدارة مدرسته. أوجد طريقة رقص الدراويش، وكان عمله الأساسي الشعر الروحاني والذي زاد من شعبيته.

جلبي، أوليا (1021-1092 / 1611-1682)
رحالة تركي له "سياحتنامة"، زار فلسطين مرتين 1059-1082 / 1059-1082 حصل خلالها على تسجيلات مكتوبة دقيقة للغاية حول العادات والتقاليد والمعتقدات والخرافات التي كانت سائدة خلال العهد العثماني. كما تمكن من مقابلة كبار المسؤولين السياسيين خلال زياراته الرسمية بالنيابة عن السلطان مراد.

الجيلاني، عبد القادر (ت 561 / 1166)
إمام من كبار المتصوفة، مؤسس الطريقة القادرية. وكان من أكثر أولياء المسلمين شعبية. قام ولسنوات عديدة بتدريس العلوم الباطنية في صومعته في بغداد.

الحسيني، محمد طاهر
مفتي القدس، اعتنى بمقام النبي موسى عام 1303 / 1885-1886.

الحموي، ياقوت (575-627 / 1179-1229)
مؤرخ وجغرافي، صاحب "معجم البلدان".

خشقدم، الظاهر سيف الدين الأحمدي (865-872 / 1460-1467)
كان من أصل يوناني بعكس بقية السلاطين المملوكيين ذوي الأصل البرجي.

الخليلي، الشيخ محمد (ت 1147 / 1734)
متصوف مقدسي أصله من الخليل.

روهان مايكل دينس
متطرف متعصب، استرالي الجنسية، حرق المسجد الأقصى متعمدا في 21 / 8 / 1969 تمهيدا لإقامة الهيكل الثالث.

السقواتي، الشيخ محمد (ت 652 / 1254)
قام على الأغلب ببناء زاوية المغاربة في الخليل.

سليمان، القانوني (926-974 / 1520-1566)
ولد عام 900 / 1494 وتوفي في هنغاريا في أيلول من عام 979 / 1566. هو عاشر سلطان عثماني وأكثرهم شهرة. كان يدعى بالقانوني من قبل شعبه، والرائع من قبل الغرب. قاد الامبراطورية العثمانية إلى أفضل حالاتها الإقليمية والسياسية والفنية والفكرية. هو فاتح عظيم ومنظم بلا منازع. وقد تدخل في السياسة الاوروبية عبر الوقوف الى جانب فريق فرانسيس الأول ضد تشارلز الخامس، وكان أول من منح الاوروبيين (الفرنسيين) امتيازات تجارية في الامبراطورية العثمانية.

سنقر العلائي (الأمير) (697 / 1298)
نائب غزة، ساهم في تطوير الجامع العمري الكبير.

الشافعي، محمد (150-204 / 767-820)
هو إمام شافعي ولد في غزة، أعطى اسمه لمذهب من المذاهب السنية الأربعة، وهو من أهم رموز علم الغيبيات والقانون الإسلامي. وقد أوكلت إليه مسؤوليات في الطب.

الشريف (عائلة)
عائلة عريقة في الخليل والقدس تنسب إلى الشيخ الصوفي عمر المجرد.

شمسي سفر (الأمير)

أمير مملوكي قام ببناء منبر من الرخام في مسجد علي بن مروان بغزة.

صالح وإخوته (طوقان)

بنوا حمام الجديدة في نابلس سنة (1149 / 1736-1737). كما أنشأوا في نهاية القرن 13 / 19 واحدة من أروع المصابن في المدينة.

صفرونيوس (ت نحو 17 / 638)

بطريرك القدس من عام 634-638، في عهده فتح العرب القدس. وتميز هذا الراهب بالتقشف والتقوى، وأيضا بحبه للعلوم والفلسفة. وقد ترك وبالاشتراك مع الراهب جين موسكوس وصفاً لحياة الرهبنة في فلسطين ومجموعة من القصص والعظات، والتي حظيت بتقدير المجلس العالمي في القرن السابع.

صلاح الدين الأيوبي (531-589 / 1137-1193)

مؤسس الأسرة الأيوبية (567-648 / 1171-1250)، وبطل حطين. وهو واحد من اعظم الرموز في العصور الإسلامية الوسطى. وقد كان هذا البطل إداريا مميزا، وكان لائقا به تصرفه المشرف وخاصة بما يتعلق بالمسيحية، حيث كسر الحواجز الطائفية، الأمر الذي أكسبه احترام معاصريه وكذلك احترام الأجيال اللاحقة.

طرنطاي الجوكندار 730 / 1330- 1331

والي غزة المملوكي، مؤسس الزاوية الأحمدية.

طشتمر، العلائي

أمير مملوكي، أسس المدرسة الطشتمرية، ودفن فيها عام 786 / 1384. كان موسيقارا عظيما ومعجبا بالشعر وعلم الفقه، وتقلد مناصب إدارية وعسكرية مهمة. وقد كان داودار كبيراً للسلطان أشرف شعبان، حاكم ولاية صفد وقائد الجيوش في مصر.

ظاهر العمر (الزيداني)

أمير الجليل في القرن الحادي عشر / السابع عشر، عمر طبرية وعكا.

عبد الحميد الثاني (1293-1327 / 1876-1908).
سلطان عثماني

عبد الملك، بن مروان (65-86 / 685-705)
خامس الخلفاء الأمويين، وهو باني الحرم الشريف.

العدوية، رابعة (95-185 / 713-801)
متصوفة أدخلت على التصوف فكرة الحب الإلهي، وواحدة من أعظم الشخصيات في الإسلام. تم التعبير جيدا عن شكر الله عبر أفعالها وكلماتها وشعرها.

عز الدين الأميري
قام ببناء المنبر العاجي في الجامع الكبير في نابلس سنة 713 / 1313.

علم الدين سنجر الدوادار
أمير مملوكي (628-699 / 1230-1300) بنى خانقاة في القدس.

العلمي، شمس الدين محمد القرن 11 / 17
صوفي مقدسي، شيخ الزاوية الأسعدية، ودفن في زاويته.

علي بن مروان (الشيخ) (ت 715 / 1316)
أحد أقطاب غزة في العصر المملوكي، وهو مغربي الأصل ومدفون في مسجد يحمل اسمه في غزة.

عمر، بن الخطاب (13-23 / 634-644)
ثاني الخلفاء الراشدين، اشتهر بعدله، وفي عهده تغلبت الجيوش الإسلامية على الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية.

عمر بن عبد العزيز (61-101 / 681-720)
الخليفة الأموي الثامن، من أعظم إنجازاته الإصلاحات الإدارية.

الغزالي، الإمام أبو حامد (435-505 / 1058-1111)

فيلسوف ومتكلم ومتصوف، لقب "بحجة الإسلام". وقد درس القانون في بغداد حيث منحته المعرفة الواسعة وطريقته الرائعة والمميزة سمعة عظيمة. وقد كان لنظرياته تأثير كبير على ارتقاء الاسلام. وبينما كانت كتاباته تدحض الفلسفة العقلانية، فقد تمكنت، في الوقت ذاته من التوفيق بين العلوم الإلهية والفلسفة والصوفية. ومن ضمن أعماله الأساسية كتاب " إحياء علوم الدين". وقد عرف في العصور الوسطى باسم الغازل.

الغزي أبو السعود (952-981 / 1174-1545)

من علماء القدس في أواخر القرن العاشر / السادس عشر.

فروخ الشركسي (1030 / 1620)

أمير محلي حكم القدس، ونابلس، وأسس منظمة الحج لأول مرة في سوريا في القرن 11 / 17.

قايتباي (الملك الأشرف) (872-901 / 1467-1496)

تعدّ فترته استثنائية إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الانتصارات العسكرية وطول فترتها، إذ تعدّ مدة حكمه، والتي استمرت 29 سنة، مميزة إذا ما اعتبرنا انتصارات الفترة العسكرية ومدتها. مع أن من سبقه من السلاطين حكموا لفترات قصيرة. ولقد تم في زمنه بناء العديد من المباني التي تميزت بالأناقة وحسن البناء والسلاسة والجمال والزخرفة. بنى في القدس مدرسة وسبيلاً.

قلاوون (الملك المنصور) (678-689 / 1279-1290)

ويعد الأب الثاني لدولة المماليك البحرية. وقد حكمت عائلته لمدة 100 عام تقريبا. قتل في حصار عكا.

كتبغا (الملك العادل) (694-696 / 1294-1297)

من المماليك البحريين. وهو مبعوث السلطان الناصر محمد خلال فترته الأولى.

لاجين (الملك المنصور) (696-698 / 1297-1299)

هو مبعوث الى السلطان العادل زين الدين كتبغا خلال جميع فترته. وقد وضع اغتيال السلطان نهاية لعهده ممهدا الطريق لرجوع السلطان ناصر محمد.

محمد بن بكتمر (الأمير)

أمير مملوكي قام بتعمير مسجد ابن مروان في غزة عام (772 / 1370-1371).

محمد بن قلاوون (الملك الناصر)

سلطان مملوكي، حكم 693-694 / 1294-93 / 698-708 / 1310-09 709-741 / 1341-10، وقام بمشاريع معمارية في فلسطين.

مجير الدين الحنبلي (860-928 / 1456-1522)

قاض ومؤرخ مقدسي. وتعود معرفتنا عن القدس والخليل في القرن 15 الى كتابه: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. وهو مدفون في سفح جبل الزيتون.

مصطفى لالا باشا (975-979 / 1567-1571)

والي الشام ، أنشأ سوقاً وخاناً في نابلس.

المعظم عيسى (الأمير) (ت 625 / 1227)

أمير أيوبي، حاكم دمشق وفلسطين.

المقدسي، محمد بن أحمد (ت 380 / 990)

جغرافي مقدسي الأصل، وهو رحالة حقيقي زار مناطق الاسلام كافة ما عدا الأندلس. وهو كاتب أكبر موسوعة جغرافية: كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.

المقدسي، نصر (ت 490 / 1096)

من علماء القدس في القرن الخامس / الحادي عشر، نسبت إليه أول المدراس في القدس.

المؤيد سيف الدين شيخ (815-824 / 1412-1421)

سلطان مملوكي برجي.

النابلسي، عبد الغني (ت 1143 / 1731)

متصوف وشاعر ورحالة وعالم دين.

النوروزي، الأمير يونس (الداوادار)
أسس خاناً في عام 789 / 1387 شكل لاحقا نواة مدينة خان يونس.

هراكليوس الأول (610-641 م)
إمبراطور بيزنطي. انتصر على الساسانيين وهزمه العرب.

هيلانة (327-247)
إن شهرة هذه القديسة تعود الى اكتشافها صليب المسيح أثناء الحج خارج الأرض المقدسة عام 326 عندما كانت في الثمانين من عمرها. وهي والدة الإمبراطور قسطنطين، والذي لعبت معه دورا هاما في الاعتراف الرسمي بالكنيسة المسيحية والذي زاد من شهرتها. وما بين الأعمال السياسية والتقوى الدينية والاهتمام بالفقراء والمظلومين، كانت حياتها عبارة عن رواية. فهي من عائلة متواضعة، حصلت على لقب أوغستا في 324، وأنشأت العديد من المؤسسات، وقد تم تقديسها بعد وفاتها في روما بجنازة وموكب غير مسبوقين.

هشام بن عبد الملك (105-125 / 724-743)
الخليفة الأموي العاشر، وفي عهده وجد العرب أنفسهم في حرب مع تشارلز مارتل. وقد شهدت الإمبراطورية الأموية في عهده أعظم التوسعات. وقد سقطت الخلافة الأموية بعد وفاته بأقل من 10 سنوات.

الوليد بن عبد الملك (48-96 / 668-715)
هو سادس الخلفاء الأمويين (86-96 / 705-715) وكان ذا نشاط معماري عال. ويرجع إليه بناء المسجد الأموي وإعادة بناء المسجد الكبير في المدينة، وكذلك مسجد الأقصى والذي بناه والده عبد الملك. وقد أكمل تقاليد والده القوية، حيث أدخل تقاليد بيزنطية وفارسية إلى إدارة الخلافة. وقد اتسعت الفتوحات الاسلامية في زمنه .

الوليد بن يزيد (125-126 / 743-744)
متذوق ورجل ثقافة. كان شاعرا قبل ان يصبح خليفة، وعندما خلف عمه هشام، واجه عداوة القبائل اليمنية التي أجبرته على الرجوع. وقد توفي عن عمر يناهز 35 ملاحقا من أعدائه في أحد القلاع التي بناها في صحارى تدمر.

اليغموري، أبو بكر 821 / 1418
حاجب غزة، له أعمال في مسجد شهاب الدين اليغموري.

يوحنا المعمدان (ت 28)
هو النبي يحيى والذي نعلم عن حياته عبر التقدمات المختلفة لمواد الإنجيل في "العهد الجديد". لقد قاد هذا النبي وسلف المسيحيين ونذيرها حياة متقشفة في الصحراء يصاحبه بعض أتباعه، وكان يعظ حول طريق الفضيلة، والعدالة، والتحول الذاتي. وفي الوقت نفسه، بشر بقدوم المسيح وقام بتعميده وتعميد نفسه في نهر الأردن.

المؤلفون

وليد شريف (رئيس المشروع)

تخرج من دائرة علم الإنسان والاجتماع والآثار في جامعة بيرزيت عام 1982. وحصل على درجة الماجستير في علم الآثار البيئي من جامعة دارهام، انجلترا عام 1986، وهو مرشح حاليا للحصول على درجة الدكتوراة في الآثار من جامعة لومير، ليون في فرنسا.

عمل معيدا ومساعدا أكاديميا في معهد الآثار، جامعة بيرزيت (1983-1993). وشارك خلال هذه الفترة بالعديد من حملات الكشف عن الآثار (الحفريات) ومسح الأراضي في فلسطين. عمل نائبا لمدير عام مديرية التراث الثقافي في فلسطين عام 1994 - 2003. وأصبح، وبهذه الصفة، عضوا في ICOMOS، ICROM، ICOM. وهو حاليا عضو فاعل في وحدة التراث الثقافي التابعة لمشروع بيت لحم 2000. ويعمل حاليا مديرا عاما للتخطيط والتطوير في وزارة السياحة والآثار، وإضافة الى ذلك، شارك في عدد من المحاضرات والمؤتمرات العالمية حول المحافظة على الفن المعماري.

محمود هواري

تخرج من الجامعة العبرية في القدس عام 1978 وتخصص في علم الآثار. حصل على درجة الماجستير والدكتوراة في علم الآثار والفنون الإسلامية من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن، انجلترا عام 1986 ، 1998 وبالتتالي. وكانت أطروحة الدكتوراة تحت عنوان" القدس الأيوبية: دراسة أثرية ومعمارية".

عمل محاضرا في جامعات بيرزيت، بيت لحم والقدس في فلسطين. أكسبه عمله في دائرة الجغرافيا ورسم الخرائط في جمعية الدراسات العربية بالقدس (1986-1991) الخبرة على صعيد وضع الخرائط ورسومها التوضيحية. إضافة الى ذلك، عمل على عدد من الأفلام الوثائقية واكتسب خبرة في مجال السياحة. شارك في العديد من أعمال الحفريات والمسح المعماري بصفته متخصصاً ميدانياً في علم الآثار. له العديد من المقالات المنشورة حول الآثار الإسلامية. كما شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والعالمية.

مروان أبو خلف

تخرج من الجامعة الاردنية عام 1973 وتخصص في علم الآثار. حصل على درجة الماجستير في علم الآثار القبتاريخي "ما قبل التاريخ" من جامعة السوربون في باريس عام 1975، كما حصل على درجة الدكتوراة في الفن الإسلامي وعلم الآثار من جامعة أكسفورد عام 1985. عمل ومنذ عام 1985 مديرا للمتحف الإسلامي التابع للحرم الشريف في القدس. عمل محاضرا للتاريخ والآثار الاسلامية في جامعة بيرزيت، وجامعة الخليل، وكذلك جامعة الملك سعود في الرياض. عمل، ومنذ عام 1992 وحتى تاريخه، مديرا لمعهد الآثار الاسلامية في جامعة القدس. شارك في العديد من حملات الحفريات والكشف

عن الآثار، والمؤتمرات وحلقات البحث العلمي محليا وعالميا. تضمنت منشوراته مقالات مختلفة تتعلق بالفن الإسلامي والآثار في فلسطين. كان آخرها كتالوجاً توضيحياً للمتحف الإسلامي التابع للحرم الشريف في القدس.

نظمي الجعبة

تخرج من جامعة بيرزيت عام 1979 وتخصص في الآثار والدراسات الشرق أوسطية. عمل مديرا للمتحف الإسلامي التابع للحرم الشريف في القدس في الفترة 1981-1985. حصل على درجة الماجستير في الدراسات الشرقية والآثار من جامعة Tuebingen في المانيا عام 1988، وحصل ومن الجامعة نفسها على درجة الدكتوراة في الآثار وتاريخ التخطيط عام 1991. عمل أستاذا مساعدا في دائرة التاريخ في جامعة بيرزيت وترأس قسم التاريخ والآثار والجغرافيا.

تقلد عام 1994 منصب مدير مركز رواق للمعمار الشعبي ومقره البيرة، فلسطين ولا يزال على رأس عمله. وأشرف في مضمار عمله في رواق على عملية اعداد قوائم المباني المعمارية المحلية في مدينة رام الله والبيرة. إضافة الى ذلك، فهو عضو فاعل في العديد من الهيئات الفلسطينية الأكاديمية والعامة. كان أحد مفوضي الفريق الفلسطيني في مفاوضات السلام الثنائية في الفترة 1992-1995. قام بتأليف العديد من الكتب والمقالات حول تاريخ فلسطين وعلم الآثار. كما شارك في العديد من المؤتمرات وحلقات البحث العلمي محليا وعالميا.

يوسف نتشة

حصل على درجة البكالوريوس والماجستير في الآثار الإسلامية من جامعة القاهرة عام 1975 و 1982 وبالترتيب. حصل على درجة الدكتوراة في الآثار الإسلامية من كلية الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن عام 1997. وكانت أطروحته تحت عنوان" مباني القدس العامة العثمانية في القرن السادس عشر". إضافة الى ذلك، فهو يحمل دبلوما في الإرشاد السياحي.

يعمل ومنذ عام 1977 وحتى اليوم مديرا لدائرة الآثار الإسلامية التابع لمديرية الأوقاف في القدس. وقد تلقى، وكجزء من عمله، العديد من البرامج التدريبية في التوثيق، وترميم المواقع والمباني الأثرية وصيانتها. عمل بشكل جزئي مدرسا في جامعات بيرزيت، بيت لحم، الخليل والقدس. كما شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والعالمية. قام بنشر العديد من الكتب والمقالات حول الآثار الاسلامية.

معين صادق

تخرج من جامعة القاهرة عام 1979 وتخصص في الآثار. حصل على درجة الماجستير والدكتوراة في الآثار من الجامعة الاتحادية في برلين عام 1987 و1990 وبالترتيب.

عمل ومنذ اب 1994 مديرا لدائرة الآثار في وزارة السياحة والآثار في غزة.

وكمتخصص في علم الآثار، عمل في الفترة 1980-1984 في البعثة الفرنسية الأثرية في الدوحة (قطر) منسقا لعدد من بعثات الكشف عن الآثار وهي: الفلسطينية-الفرنسية، والفلسطينية-السويدية، والفلسطينية-البريطانية في قطاع غزة. عمل محاضرا للآثار في المعهد العالي للآثار في جامعة القدس عام 1991 . وفي الفترة بين 1991-1994، شغل منصب نائب عميد كلية التربية في غزة ومحاضر لمادة آثار فلسطين. أما في الفترة بين 1994 - 2000، فقد عمل محاضرا وبشكل جزئي في جامعة الأزهر في مدينة غزة، ومديرا لعدة بعثات فلسطينية للكشف عن الآثار في منطقة غزة، كما قام بإجراء مسح عن الأنشطة الأثرية فيها.

شارك في العديد من المؤتمرات وورشات العمل محليا وإقليميا وعالميا، كما وضع العديد من الكتب والمقالات حول الآثار الإسلامية.

نصير عرفات

تخرج من جامعة بيرزيت عام 1995 وتخصص في الفن المعماري. وأكمل دراسته مركزاً على ترميم المباني القديمة وتوثيق فن المعمار المحلي (الشعبي) في فلسطين. شارك في عدد من المحاضرات وحلقات البحث حول صيانة (إعادة تأهيل) المباني التاريخية وإصلاحها، والتي كان أهمها المحاضرات المكثفة والتي كانت تحت عنوان "الترميم وإعادة التأهيل المدني في البلدان الإسلامية" في معهد الدراسات الأثرية المتقدمة في جامعة يورك، انجلترا. عمل أيضا ولعدة سنوات على مشاريع ترميم مختلفة في مركز رواق للمعمار الشعبي، للحفاظ على الفن المعماري، حيث كان من ضمن مسؤولياته الأساسية الإشراف على توثيق المباني التقليدية في مختلف المدن والقرى الفلسطينية. وهو يعمل حاليا منسقا للمسح المعماري لمشروع إدارة الموارد الثقافية. وهو أيضا مدير لجنة صيانة البلدة القديمة في نابلس. وقد قام بتقديم الكثير من اوراق العمل في العديد من المؤتمرات المحلية والعالمية في مجال فن العمارة الشعبي الفلسطيني.

سعد النمر (المدير الفني)

حصل على درجة البكالوريوس في علم الاجتماع والعلوم السياسية من جامعة النجاح-نابلس عام 1989. ثم حصل على درجة الماجستير في العلوم السياسية- دراسات شرق أوسطية من جامعة اكستر في إنجلترا عام 1992. وهو مرشح لنيل درجة الدكتوراة في المجال نفسه. عمل مديرا للعلاقات

الدولية في دائرة العلاقات الدولية والعربية– منظمة التحرير. انضم الى فريق متحف بلا حدود كمدير فني عام 1999. يعمل بشكل جزئي مدرسا في جامعة بيرزيت. يعمل حاليا إضافة الى عملة في متحف بلا حدود مديراً للحملة الشعبية لاطلاق سراح مروان البرغوثي. وفد شارك في العديد من المؤتمرات وورشات العمل محليا ودوليا.

جيهان بركات (مدير فني مساعد)
حصلت على دبلومها الأول في مدينة القدس عام 1993 في موضوع الاستقبال الفندقي من نوتردام في مركز القدس، قسم الترويج المهني (حرفي). وحصلت على دبلومها الثاني في موضوع إدارة السياحة ووكالات السفر، بيت لحم عام 1995. وعملت مؤخرا مع متحف بلا حدود كمساعد مدير فني.

الفن الإسلامي في حوض المتوسط

تفتح سلسلة معارض "متحف بلا حدود" العالمية هذه الأبواب لاكتشاف أسرار الفن الإسلامي وتاريخه وطرق بناء عمارته والوحي الديني المتمثل فيه.

البرتغال

في أراضي الفتاة المغربية المسحورة. الفن الإسلامي في البرتغال.

بعد ثمانية قرون من اندحار المسلمين وعودة الحكم المسيحي إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، ما زالت مدن غرب الأندلس القديمة محتفظة بأسطورة الفتاة المغربية الجميلة التي فك أمير مسيحي سحراً كانت تحت وطأته. ويعبر مسار الحضور الفني الإسلامي في البرتغال عن طبيعة العمارة الشعبية في تلك المناطق، عبر التناغم ما بين أساليب البناء والمعالم الزخرفية. يعطي هذا المعرض الزائر صورة واضحة عن خمسة قرون من الحضارة الإسلامية بدءاً بعصر الخلافة، وتؤكد القصور والمساجد التي حولت إلى كنائس والقلاع والمدن عظمة الماضي في منطقة كويمبرا في "الغرب".

تركيا

الفن العثماني المبكر. إرث الأمراء.

تبرز في هذا المعرض الأعمال الفنية والمعالم العمرانية التي تمثل أرقى مراحل غرب الأناضول، وهي الجسر الثقافي والفني ما بين الحضارات الأوروبية والآسيوية. خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، حفز التحول نحو مجتمع تركي إسلامي إبداعات فناني الإمارة التركية، الذين طوروا وحدة فنية رائعة بلغت ذروتها في الفن العثماني.

المغرب

المغرب الأندلسية. اكتشاف الفن الحيّ.

منذ بداية القرن الثامن الميلادي، تطلعت المغرب إلى ما بعد جبل طارق وسكنت شبه الجزيرة الأيبيرية؛ وتشارك شاطئي المضيق في المصير ذاته. ومن التبادل الثقافي والاجتماعي والتجاري المستمر الذي حرك أقصى المغرب طيلة أكثر من سبعة قرون، أتت إحدى أبهى مظاهر الحضارة الإسلامية. لم يترك الفن الإسباني-المغربي الحقيقي بصمته على المعالم العمرانية الرائعة فحسب، بل تعداها إلى خواص المدن وطبيعة التقاليد النقية الخالصة. يعكس هذا المعرض ثراء تاريخ الحضارة الأندلسية في المغرب.

تونس

إفريقيا. ثلاثة عشر قرناً من الفن والعمارة في تونس.

منذ القرن التاسع الميلادي، ومن دون الانفصال عن التقاليد المتوارثة عن البربر والقرطاجيين

والرومان والبيزنطيين، استطاعت إفريقيا دمج وإعادة تفسير التأثيرات من بلاد الرافدين عبر الشام ومصر، ومن الأندلس. هذا الشكل التوافقي الفريد والذي تبدو مظاهر عدة منه اليوم في تونس – من فخامة قصور الحكام المسلمين في العاصمة إلى ضراوة العمائر الإباضية في جربا – يمكن رؤيتها في منشآت الرباط والمساجد والمدن والزوايا وحتى الغرف، التي تركت بصمتها على أرض تزخر بالتاريخ.

إسبانيا – الأندلس. أراغون، كاستيلا لا مانشا، كاستيل وليون، إكستريمادورا، مدريد.
الفن المدجن. آثار الجماليات الإسلامية في الفن المسيحي.
يحتل فن المدجنين (Mudejar، وهم السكان المسلمون الذين بقوا في الأندلس بعد عودة الحكم الإسباني) مكانة فريدة بين أنماط الفن الإسلامي. يتعامل هذا الفن مع التجسيد المرئي لتعايش مرهف ما بين حضارتين عاشتا علاقة فنية مثمرة، رغم الخلاف السياسي والديني بينهما. اشتهر هؤلاء الحرفيون والفنانون بمعرفتهم الفائقة بفن العمار، وقاموا ببناء العديد من القصور والأديرة والكنائس للقادمين المسيحيين الجدد، زخرفوها بأنماط الفن الإسلامي الأندلسي. تم اختيار الأعمال الفنية في هذا المعرض لتنوعها وكثرتها، وهي شاهد على حيوية فن المدخر.

الأردن
الأمويون. نشأة الفن الإسلامي.
بعد الفتح العربي الإسلامي للشرق الأوسط، انتقل مركز الخلافة الأموية (661-750) إلى دمشق، حيث ورثت العاصمة الجديدة تقاليد حضارية وفنية ترجع بأصولها إلى الفترتين الآرامية والهلنستية. استفادت الحضارة الأموية بهذا الانتقال من الحد ما بين بلاد فارس والرافدين في الشرق، وبلدان حوض المتوسط في الغرب. كان المركز الجديد موائماً لبزوغ لغة فنية جديدة، مزجت ما بين التأثيرات الهلنستية والرومانية والبيزنطية والفارسية، وأنتجت فناً مبتكراً من العمارة والزخرف. يظهر المعرض أعمالاً فنية ومعمارية متنوعة، ويعطي الزائر المجال للتفكير في ظاهرة "مناهضة الأيقونات".

مصر
الفن المملوكي. عظمة وسحر السلاطين.
تحت حكم المماليك (1249-1517)، أصبحت مصر مركزاً مزدهراً لالتقاء الطرق التجارية، واكتسبت بالتالي ثراءً عظيماً. كانت القاهرة إحدى أعظم مدن حوض المتوسط وأكثرها أمناً واستقراراً، فأمها العلماء من أصقاع الدنيا كافة للعيش فيها، وجذبوا معهم أتباعهم وتلاميذهم. تعكس عمارة المماليك وفنونهم الزخرفية حيوية التجارة والطاقة الذهنية، إضافة للقوة العسكرية والدينية التي

برزت جميعها في تلك الفترة، وتتميز الفنون ببساطتها الراقية وحيويتها، وتشبه خطوطها النقية خطوط الأعمال الفنية الحديثة. تمثل الأعمال الفنية المنتقاة من القاهرة والرشيد والإسكندرية وفوكة قمة ما توصل إليه الفن المملوكي.

السلطة الفلسطينية

الحج والعلم والصوفية. الفن الإسلامي في الضفة الغربية وغزة.

توجه العديد من الحجاج من أنحاء العالم الإسلامي كافة إلى فلسطين خلال فترات حكم الأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وأعطى هذا المد الديني دفعة قوية لتطور الفكر الصوفي عبر الزوايا والرباط التي تكاثرت وانتشرت منشآتها في أنحاء فلسطين كافة. ورحبت مراكز الأبحاث المختلفة بالعلماء الكبار، الذين اكتسبوا بذلك مكانة رفيعة، وأصبحت الظروف موائمة لتطور فن راق ما زال محتفظاً بقوة بريقه حتى يومنا هذا. تعكس المعالم العمرانية الإسلامية في هذا المعرض بوضوح الأبعاد العظيمة للحج والعلوم والتصوف.

إيطاليا – صقلية

الفن الصقلي النورماني. الثقافة الإسلامية في صقلية في القرون الوسطى.

في وسط البحر المتوسط، توجد صقلية "أرض اللقاءات" حيث اجتمعت عدة حضارات وتلاقت لتصل إلى تناسق جديد ومبتكر. تعدّ العمارة العربية–النورمانية فريدة في المشهد الأوروبي، كما أنها تختلف عن العمارة الموجودة في العالم الإسلامي، ويقدمها هذا المعرض من وجهة نظر تفرّدها كما يعطي بعض المفاتيح لتفسيرها ويسمح بالتالي بتعريفها. وسيتمكن الزائر المتنبه من فهم تمازج عناصرها بشكل أفضل، تلك العناصر التي بدأت من محيط الحضارات البيزنطية والعربية والنورمانية، واستخدمت في هذا الفن المبتكر والراقي.

الجزائر

فن وعمارة الضوء. بصمات الإسلام في الجزائر.

سوريا

الحقبة الأيوبية. الفن والعمارة السورية في العصور الوسطى.